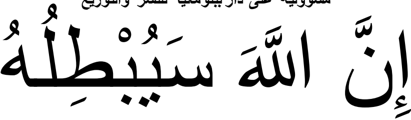
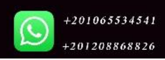
إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ



- **الكتاب:** إن الله سيبطله
- **المؤلف: أحمد محمود شرقاوي**
- **نوع العمل:** رواية
- **الطبعة الأولى** 1441 هـ - 2020 م - **القاهرة**
- **الناشر: بيلومانيا للنشر والتوزيع – مصر**
- رقم الإيداع : **2020/8374**
- الترقيم الدولي **(ISBN): 8 - 21 -978-977-6808-**
- تنسيق وإخراج: فريق إعداد ببلومانيا
- المدير العام: جمال سليمان

- العنوان: عنوان (1): 15 شارع السباق – مول الميريلاند – مصر الجديدة
  عنوان (2): 29 شارع الكمال – الأميرية – القاهرة
- تليفاكس: 002026061014 - 002022402029
- محمول: 00201208868826 – 00201065534541 – 00201210826415
- صفحة الدار على موقع فيسبوك: https://www.facebook.com/biblio mania.eg/
- الموقع الإلكتروني: www.bbibliomania.com










رواية

أحمد محمود شرقاوي

" الطارق "





www.bbibliomania.com

2020

إهداء..

- إلى من بيده ملكوت كل شيء.. يقدر ولا يُقدر عليه.. يطعم ولا يُطعم.. مسبب الأسباب.. مُهيئ الظروف والأوقات.. ميسر الأقدار.. ذي الطول.. فلا إله إلا الله، عليها نحيا وعليها نموت وعليها نبعث.. لا إله إلا أنت ولا ينبغي أن يكون غيرك..

- إلى من نثروا الورود والرياحين وشاركوني في مسيرتي الخطرة حتَّى نهايتها.. أصدقائي ومتابعيني على الفيس بوك, لأجلكم أكتب, ولأجلكم أعاني بكل رضا..

- إلى تلك التي عانت معي كثيرًا ولازالت تعاني.. إلى نفسي.. المظلومة والظالمة.. الضحية والجانية.. المقتولة والقاتلة.. التقية والفاجرة.. إلى النفس اللوامة..

*****

"لقد جئتُ إليكم لأخرجكم من عبادةِ العِباد والشهوات إلى عبادةِ ربّ العِباد"

أحمد الراحل

"فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ"

"الله جلَّ في علاه"

البداية

وقف يتطلع مشدوهًا لتلك النجمة التي راحت تتحرك بعشوائية على تلك اللوحة المظلمة وكأنها أَمَةٌ قد تحررت من قبضة سيدها.. كانت تذكره بها.. نجمته الخاصة التي تخلَّت عنه في أشد أوقات الاحتياج.. تولد لديه على الفور شعور بالنفور تجاه تلك النجمة وأخذ يتجاهلها بصعوبة، يحاول مرارًا فلا يستطيع، فمن يمتلك الجرأة ليُبعد عينيه عن ملكة السحر والجمال..

لطالما عشق النجوم منذ الصغر ولطالما كان يراقبها ويتأملها كل ليلة حتى خانته تلك النجمة التي تجسدت له على الأرض، وسرعان ما غضبت الرياح لنفس الأمر أو لأمر آخر فأخذت تضرب جسده بعنف وكأنها تعاقبه على شيء ما.. تجاهل كل هذا وسقط أسيرًا لبعض الذكريات الحزينة.. حاول مرارًا أن ينتشلَ بعض الذكريات السعيدة من أعماق عقله لعلها تهوّن عليه ما هو فيه ولكن دون جدوى.. نظر للأعلى ثانية وشعر بقبضة تجتاح صدره، لقد كره النجوم بعد أن عشقها، حتى اكتمال القمر أصبح يبغضه لأنه يذكره بها وبحديثه معها..

شعر بهزةٍ عنيفة بجواره فنظر للحائط المجاور فرأى الهاتف المتدلي من الجدار بخيط رفيع يهتز.. اضطرب قلبُه ونظر للهاتف.. هناك من يتذكره بعالم البشر، كان والده هو المتصل، ضغط على الزر بهدوء حتى لا تنقطع شبكة الاتصال وتحدث:

- آلو...
- كيف الحال يا ولدي؟
- كل الأمور تسير على ما يرام.
- حمدًا لله على سلامتك متى وصلت؟
- منذ ساعتين وأنا الآن أقف حراسةً على أحد الأبراج.
- هانت يا ولدي، لقد تبقى القليل وتنتهي فترة التجنيد، فقط تحمل..
- لا تقلق أنا بخير، كيف حال أمي؟
- بخير حال، كلنا هنا بخير فقط نريد أن نطمئن عليك.

أنهى الاتصال بفعل ضعف شبكة المحمول وشعر ببعض الراحة لسماعه صوت والده، فهنا لا صوت سوى زئير الرياح ولا لون سوى لون الرمال؛ وكأن الله لم يخلق سوى اللون الأصفر. أخذ يحك يديه ببعضهما لعله يحصل على بعض الدفء بعد أن اشتدت الرياح وثارت..

***

كان الفزع يتجلى من ملامحه وهو يركض بأقصى سرعة وسط الظلام، قلبه يتراقصُ كسمكةٍ غادرت موطنها وتحتضر وأنفاسه تتسارع كل ثانية طلبًا للمزيد من الهواء، حبات العرق أغرقت وجهه وحتى عيناه أصبحتا تحترقان من ملوحة العرق.. تعثر من جديد وسقط أرضا على تلك الأرض الصخرية وشعر بآلام عنيفة في ذراعه، ولكنه تجاهلها مُرغمًا وراح يركض من جديد، شعر ببعض الأمل حينما وجد أن الأرض ترتفعُ رويدًا رويدًا، يبدو أنه قد وصل للمخرج.. ومن خلفه سمع صوتَ صراخِ امرأة، صراخٍ مفزع جعل شعر جسده ينتصب من الرعب، لقد كشفت الأمر حتما وسترسلهم ليحضروه من جديد وهو لن يسمح بهذا أبدا..

شعر بسعادة بالغة حينما وصل لمخرج الكهف، صرخ فرحا حتى سقط أرضا من التعب حينما داعبته الرياح الباردة، رياح الصحراء التي لطالما كان يبغضها، ها هي الآن تشبه قطرات المياه الباردة في جوفِ ظمآن كاد أن يهلك عطشا، وفي ظلمة الصحراء رأى أبراج الحراسة الخاصة بالوحدة العسكرية التي يخدم بها، بدأ يركض من جديد نحوها، ها هو أول برج يقترب، يريد أن يصرخ لعل صديقه الواقف فوق البرج يسمعه ولكن صوته لم يسعفه، اقترب أكثر وأكثر وعلى وجهه ابتسامة واسعة، لقد هرب أخيرا من الشيطانة، لقد فعلها، و...... شعر بجسدٍ صلب يضرب رأسه من الخلف فسقط أرضا يلهث، سالت خيوط الدماء على رأسه دافئة ودارت الدنيا به مرات ومرات، قاوم وقاوم ولكن الظلام كان أقوى فراح يعصره كأناكوندا عملاقة حتى هدأت مقاومته واستسلم لتلك الغيبوبة.. ومن خلف الجسد الممدد كانت هناك قطع من الظلام تتحرك بهدوءٍ شديد نحوه..

***

لازال على حاله فوق البرج يراقب الظلام وهو يكاد أن يتجمد من الصقيع، ينتفض جسده كل حين وهو لا يبالي، أمسك قلمه في وسط الظلام وأخرج ورقة صغيرة وخطّ فوقها:

" حتى لو انتفض الجسد فالقلب ثابت "

ثم طواها بين يديه وألقى بها لتفترسها الرياح وتلقي بها حيث تشاء..

لم يكد يسقط أسيرًا لهمومه من جديد حتى لمح ما جعل جسده يرتجف، هناك ومن قلب ظلام الصحراء كان هناك من يتحرك، قطع مظلمة تتحرك بهدوء شديد، الأمر كان واضحًا تلك المرة، لقد رأى مثل تلك الأشياء عشرات المرات فهنا وفي قلب صحراء سيناء يمكنك أن ترى ليلا ما لا يصدقه المجنون قبل العاقل ولكن تلك المرة الأمر مختلف تمامًا، شعور طاغ يتملكه ويخبره أن هناك من يعبث معه هناك، تحسس سلاحه المجاور وكأنه يستمد منه القوة، وجَّهه نحو المكان المنشود وحبس أنفاسه ليستمع؛ فأيّة حركة كفيلة ليصب رصاصاته نحو صاحبها دون أدنى شفقة، فهنا التعليمات واضحة، أطلق نيرانك على أي شيء مهما كان، أي ضوء تراه أو صوت تسمعه أطلق نحوه رصاصاتك ولا تبالي فأنت مستهدف في أي لحظة. قام بسحب مجموعة الأجزاء وتهيأ للضرب حتى لمحها هناك، لمحها واتسعت عيناهُ غير مصدقٍ لما يراه.. إنها جنازة، نعم جنازة تسير من أمام البرج بخُطى متأنية وكأنها جنازة عسكرية.. شعر برهبة تجتاح قلبه وهو يراقب المشهد.. إنها الجنازة السوداء بلا شك، هناك نعش يحمله أربعة يرتدون السواد بالكامل فلا يظهر من أجسادهم شيئًا حتى غطاء الرأس هرميّ الشكل كان أسودَ ومن خلفهم كان يسير عشرة يرتدون نفس الملابس، ملابس سوداء واسعة لا تحدد ملامح الجسد وغطاء رأس هرميّ الشكل، خطواتهم بطيئة يسيرون بانتظام رهيب وكأنهم أتباع ملك الموت..

شعر بأنه مسلوبُ الإرادة تمامًا، وكأنه مُشاهد لا يقوى على التأثير في الأحداث، نسي كل شيء في لحظات وكأنه قد فقد إحساسه بما حوله، ترك سلاحَه من يده وشَخَصَ بصرُه نحو النعش، النعش الذي كان يهتز

بعنف وكأن من بداخله لازال حيا، انتفض قلبه بين ضلوعه وتخشبت أطرافه وتجمدت إرادته، ظل يراقب اهتزاز النعش حتى سمع صوت صرخات من بداخله على الرغم من هياج الرياح وزئيرها، كان صوتا رجوليا يطلب النجدة، اهتزاز النعش كان يدل على الحركة العنيفة للمأسور بداخله، صرخ عقله بداخله لعله يتحرك أو يفعل شيئًا ولكن دون جدوى..

إرادته قد خانته، وكأنه تمثالا من الشمع، كل أطرافه تأبى أن تتحرك، تابع الجنازة وهي تبتعد بأعين ثابتة لا يطرف لها جفن حتى ابتلعها الظلام، الظلام الذي لم يُغطِ على صوت صراخ حبيس النعش فحملت صوته الرياح لتلقيها عليه فينتفض قلبه أكثر وأكثر..

***

المكان: مكان ليس كباقي الأمكنة..

الزمان: زمان ليس كباقي الأزمنة..

وقف أربعةٌ من الرجال يشبهون الأقزام في تكوينهم الجسماني، قصار القامة بطريقة ملحوظة ممتلئو الجسد قليلا، حليقو الرؤوس يرتدون ملابس خضراء اللون تشبه الملابس الحربية في العصور الوسطى، أعينهم كانت واسعة جدا وكأن الوجوه عبارة عن عينين فقط، كانوا يتطلعون لبعضهم في خوف شديد وكأنهم على موعد مع هادم اللذات ومفرق الجماعات.. بعد دقيقة من النظرات الوجلة دلف رجل ضخم بطريقة ملحوظة من باب جانبي وهو يحمل سيفا أسود اللون من مقبضه وحتى نصله، نظر لهم وقال بصوت أجش:

" هارمونيا "

ما إن نطق بها حتى خروا سُجدًا على الأرض، لحظات ودلفت امرأة هي آية في الجمال، ترتدي زيًّا فضفاضًا ناصعَ البياضِ تتدلى منه عناقيد في آخرها حباتٌ من اللؤلؤ، أما وجهها فكان لوحةً من السحرِ، بعينيها الواسعتين الزرقاء اللتان ما إن تتطلع فيهما حتى تشعر وكأنك قد سقطت أسيرا بين موجاتها، بيضاء البشرة وكأنها قطعة من الثلج، شعرها الأحمر يتدلى من خلفها فيمتزج بالزي الأبيض فيخلق لونًا جديدًا لم تراه البشرية من قبل، سارت بخطوات هادئة وتخطت الأربعة بهدوء شديد ثم وقفت قبالة عرشٍ مهيب يتكون من مقعد صُنعت حوافه من الذهب المُطعم بحبات الياقوت، أما مكان الجلوس فقد كان يتموج كمياه البحر بلونه الأحمر الشفاف، وعلى الجانبين كان هناك تمثالان ضخمان لزوجٍ من الأفاعي البيضاء بلون الثلج؛ ينظران بأعين حمراء كالدم لمكان الجلوس، صعدتْ بهدوء حتى وصلت للمقعد وما إن استدارت لتجلس حتى دبت الحياة في زوج التماثيل فانحنيا برأسيهما بجوار المقعد؛ فوضعت يديها على رأسيهما ثم جلست فعادت الأفاعي لتتجمد من جديد..

لثواني راقبتْ الأربعة وهم على حالهم ثم تحدثت بصوت فحيح تردد صداه في كل أنحاء القاعة:

- انهضوا

نهض الأربعة في الحال ووقفوا يتطلعون إليها في خوفٍ حقيقي.
ابتسمت لهم ابتسامة شيطانية وقالت:

- كيف يحدث هذا في مملكة مارق؟

نظر ثلاثة منهم لرابعهم يستمدون منه العون، فهو كبيرهم على ما يبدو فقال:

- لقد احتجزنا الأسير كما نفعل دوما داخل زنزانة من الهاجس، ولا ندري حقا كيف هرب منها ولكن أخبرني الحارس أن الأسير كان يتحدث بكلمات غير مفهومة أبطلت عمل الهاجس المحتجز بداخله واستطاع الهرب
- إذًا فقد أخطأتَ يا كاهني الأكبر؟
- خطأ غير مقصود، وأطلب الغفران يا هارمونيا.
- في مملكة مارق ليست هناك رحمة، وليس هناك غفران، فتلك الكلمات قد محوتها من القاموس أيها الكاهن السابق.

ثم التفتت في لحظة للأفعى المجاورة لها فتحركت الأفعى على الفور وانقضت على الكاهن؛ فالتفّت من حوله وراحت تعتصره عصرًا، أما هو فقد جحظتْ عيناه عن آخرهما واسودَّ وجهه..

أما من كانوا بجواره فوقفوا يرتجفون كطيور مبتلة وهم يسمعون صوت تحطم عظام كبيرهم الذي زحفت فوق جسده الأفعى حتى أصبحت رأسها مواجهةً لرأسه، نظرت له بعينين تجري بهما بحورٌ من الدماء وفتحت فكيها عن أخرهما وأدخلت رأسه داخل فمها ثم قضمته ففصلت رأسه عن جسده؛ لتندفع من عنقه نافورةً من الدماء..

عادت الأفعى من جديد لمكانها ووضعت رأسها تحت يد هارمونيا ثم تجمدت من جديد ليصدر صوتا غريبا وكأنه تمزق أجساد جراء تجمدها..

كان الكهنةُ الثلاثة في حالة يرثى لها وهم موقنون أن الموت يحلق بجناحيه الآن فوق رؤوسهم، نظرتْ لهم نظرة تعالي وقالت:

- أما أنتم فسوف......

قطعت كلماتها حينما تحركت الأفعى الأخرى على الفور وزحفت بسرعة رهيبة على الكرسي من الخلف لتعود حاملة بين فكيها كرة شفافة بداخلها مادة تتموج كالزئبق تشبه المادة التي تجلس عليها.. تلقفت الكرة من بين فكي الأفعى ونظرت بها لتثور المادة بداخل الكرة وكأنها

حمم تغلي ثم يظهر مشهد سير أصحاب الملابس السوداء وهم يحملون النعش فتبتسم وتتألق عينيها ببريق مخيف وتقول:

- لقد فعلها العفاريت

ثم صاحتْ بصوتٍ هادرٍ عبر الكرة:

- أحضروا النعش إلى هنا.

ثم نظرت للثلاثة وقالت:

- ارحلوا، فاليوم سوف تبقى أرواحكم في أجسادكم.

ابتسموا فرحين وهرولوا نحو الخارج بطريقة تذكرك بهرولة الطفل ذو الثلاثة أعوام.. أما هي فنظرت للأفعى المجاورة وقالت بصوت دوى في القاعة كقصف الرعود:

- ساحة الدم

***

ما زال على حاله يتطلع للأفق وهو كالمنوَّم مغناطيسيا، ينظر نحو المكان الذي اختفت فيه الجنازة، ومن بعيد سمع صوت طرق معدني، انتفض جسده سريعا وكأنه قد أفاق من كابوس للتو ونظر للخلف فرأى صديقه عامر:

- صباح الخير يا أحمد

نظر لصديقه بخواء شديد فتحدث عامر:

- ما بك يا صديقي؟!
- ....
- ماذا حدث لك؟!

بدأ أحمد يفيق رويدا رويدا ليرى أن الشمس قد خرجت من مهدها لتجوب الأرض من جديد وأن النور قد ملأ الدنيا من حوله فقال:

- لماذا جئت؟
- شفاك الله انظر في ساعة يدك، إنها السادسة صباحا موعد تبديل الخدمة.
- حقا؟!
- يبدو أنك تحب الوقوق هنا، حسنا أكمل مكاني للسِتِ ساعات القادمة

ابتسم أحمد له بهدوء وهو يعاني من صدمته التي لم يخرج منها حتى تلك اللحظة، ترك صديقه الذي لعبت به الدهشة كثيرا وهبط من البرج بواسطة السلم الحديدي وذهب حيث مكان المبيت..

لم تفارق ذهنه مشهد الجنازة السوداء ولم تفارق أذنيه صوت صرخات من كان بداخل النعش، أخذ يفكر كثيرا..

هل نام أثناء الخدمة فرأى هذا الحلم؟!

هل كان يتخيل؟!

هل أصابه الجنون جراء وقفته كل ليلة وسط ظلمة الليل والصحراء؟!

كاد عقله أن يشتعل من التفكير فدلف إلى دورة المياه ونزع ملابسه وبدأ يصب المياه الباردة على جسده لعله يهدأ قليلا..

بعد ساعتين سمع صوت صافرة الطابور فنهض سريعا وارتدى الزي العسكري وخرج حيث أرض الطابور، لحظات وجاء الضابط ليتطلع في وجوههم، ثم قال:

- أين رماح؟

نظر الجنود لبعضهم في دهشة وحيرة فتابع بصوتٍ صارخ:

- فليجيبني أحدكم، رماح لم يظهر منذ أول أمس!

وكالمرة الأولى لم يجبه أحد فقال:

- على ما يبدو أنه قد هرب، سوف أقوم باتخاذ الإجراءات اللازمة ضده، فهو مثال للجندي الخائن..

انتهى الجَمع وقد نسي تمامًا أمر الجنازة وأوهم نفسه أنه كان مجرد حلم وأصبح شغله الشاغل "رماح " يا ترى أين ذهب؟!

هو يعرف رماح جيدا، مستحيل أن يفعل شيئًا مثل هذا دون أن يخبره.. نعم هو لم يره منذ يومين ولكنه ظن أن الضابط قد أرسله كدعم للوحدة المجاورة، فكثيرا ما يحدث مثل هذا الأمر هنا، حتى أنه قد اعتاد على غياب أصدقائه كل حين..

دلف إلى المبيت ليرتاح قليلا وما إن وضع جسده على الفراش حتى احتضنه النوم وطاف به نحو السماء..

وفي نومه رأى نفسه يسير خلف الجنازة السوداء مسلوب الإرادة شارد العينين، كان يسير بنفس الخطى التي يسير بها هؤلاء، وفجأة التفتَ له

أحدُهم، لم يظهر من وجهه سوى زوج من الأعين الحمراء وسط ظلمة شديدة، أشار له نحو النعش وعلى الفور سقط النعش أرضا وانفتح لينظر أحمد بداخله فيجده فارغا وقبل أن يتحرك حمله ذي السواد وألقى به نحو النعش وأغلق بابه، بدأ يصرخ ويصيح ويضرب بقبضته على غطاء النعش لعله يتحرك ولكن دون جدوى، شعر بالنعش يرتفع ثم يسير به، راح يصرخ من جديد ويئن من قلة الهواء وشدة ضيق النعش حتى شعر بيد تهزه بعنف شديد، انتفض من نومه ليجد زميله عاصم يحدثه:

- لقد كنت تهتز بعنف وأنت نائم، ما الأمر؟!

نظر له وهو يغرق في عرقه وقال بصوت مرتجف:

- لا شيء...
- حسنا، الضابط يريدك.
- ألا تعرف لمَ؟
- لا، ولكنه أرسلني وقال لي أن أحضرك له.
- حسنا أنا قادم.

***

سار بخطواتٍ واثقةٍ نحو ضابط الوحدة حتى وقف أمامه وقام بأداء التحية العسكرية بكل حزم، ابتسم له الضابط ووضع يده على كتفه وقال:

- أين رماح يا أحمد؟
- لا أعرف عنه شيئًا.
- أنت صديقه المقرب وأعتقد أنه أخبرك بمكانه.
- هذا ما أتعجب منه يا سيدي، فهو لم يخبرني بوجهته.
- إذا هرب من هنا فأخبرني لنتحدث معه ونعيده قبل أن أتخذ أي إجراء قانوني قد يضر بمستقبله كله.
- صدقني أنا أتمنى أن أعرف مكانه أكثر من أي شخص.
- حسنا، سأنتظر للغد وبعدها سأتخذ كافة الإجراءات ضده
- فلندعُ الله أن يعود قبل الغد.
- يا رب.

- أتريد مني شيئًا آخر يا سيدي؟
- نعم
- ....
- عربة الوحدة الخاصة بجلب الطعام قد تعطلت ولن يتم إصلاحها قبل الغد.
- و...........
- لذلك ستذهب على قدميك حتى تصل للوحدة الأساسية وتجلب لنا التعيين الخاص بنا وأنا سأخبرهم ليجلبوا لك عربة تعود بك إلى هنا.
- ولكن يا سيدي، الوحدة بعيدة جدًا عن هنا.
- لا تقلق سأخبرك كيف تذهب

***

ساحة عظيمة دائرية الشكل ومن حولها تتراص مئات المقاعد التي صُنعت على شكل مخلوقات تشبه العقارب ذات المخالب الضخمة، جلس المئات على تلك المقاعد ينتظرون الحدث الأكبر والذي سيرون فيه ما لم يروه من قبل، وهناك فوق الكل جلست هي.. هارمونيا..
جلست فوق عرش على شكل تنين تراقب الحشد بأعين جامدة وبوجه ثلجي، ومن خلفها تراصت ثلاثة صناديق بيضاء بلون الثلج، لحظات ونهضت من مجلسها ورفعت كفيها ليعم الصمت المكان بأكمله ويبتلع الكل ألسنتهم وكأن على رؤوسهم الطير.. تطلعت كل الأعين بها في رهبة شديدة، الكل يترقب ما سيحدث..

ثم فجأة صرخت بصوت كالرعد فانتفض الكل من حولها، صرخت كشيطانة مريدة، صرخت كأعظم نواحة وُجدت يومًا على الأرض.. ثم بدأت تتحدث بصوت يشبه الهمس وتقول:
" عليكم حلَّت بركتي، وعليكم قد رضيتُ، وعليكم أن تقدموا قرابينكم حتى تغدو مياهكم وتنبت أرضكم وتتجمل نساؤكم ويشتد أزر أطفالكم"

وهنا انفتحت بوابة بصوتٍ هادر من أسفل المقاعد ليخرج منها خمسة من الحراس أشداء الجسد وهم يقتادون ثلاثة..
قزم صغير يشبه الكُهّان ولكنه أكثرُ بدانة وملامح وجهه قد طُمست تمامًا فلم يتبقَ منها سوى العينين..
امرأة شابة عارية كيوم ولدتها أمها تتقدم بابتسامة واسعة تزين محياها..
رجل ضخم الجسد يرتدي ما يواري سوءته، غليظ الملامح نبت له قرنان فوق رأسه، تبرز عضلاته من جسده بأكمله.

وقفتْ تتطلع لهم بثبات رهيب؛ ثم همست لهم بصوت سمعه كل من بالساحة:
" قدموا قرابينكم لتحلَّ عليكم بركتي وليرضى عنكم هاجسي "
على الفور تقدم القزم بخطوات غير منتظمة، وكاد أن يتعثر أكثر من مرة حتى وقف مواجهًا لعرشها في الأعلى، أخرج من ملابسه فأسًا صغيرا وتحدث بصوت رفيع يشبه صوت الإناث..
" غابة الجحيم تقدم قربانها وتعلن ولاءها لك يا هارمونيا، المجد لك والعزة لك "
ثم صرخ صرخة وضرب بفأسه على قدمه اليسرى فانفصلت عن جسده فسقط أرضًا يضحك كالمجنون؛ وقد اندفعت دماءه تجري كنهرٍ على الأرض، ثم نظر بشرود لقدمه المقطوعة حتى أصابته صدمة عنيفة وراح يصرخ ويتلوى ويبكي ويطلب الرحمة، هنا صاح بعضا من الجمهور الذين هم على شاكلته يحثونه أن يتم الأمر ولكنه كان في عالم آخر من الألم والفزع.. خرجتْ عبارات كثيرة من أقرانه، بعضهم وصفه بالجبان وآخرون بالنذل وآخرون بالملعون.. وهنا صرخت هارمونيا بصوت جفف الدماء في عروق الكل..
" لم أقبل قربانكم يا أهل غابة الجحيم، فلتحلّ عليكم لعنتي "
وانقض أحد الحراس على القزم المصاب فضربه ضربة فصلت رأسه عن جسده لينتفض قليلا ثم تهدأ حركته تمامًا.. وعلى الفور انفتح صندوق ثلجي من خلف هارمونيا ليخرج منه ضبابٌ أحمر شفاف ينطلق بسرعة البرق؛ ليلتف حول كل قزم يجلس بين الجموع كطائر الموت لتتحدث هي وتقول:

- فلتزدادوا قباحة على قباحتكم، ووهنا على وهن، وليحلّ عليكم غضبي.

وعلى الفور اندفعت قطع الدخان الأحمر نحو أنوف الأقزام ليشتموه مرغمين فتهرم أجسادهم في الحال وتطمس ملامحهم ويزدادوا بدانة على بدانتهم وتظهر التجاعيد على أجسادهم..

وهنا ركض الرجل الثاني ضخم الجثة ووقف أسفل هارمونيا ليقول بصوت جهوري، غليظ، قوي:

- بحر الظلمات يقدم قربانه يا عظيمة فتقبليه منا.

ثم صرخ صرخة هادرة هزت القلوب بين الصدور وأخرج رمحا ثلاثيا كما الشوكة وطعن نفسه في بطنه بكل عنف فسالت دماءه تجري على جسده، صرخ صرخة جديدة وطعن نفسه ثانية في صدره ليخترق الرمح جسده ويخرج من ظهره فيسقط أرضا متبسما ويتمتم:

- المجد لك المجد لك.

نهضت على الفور وسط صياح وفرح الكثير ممن على شاكلته وابتسمت هي وقالت:

- قربانكم مقبول وعليكم تحل بركتي يا أهل بحر الظلمات.

وعلى الفور انفتح صندوق آخر من خلفها وخرج منه الضباب لينتشر في لحظات حول كل من على شاكلة الرجل من الرجال والنساء ثم يدلف الضباب إلى أجسادهم بواسطة أنوفهم فيشتموه منتشين بسعادة فتصيح هي:

- فلتزدادوا قوة على قوتكم، ولتطُل أعماركم ولتحل عليكم النعم.

وتحركت المرأة العارية تركض نحو مكان الرجل وتنظر للأعلى، ثم تقول:

- تقبلي قرباننا يا جميلة تقبلي تضحيتنا يا عظيمة تقبليني خالدة يا كريمة.

وهنا ألقت لها امرأة اخرى من الأعلى خنجرا فتلقفته بين يديها وصرخت بنشوة وسعادة:

- مدينة الخطايا تضحي.

وهوت بسكينها نحو عنقها فاخترقه حتى آخره؛ فتشنج جسدها كله وارتجف بعنف ولكنها لم تتوقف بل حركت السكين لتجتز عنقها كله فتسقط أرضا وقد غطت الدماء جسدها بالكامل، صدر صوتُ حشرجة عنيفة منها ثم سرعان ما هدأ تمامًا لينهض كل العرايا من مجلسهم ويصيحوا بكل فرح وسعادة، أما تلك العارية الصغيرة فكانت تصيح معهم ولكن تصيح بكل ألم وقهر الدنيا وقد هطلت دموعها كالأمطار الشتوية، ظلت تنتحب وتهتف بكلمة " أمي أمي " ولكن صيحات السعادة لم تُعطِ لها فرصة ليسمعها أحدهم من هؤلاء القوم.
نهضت هارمونيا وقالت:

- عليكم رضيتُ يا أهل مدينة الخطايا، وعليكم تحل الخيرات، فلتزداد نساؤكم جمالا فوق جمالهن ولتزداد خصوبة رجالكم ولتكثر دوابكم وأطفالكم ولتطول أعماركم..

وهنا فُتح الصندوق الثالث والأخير ليخرج الضباب ويشتمَّه العرايا فتزداد النساء جمالا وبهاء ويزداد الرجال قوةً وبأسا..

مرتْ دقائق من الصياح والفرح من قبل أهل البحر والمدينة ومن اللعن والشتم والتذمر من قبل أهل الغابة على حالهم ولسانهم يقول:
أما فينا شجاع يقدم قربانا في أحد الأعوام فيُقبل منه..
هدأ الوضع سريعا لتتحدث هي وتقول:

- واليوم أمنحكم عرضا خاصا جدا لم ترونه من قبل...

وعلى الفور فتحت بوابة أخرى ليدلف منها حارسا يقتاد أسيرا مقيدا بسلاسل حديدية، لم يكن قزما أو عاريا أو حتى قوي البنيان، بل كان يشبهنا كثيرا في هيئتنا نحن...

***

الشمس تتأجج كألف ألف شعلة في سماء تئن وتشتكي من ذاك اللهيب، الرمال تعانق كل شعاع يدلف إلى مسامها عناقا أبديا وتصيح " هل من مزيد!"
أما هو فلم يكن مرحبا أبدا بتلك الأشعة وهي تلتهم رأسه وتذيب مخه وهو يسير فوق الرمال في طريقه للوحدة العسكرية الأم والتي سيجلب

منها الطعام الخاص بوحدته الفرعية، أخرج منديلا وراح يمسح أنهار العرق المتساقط من جبينه بوهن، حث الخطى فوق الرمال التي كانت تنزلق من أسفله لتثقل حركته وتزيده وهنا على وهن..

نظر بعينيه للأعلى فرآها تنبض وتنتفض بالمزيد من اللهيب، ألن ترقّي لحاليَ قليلا وتهدئي من عذابك؟!
بحث بعينين قد احترقتا من تلك النظرة عن مكان يختبئ فيه ولو قليل من الشمس؛ فلم يجد سوى المزيد والمزيد من الرمال والتلال الصغيرة التي تشبه أمواج البحر المتراقصة، ابتسم حينما جال بخاطره البحر..
هذا الكائن الذي احتوى أسرار الجميع دون أن يتفوه بها وكأنه حكيم كل الأزمنة.
هذا الكائن الذي عانق الكل وربت عليهم بمياهه وأمواجه..
بدأت الذكريات تتدفق فوق رأسه، تذكر حينما رأى نجمته هناك، حيث البحر، كانت معه بالجامعة وكانت أول رحلة له معها، تذكر أول ما رآها وقتها وكيف كانت الأمواج تخجل من أن تغطي على روعتها، تذكر يوم أن رآها تبوح بأسرارها له، وقتها شعر بالغيرة الشديدة لأنها تبوح لغيره حتى لو كان البحر، حاول تذكر اسمها دون جدوى، لقد أصبحت في طي النسيان وينبغي أن تظل هناك ولا تركب معه مركب الحياة فيكفي ما فعلته به بعد أن تهيأ للزواج بها علنا..
اشتد الوهن وانحسر النور من حوله، وبدأ يدخل في دوامة مظلمة راحت تعصره عصرا بداخلها حتى عجزت قدماه عن حمله فسقط أرضا يلهث، وسرعان ما أصابته ضربة شمس قوية فقد على إثرها الوعي وذهب إلى بلاد ما وراء الشمس..
أسفل أشعة الشمس..

أفاق فجأة دون أية مقدمات، وما إن فعل حتى نظر لها، كانت الشمس تغرب في مشهد بديع سبحان من خلقه، نظر لها بابتسامة واسعة وسرعان ما أخرج قلما وورقة صغيرة من جيبه وكتب..

" ويكأن الشمس تطيّب خاطري، فبعد أن نضجت جلودي جراء حرارتها، ها هي تغرب في مشهد بديع، يسحر الألباب، ويهيم بالروح إلى الآفاق. لقد سامحتها رغما عني "
ثم طواها بين يديه وحفر حفرة في قلب الرمال ثم وضعها داخل الحفرة الصغيرة وقام بردمها.. تقطرت دمعة من عينيه فوق الحفرة ولكنه أحجم رفيقاتها سريعا وهو يقول في نفسه:
"سامحيني أيتها الكلمات فلن أجد سوى الصحراء لتطلع على ما أكتبه... بشر؟! أي بشر هؤلاء لكل يطلعوا على كلماتي؟!
هم لا يفقهون شيئًا ولا يكترثون لها، لذلك لن أطلعهم على شيء، فقط الصحراء هي من ستطلع على أسرارنا..."
وبدون مقدمات اتسعت عينيه عن آخرهما وهو ينظر للرمال، إنها آثار أقدام، آثار أقدام ضخمة عن أقدامنا، وكأنها أقدام عمالقة، على الفور لمعت عيناه حينما تذكر.. الجنازة السوداء.. لا شك أنها آثار أقدامهم، أحصى الخطوات المجاورة فوجدها عشرة أزواج، وأمامهم أربعة أزواج من الآثار ولكنها أعمق من الأخرى، إنها بلا شك لحملة التابوت، لا يدري لما جاءه اليقين أنها لهم!، ولكنه أصبح على يقين الآن أنه يرى آثارهم، راودته فكرة السير خلف تلك الآثار ولكن محدثه صاح به بداخل نفسه:

- وماذا عن الضابط؟!
- لقد ضللت طريقي ولم أستطع العودة.. وهذا حقا ما حدث..
- حسنا فلنعد أدراجنا..
- سنرجع ولكن لنتقفى الأثر قليلا..
- ولكن........
- لا تتحدث ثانية لقد سئمت منك..

غابت الشمس في الأفق وقد تركت قليلا من سحرها يزين الشفق والذي سرعان ما سيتبعها ليهجم الليل بظلماته ومخاوفه، بدأ يسير بجوار الخطوات وهو ينظر لها وعشرات الأسئلة تثور داخل عقله تطالب بإجابات تُهدئ من روعها قليلا..
وكان أولهم، هل أنا خائف؟!

إنه شيءٌ مجهولٌ خارجٌ عن المألوف، والإنسان دائما عدو للمجهول، فلماذا لا أشعر بالخوف؟!
ولكن حل سؤال جديد وغطّى على كل شيء، لقد هجم الليل سريعا وغابت عنه كل ملامح الطريق، أصبحت العودة دربا من دروب المستحيلات، ماذا سأفعل؟!
سؤال جديد يطرح نفسه بقوة، وجاءت الإجابة:

- سأنام هنا حتى الصباح..
- ماذا عن قائد الوحدة؟!
- لقد ضللت طريقي ألا تفقه يا رجل؟!!

جلس مكانه فوق الرمال ثم جلب حجرا صغيرا وقام برسم دائرة من حوله وبدأ يقرأ المعوذتين وبعض الأذكار لتحميه من شر الأفاعي والعقارب وغيرها مما لا يعرف كنهه، ومما تحتويه الصحراء داخل جوفها، تمدد على ظهره فتألم جراء تلك الأحجار التي جرحته في ظهره، اعتدل وأزالها ثم تمدد من جديد..
وبدأت نجوم السماء تفتح أبوابها وتطلع عليه بكل حب، تجاريه، تحدثه، تواسيه، أما هو فكان يشيح عينيه عنها، وتدفقت تلك الذكرى للمرة الألف بداخل عقله..

***

ها هو يجلس على مقعد في شرفة منزله يراقب النجوم كعادته وخاصة تلك النجمة التي أسماها باسمها، وسرعان ما رفعت تلك النجمة الهاتف واتصلت به، ابتسم وهو يجيب لتخبره بالخبر العسير..
لقد جاء أحدهم لخطبتي، ولا أعرف ما أفعل.
صعق من هول الخبر، ماذا عن الوعود والمواثيق؟!
ماذا عن انتظارها له حتى ينتهي من تلك الفترة العصيبة "فترة التجنيد"
أغلق الهاتف ونظر بأعين خاوية نحو السماء ليجد النجمة وقد غربت تمامًا عن ناظريه..

نفض تلك الذكرى من عقله لعل أحزانه تهدأ ولو قليلا وبدأ يراقب السماء، سماء الصحراء والتي تظهر لقاطنيها أسرار وأسرار..

وجمالا وبهاء..
وروعة وسحر..
هذا الشهاب الذي يركض فجأة بين النجوم وكأنه يربط بينهما حتى لا تنفك روابط الصحبة، تلك النجمة التي تركض بين أقرانها يمنة ويسرة دون أي خوف من السقوط..
هذا الطائر الأبيض الذي يخترق ظلمة السماء في شجاعة وهو لا يبالي..
أعقاب هو أم بومة قد ضلت طريقها؟!
واشتدت البرودة وبدأت تعصر عظامه عصرا، فقد السيطرة على جسده الذي راح يرتجف بشدة فما كان منه إلا أن اتخذ وضعية الجنين وأغلق عينيه وتجاهل زئير الرياح التي صمت أذنيه..

بعد ليلة كأنها سنون من الزمان خرجت الشمس من جديد لتحيي الأرض بعد أن هرمت بفعل الصقيع، سقط أول شعاع برئ على وجهه ففتح عينيه التي أحمر لونها جراء سهره طوال الليل، فمن ذا الذي قد يهزم الصقيع دون مساعدة؟
نظر للشمس طالبا منها بعض الدفء ونهض من مجلسه ينفض الغبار عن ملابسه، مشوشة هي ذاكرته لا يتذكر شيئًا، ولكن ما هذا؟!
الآثار اقتربت من أن تختفي ولكنها لازالت موجودة، ما إن رآها حتى ارتدت له ذاكرته في الحال، أيرجع إلى مكانه أم يتفقد الآثار أكثر وأكثر؟!
سار كالمنوم بجوار آثار الأقدام، شارد الزهن تستحوذ عليه فكرة واحدة وهي معرفة حقيقة ما رآه، لقد تيقن أنه لم يكن حلما أبدا، ولابد من معرفة الحقيقة، طاف حوله حلمه القديم وهو أن يكون باحث عن الأمور الغامضة وأن يسطع اسمه في وكالات الأنباء..
فتخرج تلك المذيعة التي تضع مساحيق تجميل تكفي لطلاء غرفة بأكملها لتقول بلهجة آلية:
"قام اليوم الباحث "أحمد نور الدين" باكتشاف مقبرة كبيرة تعود لما قبل عصر الديناصورات، وقد وجد بها ديناصورا حيا وكاد أن يفتك به لولا أن قام الباحث بترويضه وهو الآن بحديقة الحيوان بالجيزة."

ابتسم بسبب تلك الهلاوس التي ستفقده عقله عما قريب، فهو مجنون بلا شك، هو يعرف هذا ولكنه لن يظهر هذا الجنون لأحد، فقط هي من أظهر لها جانبه المخفي، وليته ما فعل، اللعنة كل ذكرى تقود نحوها وكأنها روما وكل الطرق تؤدي إليها..
توقف عقله عن التفكير وقلبه عن دقاته وصدره عن حركته حينما رأى أن آثار الأقدام تتوقف هنا، شعر بالخوف الشديد حينما جال بخاطره أنه قد يجدهم هنا، فالصحراء شاسعة كبيرة ولكنها ضيقة صغيرة لتتسع أحياء ينقذونه إذا ما حدث شيئًا..

نظر للأمام فرأى تبَّةً رمليةً عالية، تطلع إليها بتركيز، ما الغريب فيك أيتها التبّة لتختفي عندك آثار الأقدام؟!
حدثيني أرجوك..
اقترب منها وتحسس رمالها؛ فإذا بها تنهار أسفل يده ليتراجع مذعورا ويتطلع بتوجس لها، لقد كشفت التبة عن مدخل وكأنه باب، تراقص قلبه رقصة عجيبة من فرط الخوف والآثارة..
هل يتقدم؟!
هل يتراجع؟!
تلاعبت به الأفكار ولكن كالعادة الفضول هو المنتصر، الفضول هو السيد الذي يقود القافلة نحو حتفها غالبا..
تقدم بخطى من الهلام نحو المدخل، يقدم قدما ويؤخر أخرى حتى دلف للداخل، مكان واسع يشبه الكهف في تكوينه، جدران رملية ولكنها صلبة نوعا ما والطريق يمتد للداخل أكثر وأكثر..
توغل أكثر وأكثر بخطى حذرة فشعر أن الأرض تهبط به نحو الأسفل، كل خطوة يخطوها ينساق نحو باطن الأرض أكثر وأكثر، فكر أن يتراجع، فكر أن ينسحب ولكن عاد الفضول ليرفع سيفه فيحارب وينتصر.. حسم أمره وتقدم أكثر وأكثر نحو الهاوية.. انحسر الضوء وبات الظلام يحلق في الأجواء ويمرح، شعر باختناق لقلة الهواء وأخذ صدره يجاهد ليحصل على طعامه حتى وصل للنهاية، حائط يسد الطريق. شعر بخيبة أمل كبيرة كادت تفتك به لولا أن لمح تلك الفتحة بالحائط.. فتحة دائرية الشكل تكفي لولوجه منها زاحفا، استلقى على بطنه وابتسم حينما تذكر تدريباته المشابهة لهذا الوضع، زحف سريعا

نحو المدخل الذي اشتد ضيقا عليه وبات وكأنه قبرٌ ضيقٌ قد التهم في جوفه عاصيا لربه...
زحف أكثر وقد تلاعب به الرعبُ كالدمية، سيموت حتما، فهو لا يمكنه الرجوع، فجسده لن يقبل أن يلتف للخلف، ظل يردد بداخله كلمة "يا رب "
مرات ومرات حتى سقط، هوى من ارتفاع خمسة أمتار نحو الأسفل، ارتطم جسده بالأرض وثارت من حوله عاصفة من الغبار ما لبثت أن انقشعت ليتأوه من الألم ويجاهد ليقف على قدميه، نظر حوله، وتوقفت دماؤه عن التدفق داخل عروقه واتسعت عيناه مما يراه، كان بداخل قاعة هائلة كبيرة، يرتفع سقفها كثيرا، جدرانها متآكلة تكاد أن تنهار، سار مبهورا مما يرى يتطلع حوله..
على مد البصر توجد منازل صغيرة قد تهدمت ولم يتبقَ منها سوى حطام، تقدم نحوها متفحصا وما إن تطلع داخل الحطام حتى صعق من هول ما رأى..
جثث..
عشرات الجثث، بل قل المئات..
على حالها لم تتآكل، جثث عارية تمامًا متصلبة وكأنها تماثيل من الشمع، هدّأ من روعه قليلا وتقدم نحوها لعله يتوهم ما يرى ولكنها كانت الحقيقة..
جثث ملقاه في كل مكان، داخل الحطام وعلى قارعة الطريق..
جثث عارية.. متصلبة.. تتسع أعينها بفزع وترتسم على ملامحها كل آيات الفزع، تطلع حوله وصرخ، كان لابد أن يفرغ انفعاله بأي شيء،
أين أنا؟!
إنه الخراب والدمار..
إنه الموت والحطام..
أين أناااااااااااااا؟!!!!!!!!
سار متوغلا للداخل أكثر وأكثر فلم يجد سوى الحطام والجثث.. نساء ورجال وشيوخ، الكل عار الجسد مذعور الملامح.. سقط أرضا ينتحب بشدة فقد تمزق قلبه من هول ما يراه..
ماذا حدث لهؤلاء القوم؟!

بعد دقائق من البكاء والنحيب نهض، قرر العودة ونسيان كل شيء، وقبل أن يضع الفكرة في حيز التنفيذ رأى على الجدار رسوم، هرول نحوها وتطلع لها بحيرة..

ما تلك اللغة؟!!

إنها لغة الافعى بلا شك.. رسوم كثيرة تتراص بجوار بعضها لأفعى ولكنها تختلف.. فتارة تنظر الأفعى لليمين في أول نقش وتارة لليسار في النقش التالي، ثم للأعلى والأسفل ثم ممددة على الأرض ثم نقش لها وهي تنظر بزاوية للأعلى ثم وهي مائلة لليمين ثم اليسار ثم وهي في وضع الهجوم وهكذا.. عشرات الرسوم بجوار بعضها لنفس الأفعى ولكن في أوضاع مختلفة..

تمنى لو أنه كان يفقه تلك اللغة، لعل تلك النقوش تخبره بكل شيء، ولكن أنى له بمعرفتها..

تذكر هاتفه فأخرجه سريعا والتقط صورا كثيرة لتلك النقوش حتى صورها كلها لعله يجد إجابات عند أحدهم..

وهناك لمحه.. على الرغم من الضوء الخافت في المكان والذي لا يعرف مصدره..

ضباب أحمر يتأجج كالنيران يغطي حفرة صغيرة، اقترب منه وتطلع له في حيرة شديدة.. ضباب شفاف أحمر يتموج ويفور وكأنه غطاء لتلك الحفرة، مدَّ يده نحوه بخوف ولامسه فاخترقه بانسيابية عجيبة، ملمسه عجيب وكأنك وضعت يدك داخل ثلاجة، وكأنه هواء ولكنه بارد وثقيل، سحب ذراعه للخلف ولكنها لم تستجب له، أصابه الرعب وحاول أن يجذبها بعنف فلم يستطيع، حاول وحاول وهو يصيح ويتعرق دون جدوى، أمسك ذراعه الأسير باليد الأخرى وجذب بكل قوته ولكنه لم يتحرك قيد أنملة..

لم ينتهي الأمر عند هذا الحد بل شعر أن الضباب يسحبه بداخله، يسحبه رويدا رويدا، أصبح الضباب يغطي نصف ذراعه ثم بدأ يجذبه للداخل، حاول ثانية أن يتحرر منه ولكنه كان يغرق أكثر وأكثر حتى سقط ذراعه أسيرا بداخله، حاول للمرة الأخيرة أن يسحبه بعنف ولكن حدث الأسوأ حينما اختل توازنه وهوى برأسه نحو الضباب حتى ابتلعه كله ولم يبقي على شيء منه..

تموج الضباب واشتد احمراره كثيرا وكأنه معدة تهضم طعامها ثم عاد شفافا من جديد بعدما ابتلع شخصا كان يدعى..
أحمد نور الدين..

***

احتبست الانفاس وترقبت القلوب وزاغت الأبصار حينما رأى الحضور هذا الشاب والحراس يقتادونه إلى وسط القاعة، كان يختلف عنهم كثيرا فلا هو عار الجسد ولا ضخم الجثة ولا حتى قزم.. وهؤلاء هم سكان تلك المملكة، فأي أرض تلك التي جاء منها؟!

وقف ينظر حوله وقد امتزج شعوره ما بين الخوف والدهشة من مظهر هؤلاء القوم، تطلع للأعلى فرآها ثانية، إنها هي.. تلك الشيطانة التي هرب منها بالأمس، ها هو قد عاد لها من جديد، وكزه أحد الحراس بمقبض سيفه في صدره بعنف وأشار له كي ينحني فالتفت له بأعين تشتعل لهيبا ووكزه في صدره، ارتفعت صيحات الدهشة والاستهجان من الحضور.. فمن هذا الذي يجرؤ أن يهين حراس هارمونيا وأمام ناظريها، استل الحارس سيفه وهمَّ أن يطعن به الشاب فما كان من هارمونيا إلا أن أشارت له أن ينتظر؛ فتسمر السيف في الهواء على بعد نصف متر من جسد الشاب..

على الفور رفعت إصبعها السبابة وأشارت به نحو الشاب ليخرج منه ضباب كثيف اندفع نحوه وأحاط به كسرب من أسماك القرش وراح يدور من حوله، أخذ يدور حول نفسه في رهبة وهو يحاول أن يهضم حقيقة الموقف الذي سقط فيه مرغما..

ومن بعيد سمع صوت الهمسات، همسات تشبه فحيح الأفاعي، كانت تهمس له بكلمات غريبة غير مفهومة، زاغ بصره واتخذت ملامحه شكل علامة استفهام، قرأتها هي على الفور وأدركت أنه لا يفقه قولها فهمهمت بشفتيها وأغمضت عينيها قليلا ثم فتحتها ليخرج منهما ضبابا أخضر اللون انطلق نحو رأس الشاب الذي شعر بخيط من الجليد يخترق خلايا مخه الرمادية، ارتجف من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه..

لحظات وسمع صوت الهمس من جديد ولكنه كان مفهوما وقتها:

- لماذا هربت منا؟

كان الصوت يشبه تحدث العشرات معا في وقت واحد..

التفت حوله وقد ثار عقله وأبى أن يصدق ما يحدث ليسمع ثانية..

- لا تشغل بالك بطريقة تحدثي معك، فقط أجبني حدث نفسك وأنا سأستمع لك.
- أنا أنا لا لا لا
- هوِّن على نفسك يا صغير

دارت عينيه في محجريهما وقال في نفسه:

- أين أنا؟!

ارتج عقله بعنف وكاد أن يسقط أرضا وأخذ يلهث بعنف ليسمع:

- أنا من يسأل وأنت من تجيب.
- ما الذي تريدينه
- من أين جئت

أشار بإصبعه نحو الأعلى وقال:

- من السطح
- سطح؟؟؟
- نعم سطح الأرض
- وهل تظن أننا في باطن الأرض لتقول لي أنك من السطح
- ....
- حسنا سأخبرك أمرا لقد حكمت عليك بالموت وبطريقة بشعة لن تتخيلها في أسوأ كوابيسك لأنك هربت منا وهذا الضباب الذي يحيطك يمنع أن يسمعنا أحد لذلك أخبرني بما أريد لعلي أعفو عنك

صالت في جسده رجفة عنيفة هزته هزا فحاول أن يتماسك ليقول:

- سأجيبك
- كيف هربت من الهاجس؟!!
- هاجس؟! وماذا يكون الهاجس
- تلك الزنزانة التي كانت تحيط بك
- بكلمات الله
- ومن يكون الله؟!
- خالقي وخالقك وخالق السماوات والأرضين إلهي وإلهك والمعبود على تلك الأرض

اشتعلت عينيها بنيران حمراء قانية وصرخت بألف ألف صوت:

- وهل هناك إله غيري في تلك المملكة
- نعم هناك إله واحد أحد ليس له شريك في الملك وليس كمثله شيء
- أنت كاذب
- ولماذا أكذب عليك؟!
- أنت ساحر تعلمت بطريقة ما أن تبطل عمل الهاجس وجئت لتضلل عبادي وتجعلهم يعبدون غيري
- ولماذا أفعل هذا
- هذا ما ستخبرني به وإلا سيلهو معك الموت بعد لحظات

توقف عقله عن العمل في تلك اللحظة، فبماذا يجيب تلك المجنونة؟!

- اسجد لي

سمع الصوت من جديد ليتسمر مكانه وقد شعر بحرارة هائلة تجتاح جسده..

عاد الصوت من جديد ولكن كان غاضبا بشدة تلك المرة وقال:

- اسجد لي

نظر للأعلى وترقرقت عيناه بالدمع وقال:

- أدرك يا الله أنه اختبار وما أصعبه من اختبار ولكني لا أرجو سوى رضاك عني فاغفر لي زلاتي واقبلني في زمرة الصالحين
- من تناشد يا لعين
- لن أسجد لك ولو سقطت السماوات على الأرض ما أنت سوى ساحرة مخبولة

نهضت من مجلسها وقد حلق فوقها ضباب حالك السواد واشتعلت عينيها كجمرتين من اللهيب وصاحت بصوتٍ خشن لا يصدر سوى من وحش:

- حارقة الجلود

وعلى الفور فتحت البوابة ليدلف منها حارسين يدفعان آلة تشبه الثور العظيم موضوعة على أربع عجلات، وصلوا بها حتى منتصف القاعة ووقفوا في خشوع بجوارها ينتظرون أوامرها التي ما لبثت أن أشارت لهم ليكبلوه بعنف ثم يقتادونه نحو الألة، قاومهم باستماته وهو يصرخ بكلمة:

" ملعونة "

" ملعونة "

" ملعونة "

فتحوا بابا حديديا في باطن الثور وحملوه وهموا بدفعه بداخل الثور النحاسي ليسمع كل من بالقاعة صوت يقول:

- هارمونيااااا

كان هذا صوت كبير الحراس الذي دلف من البوابة وهو يدفع شابا أمامه بعنف، نظر الشاب الذي كاد أن يزجوه بداخل الثور نحو الشاب الأخر لتتسع عيناه عن أخرهما وهو يهتف بكل دهشة العالم:

- أحمد!!!!

لينظر له الآخر وقد ألجم لسانه تمامًا..

تطلعت لهم بخبث وقالت:

- يبدو أننا سنمرح كثيرا اليوم...

****

في لحظات التهمه الضباب ليشعر بجسده يسقط من ارتفاع شاهق، وكأنه يسقط من السماء السابعة، كل من كان حوله كان يمتزج باللون الأحمر، غيوم حمراء وسماء حمراء حتى تلك الطيور التي كانت تحلق بجواره كانت حمراء، ابتلعته عشرات الغيوم ولفظته، انقضت عليه الكثير من الطيور العملاقة ثم تركته، ضربت الصواعق الرعدية جسده فانتفض وانتفض حتى أظلمت الرؤية تمامًا ليشعر بعدها بأن جسده يحلق في فراغ، فراغ أسود رهيب، يطفو كما الشمعة المعلقة في المياه، لا يحدد وجهات ولا يرى شيئًا، وسرعان ما انقشع الظلام ليجد نفسه ممدا على أرض صلبة ومن حوله الضياء يصول ويجول، نهض سريعا ونظر من حوله ليجد نفسه داخل مدينة عظيمة يحيط بها سور عظيم شاهق الارتفاع وقد رسمت عليه عشرات النقوش لأفاعي وعقارب وكائنات أخرى تشبه الثيران ولكنها تقف على قدمين كما البشر، منازل بيضاء تتراص بجوار بعضها في صفوف منتظمة، بيضاء كالثلج، تتشابه كلها فلا تختلف عن بعضها سوى في اختلاف النقوش..

تماثيل كثيرة لامرأة في هيئات مختلفة بجوار كل منزل، فمرة ترتدي زي ناري وتنظر بغضب لما حولها، ومرة تراها تبتسم ومن حولها

ضباب أحمر، الأرض التي يقف عليها كانت شفافة بلون البحر وكأنه يقف فوق مياه البحر، أفاق من شروده على كلمات غريبة فالتفت خلفه ليرى رجلا صخما يحمل سيفا ويشير نحوه...

أصابه الذعر وركض كالقط المذعور ومن خلفه انطلق الحارس وهو يهتف بكلمات عجيبة وكأنها زمجرة نمر جريح.. ظل يركض بسرعة وهو يشعر بالرعب حتى بلغ التعب منه مبلغه واشتدت ضربات قلبه فتوقف لاهثا ينظر للخلف ليرى الحارس، وفجأة خرج أحدهم من ممر جانبي ورفع سيفه تجاهه، تراجع للوراء بخوف وسرعان ما لحق به الحارس الآخر ليمسكوا به ويقتادونه حيث المجهول..
سار معهم وهو يدعو الله ألا تسوء الأمور أكثر من ذلك، ظل يسير معهم فوق الأرض الشفافة ويراقب ما حوله لعله يفهم شيئًا، فقط منازل بيضاء مصقولة كالثلج من حوله وتماثيل لنفس المرأة، دفعوه نحو أحد المنازل المظلمة واقتادوه حيث الظلام داخل ممر ضيق حتى وصلوا لنهاية الممر ليفتح أحد الحراس بوابة حديدية ويدفعه الأخر بغلظة ليدلف منها..

شهق من المفاجأة وهو يرى نفسه بداخل ساحة عظيمة ومن حوله يجلس المئات ذوي الهيئات الغريبة، عرايا وأقزام وضخام الجسد و........
نظر للأمام ليرى ما ألجم لسانه لدقيقة كاملة ليسمع كلمة" أحمد"
ثم يردد بعدها بذهول شديد أفقده رشده..
" رماااااااح"

****

لازالت الدهشة تلف المكان كما دوامة البحار، الكل ينظر لهم والفضول ينهش أجسادهم لمعرفة قصتهم، أما هم فكانوا يتطلعون لبعضهم دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة، قطع هذا الصمت صوت رماح وهو يقول:
- ما الذي جاء بك إلى هنا أيها التعس
لم يستطع أن يرد، وبما يجيبه أصلا..

نظرت لهم بأعين تتألق بألوان مختلفة كألوان الطيف ثم صاحت بصوتها المخيف من جديد ليفهم رماح كلماتها بينما يقف أحمد كالمعتوه فاغر الفاه لا يفقه شيئًا:

- سأقولها للمرة الأخيرة اسجد لي
- وأنا سأقولها للمرة الأخيرة

ثم تطلع لها بأعين قد خلعت لباس الخوف وحل فيها الغضب وأكمل:

- ملعونة

تغير لون وجهها تدريجيا حتى أصبح حالك السواد كتلك الظلمات الثلاث التي سقط فيها يونس وأشارت للحراس بإبهامها ثم حركته بطريقة دائرية..
اندفع أحد الحراس من البوابة وهو يحمل زجاجة صغيرة وسكب محتوياتها فوق رأس رماح الذي قاومهم بكل قوته وكاد أن يفلت منهم لولا أن تكالبوا عليه من جديد..
همست له من جديد:
لم تعد لك فائدة فشبيهك هذا سيخبرني بما أريد، والآن لتعاقب على كلماتك..
زجوا به إلى داخل الثور النحاسي لترتفع صيحات الجمهور وكأن فريقهم قد أحرز هدفا، و......
وأحضروا شعلة ضخمة وضعوها أسفل الثور ثم أشعلوا النيران، وصرخ أحمد صرخة ملتاعة باسم صديقه وهو ينازع ليفلت من قبضة الحارسين لينقذ صديقه الذي ارتفعت صرخاته من باطن الثور النحاسي فتحولت إلى صوت مخيف وكأنه صوت نمر يحتضر، ارتفع صرخاته كثيرا ليصدرا من الثور صوت خوارا عجيبا.. مرعبا.. ارتجفت منه الأجساد ووجلت منه القلوب، أما أحمد فقد قاومهم من جديد ودفع أحد الحراس ليسقط أرضا فهوى الآخر بمقبض سيفه على وجهه ليترنح ويسقط أرضا وقد نزفت أنفه بشدة ودارت السماوات والأرض من حوله..

لحظات وأشارت للحراس ففتحوا الباب الصغير بباطن الثور فسقط منه جسدا، جسدا قد اشتعلت فيه النيران، جسدا لم تشتعل النيران سوى في

الجلد فقط ولم تستطع أن تخترق الجلد بفعل هذا السائل الذي سكبه عليه الحارس، سكبه عليه لتطول فترة الألم وتتضاعف ثلاث مرات على الأقل، نهض الجسد المتأجج بالنيران وراح يركض بلا هدف، يركض وقد أخذت النيران تأكل في الجلد ببطء شديد، كان قد اجتاز وقتها كل عوالم الألآم ودخل في دوامة السعير، رفع أحمد رأسه من على التراب وحاول أن ينهض وقد سقطت أدمعه فاختلطت بدمائه فلم يستطع، دارت عينيه من جديد وصرخ صرخة هزت قلوب الحارسين ليستند على الأرض ويقف مترنحا لتهوي على رأسه ضربة جديدة فيرتج جسده ويسقط أرضا من جديد.. نظر بكل مرارة وحزن الدنيا للجسد المشتعل الذي صم صراخه أذان الجميع وراح يراقبه بوهن وقد اظلمت الدنيا من حوله وبدأ يسقط في دوامة الظلام من جديد..

وهنا صاحت هارمونيا ليسمع صوتها الجميع وهي تقول:

- سباق

وإثر كلمتها قفز قزم من بين الحضور وهبط على أرض الساحة تتبعه عارية ثم رجل ضخم الجثة..
وفورا قذفت لهم ثلاثة أسلحة.. فأسا التقطه القزم مبتسما، وخنجرا التقطته العارية ثم رمح ثلاثي التقطه الضخم وركضوا نحو الجسد المشتعل يحاولون النيل منه وسط صيحات التشجيع والحماسة من الحضور وكُل يحث شبيهه على الفوز وقتل الجسد المشتعل..

كان يراقب ما يحدث بنصف وعي وهو غارقا في دماءه، رأى ثلاثة يحاولون النيل من صديقه وهو يلتفت من حوله صارخا كلما اقترب منه أحدهم، وانقض بجسده نحو القزم واحتضنه لتشتعل ملابس القزم فيركض صارخا ثم يسقط أرضا يحتضن التراب لتنطفئ نيرانه، أما الضخم فقد انقض وغرز رمحه في صدر رماح بكل عنف ليشهق رماح شهقة عنيفة ويتأوه مترنحا ثم يسقط أرضا قريبا من أحمد..
اقتربت العارية من الجسد المشتعل ورفعت خنجرها و.........
وهنا نظر رماح لأحمد بوجه قد تفحم وبرزت عظامه وعينان قد برزتا كعين الأسماك وقال بصوت واهن:

- إن الله سيبطله.. خلف العرش تجد مرادك

ثم هوت العارية بخنجرها فاخترق عنق الجسد الذي قد خبت نيرانه، ارتجف الجسد وانتفض مرات ومرات ثم انطفأ نوره وسكن إلى الأبد ليغلق أحمد عينيه ويسقط هو الأخر في متاهة ضبابية..

****

كانت تقف أمامه وقد ترقرقت عينيها بالدموع ليتحسس وجهها بحنان ثم يمسح عباراتها ويهمس لها في حب:

- لماذا البكاء يا أمي؟؟
- أخشى عليك يا بني
- أتخشين عليَّ وأنا في عنفوان شبابي؟! ينبغي أن تخشي على هذا الرجل العجوز الجالس بجوارك أكثر مني فأنا قد أصبحت أقوى منه..

ثم أشار لوالده الجالس بجواره الذي ابتسم وقال:

- لولا هذا العجوز ما جئت لهذه الدنيا يا أحمق أما عن القوة فتعال لنتصارع ونرى من سينتصر

ابتسم لوالده وقال:

- أستودعكم الله

لتردد أمه:

- ستعود منصورا بمشيئة الله سينصرك الله على كل شر ردد معي" فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين"

فردد من ورائها " فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين"
ثم حمل حقيبته وذهب لقضاء خدمته العسكرية وفي ذهنه تتردد تلك الكلمات:

" فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين"

****

شهق شهقة عنيفة حينما شعر بموجة باردة تضرب جسده بقوة ليفيق من غيبوبته وحلمه الصغير ليعود إلى واقعه، كان أحد الحراس يحمل دلوا فارغا بعدما أفرغ ماءه على جسده.. صفا ذهنه سريعا وتذكر ما حدث..
نظر بجواره ليرى جثة قد احترقت عن أخرها، زحف نحوها وقلبه يئن من الألم، يتفطر من الحزن، سالت دموعه على خديه كما المطر وظل يردد:
رمااااااااااااح

يااااااارب
يااااااااارب
رماااااااااح
وهناك وسط الحضور كانت تنتحب بشدة وهي تتأمله، كان قلبها يتألم.. يتمزق على حاله.. تمنت لو ضحت بحياتها لأجله.. تمنت فقط لو استطاعت المساعدة، لم تدرك تلك التي أصبحت يتيمة منذ دقائق أن أمنيتها ستتحقق عما قريب..
هدأ أحمد كثيرا بعد دقائق ثم لفه الصمت.. صمت طويلا حينما اشتعل عقله بألف ألف فكرة، عقله الذي عمل بأقصى طاقته كآلة بها مئات التروس، عادت المشاهد تمر على ذهنه مرات ومرات، رأى عشرات الأشخاص أمام عيناه..
والدته..
والده..
نجمته الخاصة " محبوبته "
ثم صديقه رماح وهو يبتسم..
ثم تلك الملعونة رآها في ذاكرته..
ثم مرت على ذهنه تلك الكلمات التي قرأها يوما ما:
" الغرور هو نهاية كل شخص يتخذه رفيقا، استغل غرور عدوك لتوقعه في شر أعماله وتنتصر عليه في النهاية "
نفض عن نفسه غبار الحزن والضعف ونهض..
نهض كفارس لا يشق له غبار..
كليث مفترس لا يخشى شيئًا..
وقف صامتا ومن حوله يلتف الحراس ويشهرون أسلحتهم نحوه في تأهب شديد..
رفع رأسه نحوها وفي عينيه نظرات غضب كافية بأن تحرق الأرض ومن عليها ثم أشار لها بسبابته التي رفعها نحو فمه وحركها بطريقة دائرية يعني أنه يريد أن يحادثها.. ابتسمت له وتألقت عينيها أكثر وأكثر وعلى الفور هجم عليه ضبابا اخترق أنفه ورأسه التي ارتجت بعنف ثم سمع الهمس..
همس مئة شخص او أكثر داخل رأسه يقول:
- ماذا تريد؟؟

- أريد أن أعرف لماذا قتلت رماح؟
- لماذا
- أجبينني أولا وسأفعل ما تريدينه بعدها
- اسجد لي أولا

تقبل عقله الأمر في ثوان.. وطرد كل الأسئلة التي تبطئ من حركته، إنها تريده أن يسجد لها.. إذا هي تعتبر نفسها إله، ويبدو أنها قد قتلت رماح لنفس السبب وأنه أبى أن يسجد لها.. فكر قليلا ثم أجاب ببطء شديد وضغط على حروف كل كلمة:

- اثبتي لي أنك تستحقينها وأنك إله وسأفعلها
- وكيف اثبت لك
- أريد أن يسمعني الكل وليس أنت فقط

ثم ابتسم بسخرية شديدة وقال:

- أم أنك لا تستطيعين فعلها أيتها الإله المزعوم

تأججت عينيها بالنيران وقالت:

- بلى أستطيع فعلها وأستطيع فعل ما لا يصدقه عقلك

ثم خرج من حولها ضبابا كثيرا انطلق نحوه وراح يلف حوله ثم انفجر كالقنبلة وتفتت أمام الانظار وانطلق نحو الكل، كل قطعة صغيرة كانت تذهب لأحد الحضور وتخترق عقله ثم همست له وقالت:

- تحدث بما تريد

اتسعت ابتسامته وقال بصوت آثار رهبة الكل:

- إنها تدعي أنها إله وتطالبني بالسجود أمامها والخضوع لها.. أنا موافق ولكن بشرط

آثار ت كلماته غضب الكل وارتفعت صيحات الاستهجان ضده، فمن هذا الذي يتحدى هارمونيا علنا هكذا.. بينما تابع هو بأعين شاردة وبعقل صارخ يطالبه بالهدوء والتأني ليثأر لصديقه:

- شرطي هو أن تقبلي التحدي الذي سأعرضه عليك الآن

لاحت ابتسامة ساخرة على شفتيها ورفعت حاجبيها في دهشة، لقد بدأ الأمر يروق لها، لقد قتل هذا الشاب الملل بداخلها وجعلها مثارة لدرجة كبيرة فأشارت ليتابع هو:

- أريد أن أصارع قتلة صديقي هؤلاء وإن انتصرت عليهم فستعلنين أمام الملأ أنك عجزت عن مساعدتهم وأنك لست

سوى ساحرة أما إن انتصروا هم فسأعلن أمام الملأ أنك إله وسأسجد لك على الفور

صمتت تمامًا وهي تدرس الفكرة في عقل جهنمي يخشى إبليس الولوج بداخله، أما هو فقد كان يعلم أنه فائزا في الحالتين، فلو قتلهم سيشفي جزءا من غليله وسيثأر لصديقه أما ان انتصروا هم فهو لن يتركهم إلا وهو قتيل ولن يسجد لها مهما كان ووقتها سيكون قد لحق بصديقه وتحرر من شعور الذنب الذي سيقتله لاحقا في كل لحظة تبقت له في حياته، سيقاوم ويحاول أن يقتلهم، لقد تدرب سنوات من عمره على فنون القتال ويستطيع استخدام السيف وهناك طاقة غضب تثور بداخله وستتحرر ما إن تقبل تلك الملعونة.. توقف عقله وأشحذ أذنه حينما تحدثت هي وقالت:

- أقبل تحديك

اتسعت ابتسامته حتى احتلت وجهه بأكمله ولكنها تابعت:

- ولكن بشرط
- ....
- تغلب على نفسك أولا وعلى جسدك ووقتها سأتركك لتصارعهم

تحول وجهه لعلامة استفهام كبيرة راحت تتسع أكثر وأكثر أما هي فقد تابعت:

- سأتركك تسع ليال تجوب مملكتي، ثلاث ليال في مدينة الخطايا وبعدها ستلفظك المدينة لتخرج إلى غابة الجحيم وتمر من خلالها فإن أنت استطعت أن تقطعها للنهاية في ثلاث ليال فستواجه بحر الظلمات وإذا عبرته في ثلاث ليال أخرى وجئت إلى هنا تصر على تحديك فسأقبله منك وقتها وستدخل معهم في سباق الموت في يومك العاشر، وأنا لا أظن أنك ستأتي إلى هنا في يومك العاشر وأنت لازلت على حالك تطالب بسباق الموت لأنك ستزحف وقتها نحوي لتسجد وتطلب بركتي.. وعفوي.. وسأمن عليك بأن أجعل لغتنا مفهومة لك..

نظر لها وعشرات الأسئلة تعربد في ذهنه تطالب بإجابات شافية لتطفئ لهيبها ولكنه قاومها باستماته وقال لها:

- أنا أقبل

وارتفعت صيحات الحماسة من الجمهور تصدح في المكان ولكنه كان في واد آخر من القلق والخوف، وسؤال واحد يتضخم في عقله حتى احتل فراغه..

هل يستطيع حقا أن يفعلها؟!

****

قيدوه بالسلاسل واقتادوه حيث الممر المظلم ليسلكوا عدة ممرات أخرى مظلمة لا يضيئها سوى مشاعل على شكل أفاعي تلفظ لهبا من أفواهها، تقدم معهم وقد أقسم لنفسه أن يثأر لصديقه أو يموت دون ذلك، سلكوا ممرا جانبيا ضيقا لينتهي بباب حديدي صغير ما إن نظر لمن يقف على الباب حتى ثلجت أطرافه وانتصب شعر رأسه بأكمله..

كان منهم، ممن كانوا في الجنازة السوداء بهيئته المريعة، يناهز المترين طولا بجلبابه حالك السواد الذي يغطي جسده بأكمله ووجهه المغطى بالسواد، ورأسه المغطاة بغطاء أسود هرمي، تطلع له وهو يهتز كعصفور مبلل ولكن الحراس دفعوه بقوة حتى كاد أن يسقط، فتح لهم هذا الكيان الباب ليدلفوا منه ووقف بجوار الحائط في ثبات مخيف، سحبوه بقوة وقد عجزت قدماه أن تحمله ليقترب جسده منه ويتطلع له بتوجس فيرى عينين قد اشتعلتا بلهيب مخيف غارقة في ظلام أبدي، أزاح عينيه عنه وهو يجاهد كي لا يفقد عقله..

صعدوا درجا ضيقا حتى وصلوا لباب آخر يقف أمامه حارسا ضخما فتحه لهم ليدلفوا إلى قاعة كبيرة يتوسطها عرشًا تجلس هي عليه مبتسمة بشدة متألقة العينين..

تحدث بصوت ضعيف..

- أعرف أنك لست بإله وأنك قد خدعت الكل بطريقة أو بأخرى

هبطت بخطوات بطيئة من عرشها واقتربت منه في دلال ليتحفز الحارسين ويشهروا سيوفهم نحوه حتى لا تبدر منه أي حركة في حضرة هارمونيا..

التفَّت من حوله كأبرز العاهرات وقالت بميوعة واضحة:

- أنا أعرف أنك لا تصدق بهذا ولكني أعدك أنك ستصدق قريبا جدا

ظلت تلتف من حوله وتحسست وجهه بأناملها فارتجف وهو يقاوم غريزة أخذت تنهشه نهشا، وصل إلى أنفه عطرها الساحر فكاد أن يفقد اتزانه أمامها وقد تخلى عنه عقله ونسي كل شيء أمام تلك الساحرة..
تطلعت في عينيه بقوة فحاول أن يثنيهما ولكن لم يكن ليقدر على هذا، لقد ذاب داخل عينيها وسقط أسيرا، وضعت كفيها على كتفه وفتحت فمها ونفخت نحوه برقة فخرج من فمها ضباب أحمر اتجه نحوه و........
نزع نفسه بقوة من بين يديها وقد ارتد له عقله دفعة واحدة فضحكت ضحكة رجت أرجاء القاعة وقالت:

- أتعرف ما الذي أدركته الان؟؟

نظر لها حائرا فتابعت:

- لقد تيقنت أنك لن تنجح فقط في الخروج من مدينة الخطايا دون أن تخسر تحديك.. فمثلك مثل كل رجل لا يستطيع أن ينتصر على شهوته الكبرى

ثم عادت تضحك بهيستريا شديدة جعلته يشعر بالخوف الشديد وقد فارقته ثقته بنفسه وأخذ يدعو الله أن ينجيه من سحرها وشرورها..

****

الهاجس يملأ الأرض..
يسيطر على العقول..
تتبعه القلوب المريضة..
الهاجس أصبح إلها يعبد..
القلوب المطمئنة أصبحت قلة..
منبوذة..
مشردة..
رحماك يا مالك الملك..
سبحانك..
الأمر أمرك..
والمشيئة مشيئتك..

****

الخلائق كلها تحتشد أمام ربها في مشهد تعجز الكلمات عن وصفه واللوحات عن رسمه، الكل جاء من صلب آدم ليكون له الخيار في دخول الامتحان.. الذرية كلها تقف وتنتظر..
ثم كان عرض الأمانة، عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، ثم عرضها على الإنسان فقبلها، وافق أن يختبر ويمتحن ويكون جزاؤه من جنس عمله، فإما جنات وعيون وإما نارا تلظى..
ثم كانت الحجة البينة والتي شهدتها الملائكة.. أشهدهم الله وقال:

- ألست بربكم؟!

فقالت الخلائق كلها بخشوع شديد:

- بلى

فقالت الملائكة:

- شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غفلين

وبدأ الاختبار الذي كان خيار الجميع منذ البداية، فمن كان سيرفض لم يكن ليولد كبشري على تلك الأرض، ولكن طالما أنك ولدت كبشري فأنت قد قلت معهم بلى وأنك قد قبلت حمل الأمانة والاختبار..
اختبار عظيم يترتب عليه نعيما مقيما أو جحيما مقيما، لا حلول وسط في الأمر، ووضع الله الشهوات في الخلائق ليختبر الكل، من سيستطيع أن يقبض على زمام شهواته ومن سيتركها تسوقه نحو متعته اللحظية ثم هلاكه فيما بعد..
فكانت شهوة الجنس، فطرت المرأة لكي تشتهي الرجل والرجل ليشتهي المرأة، وجعل الله منفذا لخروج تلك الشهوة عن طريق الزواج ولكن هناك من كان يتبع غريزته في درب غير دروب الحلال ومنافذ غير المنفذ الذي أحله الله كبني إسرائيل فما هلكوا إلا لأنهم اتبعوا تلك الشهوة وقادتهم حيث حتفهم.. وهناك من قاوم وقال معاذ الله بعد أن قيل له " هيت لك"..
وقد تخوف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تلك الشهوة وتلك الفتنة حيث قال: " والله ما أخشى على أمتي فتنة أكثر من فتنة النساء "

وقد اتبع أكثر الناس تلك الشهوة وتركوها تسوقهم كالنعاج فكثر الزنا وعمت الفاحشة بلدانا كاملة، بل وفي بلدة اشتهى فيها الرجل قرينه الرجل ومارس معه الفاحشة على قارعة الطريق..

ثم كانت شهوة الملك والسلطة:

فتن بها الكثير من الخلق، فبسط الله لهم القوة والنفوذ وتركهم لأنفسهم، فكانت شهوتهم تقودهم إلى التجبر والقتل وسفك الدماء وهتك الأعراض بل وادعى بعضهم بأنهم آلهة تمشي على الأرض فلم تتركهم شهوتهم حتى أهلكتهم وأغرقت أحدهم حين قال:" أنا ربكم الأعلى"

وهناك من قاوم وعلم أنها فتنة عظيمة وأن نفسه تشتهي الأمر بقوة حينما سخرت له الريح والجان والحيوانات ولكنه ظل يشكر ويحمد حتى مات ولم تقدر عليه شهوته..

ثم شهوة الطعام والشراب ثم شهوة البنون والأموال والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة وشهوة القوة والنفوذ والأخطر كانت شهوة السحر وما خفي كان أعظم..

وكان الاختبار..

إن أنت حاربت شهواتك وانتصرت عليها كنت من المفلحين.. وإن هي انتصرت عليك كنت من الخاسرين..

رفعت الأقلام..

وجفت الصحف..

******

التحدي الجهنمي..

دفعاه بقوة خارج أسوار المدينة وأغلقوا البوابة بكل عنف ليسقط هو فوق الرمال لا يدري ما يفعل، لقد ساقوه إلى هنا بعد أن أشارت لهم الملعونة ثم لفظوه للخارج وهو لا يدري ماذا سيفعل..

نهض من مجلسه ونظر أمامه فإذا بصحراء شاسعة تمتد إلى ما لا نهاية، الشمس تبتسم من الأعلى له وتحتضنه كأم قد فقدت ابنها لسنوات فيشعر بحرارتها تلفح جسده وكأنها ستحرقه من شدة حبها له، أو كأنها قطة تأكل أولادها خشية عليهم من هذا العالم، نفض عنه هواجسه سريعا وأخذ يحدث نفسه..

إنه الآن في تحدي مع تلك الملعونة وينبغي أن يفوز مهما كان، ينبغي أن يثأر لصديقه حتى لو كان الموت هو ضريبة الثأر.. لقد قالت ستتركه تسع ليال ليجوب في المملكة ولا ينبغي أن يتأخر أبدا عن تسع ليال، هذا ما أدركه من حديثه.. وعلى الفور استعان بالله وراح يشق الصحراء كسفينة صحراء عنيدة.. صلبة..

أصابه الوهن بعد ساعتين من السير أسفل أشعة الشمس الساطعة التي لم ترحم ضعفه وقلة حيلته، فبدت وكأنها تعاون هارمونيا عليه، سقط على ركبتيه ينظر لها بضعف وهو يهمس:
ألا تشفقين على رجلا قد فاق حمله حمل الجبال"
ثم تابع السير وقد توقف العرق عن الهطول بعد أن جف جسده وأصابه جفافا حادا، بعد ساعة أخرى من السير استجابت له وراحت تهدأ من حرارتها وقوة أشعتها وبدأت تميل نحو الغروب بابتسامة عذبة وكأنها لم تفعل شيئًا.. نظر لها وابتسم بوهن شديد وقد بلغ منه العطش مبلغه وحياها بيديه ثم تابع خطواته.. راوده شعور بالأمل حينما وجد أمامه جبلا عاليا، لربما رأى من فوقه مصدرا للمياه أو حتى رأى تلك المدينة التي أخبرته عنها..
مدينة الخطايا..
يا ترى لماذا سميت بهذا الاسم؟!
وماذا قد يجد هناك؟!
اقشعر بدنه حينما تذكر كلماتها..

لقد تيقنت أنك لن تنجح فقط في الخروج من مدينة الخطايا دون أن تخسر تحديك.. فمثلك مثل كل رجل لا يستطيع أن ينتصر على شهوته الكبرى..

ترى ماذا تقصد بحديثها؟!
وما هي الشهوة الكبرى التي تحدثت عنها؟!
ساقته قدماه نحو الجبل وراح يصعد بخطى أصابها الوهن الشديد فما عادت تحتمل، نازعت قدماه لتصعد قمة الجبل الرملي حتى استطاع أن يفعلها في النهاية، جلس فوق قمته يلهث بشدة وقد التف الظلام في تلك

اللحظات من حوله وراح يهبط كضباب مخيف والشمس تنازع نزعتها الأخيرة..
تطلع للأفق في شرود وكاد أن يغفو لولا أن سمع هذا الصوت فارتجف، انتبهت كل حواسه وهو يرهف السمع ليتيقن من صحة ما يسمعه..
لم يكن واهما، هناك صوت يصدر من هناك، صوت مبهم وكأن أحدهم يتمتم بكلمات غير مفهومة، تذكر أصحاب الملابس السوداء وقتها وارتجف بدنه أكثر وأكثر، التف حول الجبل بأقدام من الهلام تتراقص كراقصة بارعة، ونظر فلمحه.. هناك مدخل صغير يقود لداخل غار في باطن الجبل.. تملك منه الخوف أكثر وأكثر وهو يصارع حتى لا يدلف إلى الداخل فربما يسقط في أمر مريع.. ولكن ما الأمر الذي سيفوق ما هو فيه.. لربما وجد النجاة داخل هذا الغار..
ولكن أي نجاة تلك في هذا المكان المخيف؟!
رحماك يا الله..
تقدم بهدوء شديد وهو يكتم أنفاسه حتى وصل لمدخل الغار، كانت أرضه صلبة عكس الأرض الرملية بالخارج.. تقدم للداخل بحذر شديد وصوت التمتمة لا يتوقف بل ويرتفع أكثر وأكثر..
اعتادت عينيه على الظلام وبدأ ينظر من حوله ليصاب بدهشة كبيرة، إنها نفس الرموز والرسومات لنفس الأفعى والتي رآها هناك داخل الكهف قبل أن يسقط داخل الضباب.. رسومات كثيرة لأفعى بأوضاع مختلفة منقوشة على الجدار.. اشتد خوفه ووثب قلبه من مكانه حينما رآه هناك..
كان جالسا موليه ظهره رافعا يديه للأعلى وكأنه يدعو ويهتز للأمام والخلف وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، كان يرتدي جلبابا أبيضا وشيء فوق رأسه يشبه العمة ولكنها ضخمة بلون أزرق..
اضطرب قلبه بشدة وارتفع صوت أنفاسه ليتوقف الرجل عن الاهتزاز ويلتفت له سريعا ثم..
ثم يبتسم..

******

البوابة تُفتح من جديد ليخرج منها موكب..
مظلم..
أسود..

مخيف..
يحمل أربعة منهم نعشا أبيض بلون الثلج.. يسيرون بخطى هادئة بملابسهم السوداء ووجوههم المظلمة..
لقد كانوا العفاريت..

******

بعد ليلة كاملة مرت في لحظات خرج من الغار شخصا أخر، شخصا غير الذي دلف بالأمس، كان مبتسما..
هادئا..
مطمئنا..
كان يرتدي جلبابا أبيض ويلف على رأسه وشاح أخضر وحول خصره كان هناك حبل صغير معلق به حقيبة من القماش بها بعض الزاد.. سار قليلا ثم توقف ليلتفت ويشير لمن يقف خلفه ليودعه بابتسامة واسعة ثم التفت وقد شخص بصره نحو هدف واحد..
القضاء على هارمونيا بأي ثمن

*****

" مدينة الخطايا"

إنها الفتنة التي تعبث بالرجال كما الدمى، إنها الشهوة التي تقود صاحبها نحو نيران السعير، إنها الرغبة والغريزة في إفراغ ما بداخل الجسد بأي وسيلة كانت حتى لو كان غضب الإله هو النتيجة المحتومة مصاحبا لجحيم مقيم ونارا تلظى تصرخ مناديه
بهل من مزيد؟!
إنه الجسد في أقبح صوره، إنها الجريمة التي تهز العرش بكامل هيئته، إنها اللعنة التي ستصاحب صاحبها حتى بعد خروج الروح إلى بارئها ثم تلفظه في مثواه الأخير ليتعفن فرجه وتبقى الخطيئة كما هي، تنتظر العقاب..
تنتظر اللهيب أو العفو..
إنها جريمة الزنا..
" ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا "

******

عن أبي أمامه رضي الله عنه قال: إن فتى شابًّا أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا! فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه! فقال: ((ادنو))، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس، قال: ((أتحبه لأمك؟))، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ((ولا الناس يحبونه لأمهاتهم))، قال: ((أتحبه لابنتك؟))، قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك، قال: ((ولا الناس يحبونه لبناتهم))، قال: ((أتحبه لأختك))، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ((ولا الناس يحبونه لأخواتهم))، قال: ((أتحبه لعمتك؟))، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ((ولا الناس يحبونه لعمَّاتهم))، قال: ((أتحبه لخالتك))، قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: ((ولا الناس يحبونه لخالاتهم))، قال: فوضع يده عليه، وقال: ((اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصِّن فَرْجَه))، فلم يكن بعد - ذلك الفتى - يلتفت إلى شيء؛ رواه أحمد بإسناد صحيح[1].

****

ذكر البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودي قال:
"رأيت في الجاهلية قرداً زنا بقردة فاجتمعت القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا"

******

انتهى إلى سور صغير يغطي ما وراءه كالخرقة الهشة، هكذا راوده هذا الشعور، شعور أن ما وراء هذا السور هو الجحيم الممتع، أو الأفعى المبتسمة والتي تدرك أن ابتسامتها هي السبيل الوحيد نحو لدغك، شعر بدنو الاختبار الصعب، الاختبار الذي سيقوده نحو النجاة أو الهاوية..
ملاحم من الأفكار تتصارع بداخله ويتساءل
ما الذي قد أجده بالداخل؟!
ما هذا الكم من الأفكار الذي يراودني قبل أن أرى حتى ما وراء هذا السور؟!
كيف فعلتها ونجوت من براثن زليخة يا يوسف الصدِّيق؟!

أخذ عدة أنفاس من هواء المنطقة ثم عزم أن يكمل الأمر ولتكن مشيئة الله.. تقدم نحو السور الصغير وسار بمحاذاته أسفل أشعة الشمس الحارقة فرفع رأسه وهمس لها..
" ليت أشعتك هي أكبر مشاكلي"
وهناك كانت ترقد كما الثعبان.. البوابة.. بوابة مدينة الخطايا.. انتفض قلبه لمرآها داخل أضلعه وأخبره أنه لا يستطيع أن يكمل هذا التحدي الجهنمي..
لقد تخليت عني مبكرا جدا يا قلبي..
جلس أسفل البوابة يحاول السيطرة على أعصابه المنكوبة وقلبه المكلوم وجسده المنتفض.. دقائق تمر وهو يناجي قلبه ويحث روحه حتى يمدوه بالطاقة اللازمة، عقله ساكن يرفض التفكير، يرفض حتى الاستجابة لمحاولاته، نهض من مجلسه وقرع الباب بأيد باردة، خائفة فانفتح على الفور لتهب في وجهه رياحا تحمل بين طياته رائحة بشعة تظهر بجوارها رائحة الجثث وكأنها رائحة مسك.. تأوه متأففا وحاول تجاهل الرائحة لتطالعه أعين الحراس التي كانت ترمقه في شماتة ووقاحة، نظرات لا تخرج سوى من عاهرة متمرسة في مجال العهر، أشار له أحدهما ليدخل ففعل ووقف يتأمل ما يراه بذهول تام أو ربما الذهول كان هو الابن الأصغر لما أصابه وقتها..

******

وصايا الغريب
" عينيك هي التي ستحاربك بكل عنفوانها انتصر عليها وبعدها ستنتصر على غريزتك"

*****

تجلس على عرشها تتابع بشغف وخوف ما تراه داخل تلك الكرة الشفافة، يراودها القلق ويؤرق مضجعها، القلق الذي لا تذكر أنه قد طرق بابها يوما.. ولكنه فعل..

فعل حينما جاء هذا الشاب إلى هنا.. جاء القلق ليحرر كل هواجسها ويفقدها ثقتها المطلقة في نفسها، وليت الأمر توقف عند هذا الحد..
لقد فاق الأمر كل الحدود بعدما رأت ما رأته في نومها بالأمس..
لازالت تئن من القلق وتكاد هواجسها أن تلتهمها كلما تذكرت هذا المشهد..

يقف فوق الجبل.. جبل من جليد.. إنه هو ذلك الشاب يشير لها لكي تنجو بنفسها وتصعد إليه، ولكنها تأبى باستماتته وتتشبث بما حولها.. وهنا تصرخ السماء صرخة عاتية تزلزل أعماقها من الداخل.. صرخة ألف ألف جريح.. ثم تنفلق وتسيل كما المهل.. وتنفجر.. فتتساقط كسفا من السماء لتحرق كل من حولها وما حولها..
سيول من النيران المستعرة تتساقط من فوقها وهي تركض بلا هدف، تصرخ طالبة للنجاة التي لن تجيبها.. والغريب أنها لم تستطع أن تقترب حتى من الجبل بعد أن اشتعل ما حوله بشرر كالقصر.. وهنا ترفع عينيها للسماء لترى سوطا من النيران المستعرة ينقض عليها و.......
وتستيقظ....

طردت المشهد من أمام ناظريها للمرة العاشرة هذا الصباح وهي تطالع هذا القزم الصغير الذي وقف بخشوع أمامها.. يرتجف كمن لسعه الصقيع في فقرات ظهره.. تحدثت له بنبرة هادئة لم يسمعها من قبل وقصت عليه كل ما رأت بتوتر بالغ حتى انتهت ثم تابعت:

- أخبرني أيها العراف الجديد بتفسير لما رأيت

ابتسم بثقة بعدما زال خوفه وهو منتشي بتقرب هارمونيا منه ومنتشي بفكرة أنه كاد أن يرث مكانة خاصة عندها فتحدث بغباء مفرط وقال:

- ليس هناك سوى تفسير واحد يا هارمونيا
- وما هو؟
- أن هذا الشاب سوف يهدم مملكتك بأكملها وأنك سوف تهلكين معها لو لم تتبعينه

ابتسمت له بحنان وقالت:

- لقد راق لي تفسيرك يا كاهني السابق

لم يدرك معنى كلمة السابق إلا عندما أشارت للحارس فكبله بعنف وقاده نحو غرفة جانبية وهو يصيح:

- ماذا فعلت يا هارمونيا وبم أخطأت؟؟

نسي المسكين أن للكلمات مفعول السحر في تلك الحياة وأنها قد تقودك نحو هلاكك إذا لم تكبح زمامها..

أما هي فقد هبطت من فوق عرشها غاضبة، خائفة.. سارت بغير هدى نحو غرفة جانبية ودلفت من بابها.. تقدمت داخل الغرفة الصغيرة التي لم يتواجد بها سوى حوض من الرخام.. أغلقت الباب وخلعت ردائها حتى أصبحت كامرأة في مدينة الخطايا، عارية كيوم ولدتها أمها أو كيوم أن هبطت من سمائها لتكون إلها على تلك الأرض كما تزعم..

استلقت على ظهرها داخل الحوض ليصم اذنيها صوت صراخ.. كان القزم يهبط من فتحة صغير في السقف وهو معلق بالأصفاد من فوقها، توقف هبوطه على بعد متر واحد منها وراح يتأرجح كمن أُعدم شنقا لتوه.. أمسكت بأداة حادة تشبه الرمح ولكنه معقوق الطرف كانت بجوار الحوض وبدأت تخمش ظهره بعنف والذي كان عاريا بدوره.. تساقطت قطرات الدماء من فوقها فانتشى جسدها بأكمله وراحت تضرب جسده بقوة أكبر وتمزقه لتتساقط الدماء من فوقها غزيرة وهي تتأوه بسعادة بالغة وتحك جسدها كله لتنال حظا من ماء الحياة كما تدعوه.. أما القزم فقد كانت صرخاته الفاجعة تطرب مسمعها بشدة حتى قربت النصل المعقوق من عنق القزم و.....

ونحرته نحرا لتندفع من عنقه نافورة من الدماء الساخنة فتغرق جسدها بأكمله لتصيح بسعادة بالغة وتتسع ابتسامتها ويتصلب جسدها وينتفض مرتين ثم تهدأ تمامًا ليرتفع صوت خوار من فم القزم الذي توقف جسده عن الحركة وإن راح يتأرجح بهدوء بالغ..

ولو جلس فنان في تلك اللحظات لرسم أبشع لوحة قد تتواجد على الأرض يوما.. لوحة لفتاة عارية غارقة في الدماء مبتسمة في سعادة بالغة ومن فوقها جثة معلقة لقزم وقد اضمحلت ملامحها...

****

إنه الجنون بلا شك، لقد مسه بعضا منه، فماذا لو لم يكن هو، فما تفسير ما يراه إذا؟!

رجال ونساء عرايا، العشرات منهم يمارسون الفاحشة على قارعة الطريق وفوق أسطح المنازل، الكل منتشي.. سعيد بما يفعله وكأنه يقوم بعمله اليومي، أصابته صدمة عنيفة لمرآي تلك المشاهد وتوقف عقله لثوانٍ عن العمل وهو يتابع بعينيه هؤلاء القوم..

أي قومٍ هؤلاء؟!

أهي القرية التي كانت تعمل الخبائث؟!

لا فتلك كانت قرية لوط.. ماذا إذا؟!

أين أنااااااااااا؟!

نبض عقله نبضات صارخة داخل رأسه.. يطالب بإجابات شافية، فكل ما سمعه من الرجل بالغار لم يكن ليصف صفر بالمائة مما يراه الان..

كانت المنازل تصطف بجوار بعضها في أربع صفوف متوازية، منازل تتشابه في تكوينها وألوانها، لون الجليد هو ما رسمت به تلك اللوحة، منازل بيضاء متقاربة في الحجم أو هي بحجم واحد تقريبا، يتخلل المنازل ثلاثة شوارع مستقيمة ثم على الجانبين كان سور المدينة الصغير..

وأمام كل منزل كان هناك البعض.. يرقصون.. واخرون يمارسون الفاحشة بكل مجون. ناهيك عن تلك الأطياف السوداء الشبيهة بالشياطين والتي كانت تطير هنا وهناك كالأشباح، البعض كان يلتصق ببطن الرجل لينال حظا من المرأة التي معه، والبعض الأخر كان يمتطي ظهور النسوة في مشهد بشع، مخيف..

أما هؤلاء القوم فكانوا في وادٍ أخر، فلا يظهر عليهم أنهم يروا أو يشعروا بتلك الأطياف.. ثم عم الصمت المكان بأكمله فلا تسمع إلا همسا.. وكأن الزمن قد غفا لثواني تاركًا الدنيا بعد خصام صغير...

تلفت الكل نحوه، يتفحصونه باهتمام شديد.. الكل ترك ما بيده ليطالع هذا الذي يتفضل عليهم ويواري سوأته.. يا ترى من هذا الذي يدعي الفضيلة ويرتكب مثل تلك الجريمة؟!

" جريمة ارتداء الملبس"

حتى تلك الأطياف وقفت تتطلع له بغل ووحشية شديدة.. رداءه الواسع الشبيه بالجلباب الأبيض آثار داخل هؤلاء القوم كل مشاعر الحقد والغضب، تمنوا لو مزقوه إربا، أو حرقوه حرقا..

ثم حلقت ضحكة ماجنة في الأفاق كشبح ضل طريقه، وكانت كجرس الإنذار، وعلى الفور اندفعت النسوة نحوه والتفقن من حوله فلم يتركوا له شبرا ليهرب.. طافوا من حوله وراحوا يتحسسون جسده بأيديهن وكأنهن يتبركن بضريح أو بصنم أصم لا ينفع ولا يضر.. كانت أعينهن تفيض بالرغبة.. الرغبة في تمزيق هذا الرداء وضم هذا الشاب لقائمة إنجازات كل منهن، وكم كان رداءه مغريا لهن.. فما توارى من جسده قد جعلهن ثائرات لأقصى درجة.. يودون لو يفتكن به وبجسده المصون عن الأبصار.. اقتربوا أكثر وضاقت الدائرة، لفحت أنفاسهن وجهه وشعر بحرارة أجسادهن، شخص بصره وارتفعت دقات قلبه..

و..........

****

وصايا الغريب

" إن الجسد لفان وإن الرغبة لمهلكة تقود صاحبها نحو الجحيم، تحرر من الرغبة وساير روحك واجعلها سيدة وحينها سوف تنجو.. ابحث عن روحك المؤمنة وستجدها وقت الضيق ووقتها ستبصر بروحك ما تكن لتبصره بعينيك "

****

كقرع ألف جرس رنت تلك الكلمات داخل عقله فأشعلته كما قطعة اللهيب المستعرة..

" ابحث عن روحك المؤمنة وستجدها وقت الضيق "

وهل هناك من وقت ضيق أشد من هذا؟!

وفي وسط الفتنة المميتة أغلق عينيه واستحضر روحه.. حطم غريزته على صخرة صماء وتأججت روحه بالنور الإلهي، وصرخ بداخله أن استيقظي يا من جئت من روح الله..

يا خالق الرووووووووح..

وفتح عينيه ليشتعل فيهما بريق مخيف، بريق جعل النسوة يتراجعن في ذعر ليُبصر هو..

ليبصر الكثير من البقع السوداء ومئات البثور والدمامل على أجسادهن.. ليبصر قطع الجلود المتكورة السوداء والزابلة على صدورهن فتشتعل بداخله ألف ألف رغبة..

لا في الفاحشة بل في التقيؤ..
النفور قد سكب بداخله وفاض به.. تراجع كمن مسه وابل من رصاص وركض كرقض شعور القرف والغثيان داخل جسده..

ظل يركض بين المنازل والأعين تتابعه في شغف وكأنه يوسف حينما دلف على النسوة وكن حينئذٍ يحملن السكاكين.. بعد نصف ساعة من الركض المتواصل مسه التعب الشديد فجلس بجوار شجرة وتوارى تمامًا عن الأعين وأخذ يلهث بشدة.. متعب هو يتمنى أن يصرخ..
مهموم هو يشتاق أن يبكي..
ترقرقت عينيه بالدمع فلمعتا في وضع النهار فخجلت الشمس من لمعتها وأسفت على حاله.. حتى الشجرة العتيقة ظللت عليه بظلالها واخذت تهدهده وتهدأ من روعه.. نظر بجوار فرأى بحيرة صغيرة تنظر له في صمت.. تقدم نحوها وراح يطالع مياهها النقية في شرود..
ما أقبح الشهوات وما أقبح أثرها.. يا ترى ما الذي رأيته منذ قليل؟!
رباه لا تتركني فأنا وحيدا.. مهموما.. لا أملك لنفسي حولا ولا قوة..
وسبحت نحوه في هدوء وعلى وجهها ابتسامة عذبة.. كان أمه أو طيفها على الأرجح.. نظرت له بكل حب فهمس هو:
- أمي
لم تجبه ولكن أشارت له من أسفل المياه لكي يهدأ فإذ به يجهش بالبكاء ويسقط أرضا.. ظل ينتحب ويبكي لدقيقة كاملة.. كان ضعيفا يشتاق لعناق.. يشتاق لأن يختفي داخل صدر أمه ويعود طفلا لا يأبه بشيء.. الحمل ثقيل وهو ليس بولي من أولياء الله ليتحمل كل هذا.. تطلع لها من جديد وقال:
- أخبريني ماذا أفعل يا أمي
أجابته بصوت حنون:
- أترك رغباتك تسوقك ولا تقسو على نفسك، إذا اشتقت للنساء فافعلها يا صغيري
اتسعت عينيه ذعرا وقال بخوف:
- الهاجس
- أي هاجس يا صغيري؟!
- أنت لست بأمي

وظل يرددها مرات ومرات ثم ركض من جديد وهو يصيح:
" أنت لست بأمي "
فإذا بصوتها يناديه من خلفه:
- انتظر يا بني
تلفت خلفه وهو يركض وصاح لاهثا:
- لعنة الله عليك
وما إن التفت ثانية حتى اصطدم بشيء فتعثر وسقط أرضا، تأوه متألما والتفت لما تعثر به فرآها.. كانت فتاة شابة وقد سقطت أرضا وراحت تنظر له نظرات غريبة.. تملكه الغضب الشديد وصرخ بها:
- لن أزني يا عاهرة لن أزني
ثم انقض عليها وطوق عنقها الصغير بكفيه وراح يعتصره عصرا.. اما الفتاة فقد جمدها الخوف وجحظت عينيها و......
****
" الغريب "
- ستخوض حربا صعبة يا بني، فقط أريدك أن تركز على عدوك.. تذكر أن عدوك هو الهاجس..
- وما هو الهاجس؟!
- إنه شر.. شر مخيف.. شيء يشبه السحر.. يطير مع الهواء وينساب مع المياه ويطوف بالطعام.. يتنفسونه.. يشربونه.. يأكلونه..
فلا تأكل من طعامهم ولا تشرب من مياههم ولا تكثر في تنفس هواءهم، ولا تعاشر نسائهم لأن الهاجس يجري في أجسادهم كما الدماء..
فقط لا يمسك الهاجس إن أردت أن تنتصر..

****
ظلام عظيم كظلمة بطن الحوت هو ما يخيم على المشهد.. يراودنا شعور بأننا نسقط بداخل بئر عظيمة.. الدوار يهاجم عقولنا بكل عنف.. عقولنا تئن..
تشتكي..
الصداع يضرب بمطرقته ولا يبالي..
شعور الغثيان يزداد..

يزداد..
أنفاسنا تضيق..
تضيق..
الظلام يهاجم..
الصداع يضرب..
الغثيان يزداد..
ثم ينتهي كل شيء..
تنفس الآن واهدأ عزيزي القارئ..
الرؤية تتضح رويدا رويدا..
تصطبغ الشاشة بلون أخضر باهت..
الآن يمكننا الرؤية..
نحن نسبح في بحر عظيم أنا وأنت..
أتشعر ببرودة المياه؟!
أتسمع صوت كائنات البحر؟!
استرخي ولا تقلق فنحن يمكننا العيش هنا.. استرخي لتسحبنا المياه أكثر وأكثر فلازال المشوار طويلا..
بعد دقائق كنا قد وصلنا إلى القاع..
الان يمكننا السير.. أتشاهد تلك الأسماك العظيمة والتي تسبح من حولنا.. انتظر.. لا تقترب منهم حتى لا أفقدك.. فنحن هنا فقط لنشاهد بعض الأحداث ثم نرحل سريعا..
صوت مخيف انطلق من العدم فاضطربت المياه من حولنا.. الأسماك تهرول.. خائفة.. تهرب.. تختبأ..
هيا لنهرب من هنا..
أترى هذا الكهف؟!
هيا لنختبئ بداخله..

******

استيقظ من نومه فزعا داخل هذا الكهف وأخذ يلهث بعنف.. أفاقت زوجته من نومها وأحاطته بذراعيها لتهدأ من روعه وهي تقول:

- ما بك يا عزيزي؟!

أجابها من وسط أنفاسه:

- كابوس
- أهي ابنتك؟!
- نعم هي

تابعت بكل شفقة:

- أنت تقسو على نفسك يا حواس
- لا إنها في خطر أشعر بها
- وما أدراك بهذا؟! بل ما أدراك بأنها لازالت حية بعد كل ما حدث..
- لا إنها لازالت على قيد الحياة.. ولكنها في خطر كبير.. أشعر بهذا.. يجب أن أرحل من هنا وأعاود البحث عنها
- ومن سيسمح لك بالعودة إلى مدينة الخطايا؟!
- سأجد طريقة ولكن لندعو الله بأن ينجيها مما هي فيه

******

كان يفرغ جم غضبه في تلك اللحظات.. الغضب الذي كان يهرول بداخل عروقه كالحمم البركانية.. الغضب لموت صديقه.. الغضب لوجوده هنا.. الغضب لخوفه من السقوط في مستنقعات الزنا والبقاء هنا حتى الممات..

أخذت تنتفض بين يديه بعنف وترتجف أوصالها.. جحظت عينيها أكثر وأكثر.. و.....

ارتفع إصبعها السبابة في محاولة أخيرة منها ورفعته أمام عينيه وحركته يمنة ويسرة.. أصابته الحيرة من فعلها و....

تركها بكل بساطة بعدما غادره غضبه في لحظة واحدة.. سقطت أرضا وراحت تسعل بعنف وترتجف.. شعر بالأسف لفعلته تلك وحاول أن يعاونها ولكن كيف سيعاون فتاة لا تواري شيئًا من جسدها.. أدار جسده للخلف وانتظر كثيرا حتى سمع صوت تنفسها وقد عاد هادئا ثم قال:

- من أنتِ؟!

لم تجبه وهي تنظر له برعب بعدما كاد أن يقتلها..

كرر سؤاله في عصبية ولكنه لم تجبه من جديد..

تركها وسار مبتعدا ليتوقف على صوتها وهي تهتف:

- أحمد

التفت لها في دهشة وقال:
- أتعرفينني
ثم أشاح بوجهه من جديد عنها فقالت:
- أعطني ردائك
خلع الجلباب عنه وأعطاه لها فغطت به جسدها وقالت له:
- أتريد حقا أن تعرف من أنا؟!
- لا ولكني أريد أن أعرف سبب فعلتك تلك بسبابتك منذ قليل
- كنت أريد أن اخبرك بأنني لم أكن أريد جسدك
- وماذا تريدين إذا؟؟
- لقد رأيت ما حدث لك في ساحة الدم أمام هارمونيا وأريد أن أساعدك ولو ببعض المعلومات
- وبماذا قد تفيدني عاهرة مثلك؟!
ترقرقت عينيها بالدمع وقالت:
- لا تحكم على الأمور هكذا
- علميني إذا ايتها المتحذلقة
- لا تستهن بشخصي الضعيف
- لا أُريد ثرثرة لا تفيد أخبريني بما أواجه أو بما قد يفدني
- حسنا اسمع قصتي ولا تقاطعني ولكن لنختبئ هناك
ثم أشارت حيث بعض الأشجار... وتواروا حيث أشارت وبدأت تقص على مسامعه ما جعل روحه تضطرب من العجب..
******
نوران هو اسمي.. أو هو اسمي القديم والذي أسماني إياه هو أبي..
لا أعرف كثيرا عن تاريخ تلك المملكة ولكن ما أعرفه هو ما رأيته منذ سنوات.. تزوج أبي من أمي بعد قصة حب ملتهبة شهدها الكثير من قومه وقومها.. لماذا أقول هذا؟!
لأنه وببساطة كان أبي من قاطني بحر الظلمات بينما أمي كانت من مدينة الخطايا.. ولكم عانوا ولاقوا من الصعاب التي لا يمكنك تخيلها بسبب هذا الزواج..
أولا لأن الزواج كان محرما في مدينة الخطايا، ثانيا لأنه لا يجوز أن يتزوج أحد سكان البحر من سكان الغابة أو المدينة.. تلك كانت الأعراف السائدة، ولكن أبي لم توقفه الصعاب أبدا وحارب قومه

وهجرهم وأحضرها في النهاية إلى جزيرة صغيرة داخل البحر وسكنوها بعيدا عن الكل..
لم يكن سر تمسك أبي بأمي هو الحب فقط ولكنه أيضا هذا المشروع الذي تواعدوا بأن يحققوه معا..
فطن أبي منذ نعومة أظافره بأن هارمونيا تلك ليست سوى ساحرة شريرة وأنها ليست بإله ولكنه لم يبح بما يدور في خاطره لأحد حتى جاء هذا اليوم..
يوم الخلود.. هذا هو اليوم الذي ينتظره الكل بشغف.. يوم عيد علينا حيث تطلب هارمونيا من أهل بحر الظلمات أن يحضروا خمسة من أجمل الرجال ليتحقق لأحدهم الخلود.. وكان جدي منهم.. ذهب مع أربعة من قومه وكان أبي لازال صغيرا وأصر أن يذهب مع والده ليرى ما يحدث.. وبطريقة لعب الحظ فيها لعبته رأى أبي ما حدث بعينيه.. اختارت هارمونيا جدي لتهبه الخلود كما تدعي وأخذته لمكان سري بداخل القصر وكان أبي يتتبعهم متخفيا.. وهناك وفي غرفة صغيرة في أحد الممرات رأى أبي ما حدث..
لم تكن هارمونيا تلك سوى امرأة ككل النساء تحتاج للرجل في حياتها.. لذلك كانت تأخذ ما يشبع شهوتها من الرجل ولكن في الخفاء ثم تقتله وتدَّعي أنها قد وهبته الخلود.. ورآها أبي تمارس الفاحشة مع أبيه ثم تمزقه إربا بعدها.. ورغم صغر سنه تيقن بأنها ليست بإله.. وهل هناك إله يمارس الفاحشة؟!!
ومنذ ذلك الحين قرر أن يحارب هارمونيا بكل السُبل حتى يقتص منها لأبيه.. وحين بلغ أشده قرر أن يرسم خطة لقتلها وكان يحضر كل المناسبات ليراقب هارمونيا.. ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان وتقابل مع أمي وأحبها من كل قلبه.. وهي أيضا بادلته تلك المشاعر.. وكللت تلك المشاعر بالزواج.. وفي ليلة جمعتهم تحت ظلال القمر أخبرها بما ينوي فعله.. لم تعارضه ولكنها أخبرته بأن الأمر ليس سهلا وبعد حديث طويل أقنعها فيه بأن هارمونيا ليست بإله نصحته أمي أن يحشد الجموع من حوله حتى يستمد منهم القوة.. فليكن ملهما لهم ويخبرهم بالحقيقة حتى يناصروه ويمكنه وقتها من إعلان الحرب عليها وعلى أكاذيبها..

وبدأ أبي في التنفيذ تناصره أمي وتدعمه.. كان يدعو قومه سرا لنبذ هارمونيا والإقرار بأنها ليست سوى ساحرة.. اتبعه قلة قليلة من قومه في الخفاء.. وحتى أمي يسرت له السُبل ليفعل المثل في مدينة الخطايا.. وجئت أنا إلى الدنيا واشتد عزم أبي للمضي قدما حتى أرى مستقبلا أفضل من حاضره الأليم..
ولكن عادت نفس أمي الآثمة تعيد لها الحنين لأيام المجون والعهر داخل مدينة الخطايا والذي لم تجده مع أبي.. يوما بعد يوم بدأت تفتعل المشاكل وتسخر من فعل أبي وتحتقره.. ساءت الأحوال أكثر وأصبحت تعلن رغبتها لأبي بأنها تريد العودة لقومها وبأنه لن يجني شيئًا من محاربة هارمونيا سوى الهلاك.. رفض أبي رفضا قاطعا وحبسها في الجزيرة وأصبح يذهب وحيدا لدعوة قومه وقومها سرا..
ولكن أمي لم تكن لترضخ لفعلته واستطاعت أن تهرب بي وأنا ابنة العاشرة وتعود بي لمدينة هارمونيا والتي تفصل بينها وبين مدينتنا الصحراء.. وأخبرت هارمونيا بالأمر كله بعد أن سخطت لفعلة أبي بها وسجنه لها.. وتم القبض على اتباع أبي بعد أن وشت بهم أمي.. وأقيمت المسابقات والتي أريقت فيها أنهارا من الدماء.. ومزقت فيها الأجساد واحترقت فيها العظام..
وأصبح الجند يبحثون ليل نهار عن أبي ليمثلوا به ويكون عبرة لمن تسول له نفسه في عصيان هارمونيا وتمرده عليها..
وتم الإعلان انه قد تم قتل أبي في مطاردة عنيفة مع أحد الجنود.. وهدأت الأوضاع تمامًا بعدها ولكن وضعت قوانين صارمة من هارمونيا.. لم يعد اختلاط الأقوام ببعضهم متاحا وكان العقاب هو الموت حرقا لمن يتعدى حدود مكانه.. فمكث أهل البحر في البحر وأهل الغابة في الغابة وآهل المدينة لازموا مكانهم.. منع الزواج في البحر والغابة بعد أن كان محرما فقط في مدينة الخطايا وأصبحت الفاحشة هي السبيل الوحيد للإنجاب..

واختفى أبي من الوجود ولم يظهر مرة أخرى وبقيت أنا مع أمي في مدينة الخطايا.. وبعد عامين وبعد أن أتممت الثانية عشرة جاء يوم العذارى.. وهو يوم كان يأتي كل أربعة أعوام.. وأحضروني مع العشرات من الفتيات الأخريات واللاتي تتراوح أعمارهن ما بين

الحادية عشر إلى الرابعة عشرة.. ووقفنا في قاعة كبيرة أمام هارمونيا ننتظر.. لا ندرك ما نحن مقدمون عليه.. حتى ظهرت العفاريت وهي كائنات سوداء لا تظهر سوى أعينهم.. وتملكنا الفزع أنا ورفيقاتي.. وفطنت للأمر بعد لحظات.. لقد كانوا مكلفين بفض عذريتنا أمام هارمونيا.. كانوا يضعون قطرات الدماء في قنينة صغيرة تنظر لها هارمونيا بجنون وشبق لا حدود له..
خضعت أغلب الفتيات ولم يقاومن ولكن حينما جاء دور تلك الفتاة النحيلة صرخت بعنف وراحت تضرب العفريت بكلتا يديها بعد أن مسها الرعب.. فما كان منه سوى أن صفعها صفعة سالت الدماء على أثرها من فمها وسقطت أرضا بلا حراك.. حملوها وخرجوا بها ليكملوا مع الأخريات.. وهنا طافت بي الذكريات القريبة.. ذكريات جلوسي مع أبي في ليالي الصيف الهادئة..
" لا تتركي أحدا مهما كان أن يعبث بجسدك، لا يستحق جسدك سوى رجلا واحدا وهو من يطلبك كزوجة ورفيقة مدى الحياة"
" حتما هناك خالق لهذا الكون وحتما لا يرضيه ما يفعله قوم أمك"
" تذكري يا صغيرة جسدك ملك لك ولا تسمحين لأحد آن يقترب منه"
وجاء دوري واقترب أحدهم مني ووضع يده على كتفي و.....
وبكل ما امتلك من عزم ضربت وجهه بقبضتي وأنا أصيح..
" لا تمس جسدي أيها الملعون"
تراجع بعنف من أثر الضربة التي لم أدرك أنها قد تكون بمثل تلك القوة ثم نظر لي نظرة أصابتني بشلل وجمدت الدماء في عروقي.. كان أعينه تقطر لهبا حرفيا.. نهضت هارمونيا غاضبة وهتفت به:
- اذبحها
وانطلق لتنفيذ الأمر وهو يسحبني من شعري بكل عنف وأنا أصرخ بين يديه ولا حول لي ولا قوة.. وأخرج من حزامه خنجرا ملتهبا ووضعه على عنقي.. و.....
ركضت أمي من بين جموع الأمهات واللاتي كن يشاهدن بناتهن وهن ينالوا شرف المرة الأولى لممارسة الفاحشة والوصول لبداية الطريق وسجدت أسفل قدمي هارمونيا وحدثتها:

- يا عظيمة لا تقتلي ابنتي بحق مساعدتي لك منذ عامين والوشاية بما كان يفعله أبيها فقط اتركيني أحدثها لدقائق وسأجعلها تفعلها بعد ذلك

برقت عيني هارمونيا في تلك اللحظات وقالت:

- إذا فهي ابنته
- نعم يا عظيمة وأنا أطلب رحمتك

نظرت لي وقتها نظرة غريبة لم أنساها حتى تلك اللحظة وقالت:

- يبدو أن أبيها قد زرع أفكاره في عقلها لذلك سننتزع تلك الأفكار انتزاعا

ثم ابتسمت برقة وقالت بدلال:

- بيت التربية

ظهر الجزع والألم على وجه أمي ونظرت لي دامعة وكانت تلك آخر نظرة رأيتها ولمدة أربع وعشرين دورة قمرية..

وضعوا السواد على وجهي فلم أعد أرى شيئًا وقادوني حيث ممرات ودروب كثيرة.. مشيت معهم حتى أصابني التعب وكنت كلما وقفت يدفعني أحدهم بغلظة ويقول:

" هل تعبت يا صغيرة؟! تحملي لأنك سوف ترين الهول كله بعد قليل "

و......

تركوني داخل غرفة صغيرة ورحلوا.. جلست لساعات وساعات في ركن بعيد ارتجف من الخوف.. كنت وحيدة لا أرى أحدا.. لا أسمع شيئًا وكأنني قد فقدت حاستي السمع والبصر..

ومن بعيد كان هناك صوت احتكاك خفيف، بدأت أرهف السمع وأخذ الصوت يقترب.. حاولت أن أخترق الظلام بعيني ولكن دون جدوى، إنه الموت دون أدنى شك فهم يقولون انه يزحف ببطء نحو صاحبه وهو على يقين بأنه سينال منه.. ارتعدت فرائصي كلها وقد تجسدت مخاوفي كلها داخل عقلي تنهش قلبي نهشا.. واقترب الصوت وقد تحجرت دموع الخوف داخل مقلتي.. وشعرت بملمسه.. كان باردا.. لزجا.. انتفضت بفعل ملمسه كمن مسته صاعقة العذاب.. ورحت أصرخ وأركض بلا هدف.. تخبطت مرات ومرات حتى نزفت رأسي وسقطت أرضا لا

أقدر على شيء.. وزحف من فوقي وكأنه يشعر بي ويراني.. واقشعر بدني كله جراء ملمسه ولكني كنت في حالة عاتية من الوهن..

كان يلهو في كامل جسدي، كان طويلا ورفيعا كثعبان طويل ولكن جسده كأنبوب من مادة لزجة.. باردة كالثلج.. ظل لساعات يفعلها وأنا أشعر به وأبكي في وهن وصمت... انتفض جسدي مرات ومرات بسبب برودة جسده ولكنه لم يبالي.. وكما جاء عاد لمكمنه من جديد.. وبقي الظلام على حاله وسقطت أنا في غيبوبة عميقة..
أفقت على ظلام دامس من جديد.. وسمعت صوت بابا حديديا يفتح ويقول الحارس..
" ها هو طعامك يا لعينة "
ثم أغلق الباب بعنف.. تحسست طريقي وأنا أسير على أربع كما الحيوانات نحو مصدر الصوت.. مددت يدي على الأرض الباردة وتقدمت حتى لامست ما بداخل وعاء صغيرا.. كانت مادة لزجة أعادت لي شعور دميمًا لم يفارقني حينما كان هذا الشيء يزحف على جسدي... تشممت الطعام فإذا به كريه الرائحة لدرجة لا تطاق ولكن بطني كانت تصرخ جوعا.. سقطت أدمعي داخل الوعاء وقربته من فمي وشربت ما بداخله..
كانت مادة تشبه المخاط تركت مرارة لا تطاق داخل حلقي.. بصقت ما بداخل فمي وسقطت أرضا أبكي وأصيح من الألم والقهر.. بكيت كثيرا وصرخت كثيرا وما من مجيب.. وعاد الصوت من جديد.. ولكنه لم يكن وحيدا، لقد اندمج بعشرات الأصوات ممن على شاكلته.. لا لم يكن نفس الصوت لقد كان مختلفا تلك المرة، أصوات كثيرة تختلط ببعضها تقترب بانتظام نحوي.. تصدر صوتا يشبه صوت حناجر الجرذان.. يا للمصيبة إنها حقا جرذان.. عشرات الجرذان راحت تركض بجواري وفوق جسدي، انتفضت واقفة وركضت في الظلام، وحدث من جديد.. ارتطمت مرات ومرات وسقطت أرضا بعدما تلقى جسدي ضربات عنيفة من جدار الغرفة.. ولم يبالوا بفتاة ضعيفة.. لعبوا فوق جسدي كثيرا ومرت الدقائق كأعوام وأعوام.. أرجلهم مقززة تثير الغثيان.. وأصواتهم تصم الآذان.. تشمموا جسدي ونهشوه نهشا وأنا على حالي أنتفض..

وكما بدأ الأمر انتهى.. وأفقت من جديد على ظلام دامس.. البرد هنا شديد.. والخوف هنا رفيق.. والقهر هنا حبيب...
آااااااااااااااه يا أبي
آااااااااااااااه يا أمي
وفتح الباب من جديد بعد وقت لم أعد أحسبه.. لقد توقف الزمان عند تلك النقطة.. ولكم كان قاسيا معي فقد توقف عند أصعب نقطة في حياتي وراح يعاد مرارا وتكرارا..
هل تراني؟!
ها أنا أزحف من جديد كالكلب الضال المعاق نحو الوعاء.. امرر لساني على السائل وابتلع منه القليل ثم اتقيؤ لأعاود الكرة من جديد..
ثم عاد الصوت.. لا إنه صوتا مختلفا.. وقع أقدامه ثقيلة.. بطيئة.. إنه وحش مخيف.. هل تسمع خطواته؟!
أرجوووك انجدني..
انجدوووني فأنا مجرد فتاة مسكينة..
أراكم تقرأون الكلمات دون أدنى شفقة منكم أو رحمة.. تظنون أنها مجرد قصة وليست بواقعا.. أنتم عديمو الرحمة..
ها هو يقترب أشعر به.. الأرض تهتز أسفل مني.. يتوقف.. أشعر بحرارة جسده في الظلام.. ثم أشعر بيد ضخمة.. كثيفة الشعر تتحسس جسدي بقوة.. انتفض.. ارتجف.. اتلوى ولكن دون جدوى..

يتحسس جسدي بأكمله.. يمرر يده المخيفة كما يحلو له.. تسألني لِمَ لا أقاوم؟!
ألم أقل أنك عديم الرحمة.. كيف أقاوم كفا هي بحجم نصف جسدي تقريبا.. الشعر يداعب جسدي فينكمش.. لا يتوقف هذا اللعين.. أغمض عيناي وأرجو من الظلام أن يبلعنا ولكنه يبلعني أنا فقط وتظل الكف تفعل ما يحلو لها..
وتنتهي بعد أعوام على ما أظن.. ويفتح الباب ويوضع الوعاء.. وأزحف من جديد والمسه فأصرخ.. لقد كان به شيئًا مخيفا تلك المرة.. شيئًا حيا.. أو أشياءً حية.. أشياء رفيعة.. لزجة تتلوى.. إنها ديدان..

ابتعد.. أظل لسنوات أخرى أو أحسبها كذلك لا آكل.. ثم ينهشني الجوع فأبكي.. ثم آكل ما به وأشعر بالدود يتلوى بداخل فمي.. اتقيؤ.. آكل ثم اتقيؤ..
الصوت من جديد.. صوت همسات تلك المرة وكأنها قادمة من الجحيم..
أشباح.. أنتفض.. تقترب..
أصرخ..
أصيح..
لا أمل فما من مجيب..
تتحسس جسدي تلك المرة أصابع رفيعة.. أصابع من العظام دون اللحم.. تجرح جسدي فينزف.. تظل لأعوام تفعلها.. ثم ترحل..
الآن هناك مشكلة جديدة.. بطني تؤلمني بشدة.. لا فالألم يطاق ولكن ما أشعر به لا يطاق.. أريد أن أقضي حاجتي..
كما الحيوان زحفت حتى الجدار وبكل قهر وذل الدنيا فعلتها..
ماذا؟!
نعم أمي أخبرتني أن هناك مكانا خاصا لهذا الأمر ولكني لم أجده صدقني..
تعاود الكرة.. آكل طعاما مقيتا.. أتقيأ.. اقضي حاجتي بجوار الجدار..
جسدي أصبح مجرى للفضلات.. لا يهم
الصوت يعود.. الأيادي تتحسس.. الجرذان تعود.. الضخم يعود ثم الزاحف يعود وما بصوت أصحاب الأصابع العظمية ببعيد..
مع مرور الزمن الذي لا يمر ميزت أصواتهم.. تقبلت ما يحدث.. نعم فالألم كفيل بأن يقتل بداخلك كل المشاعر الأخرى..
تتساءل أي ألم ؟!
بطني اصبحت بركانا ثائرا.. تذوب ألما.. تيبس جلدي وأصابني مرض الحكة وأخد جلدي ينزف كثيرا..
أليس هذا مؤلما من وجهة نظرك ؟!
ألست صغيرة من وجهة نظرك لأحتمل كل هذا؟!

أحيا الآن في غرفة تتكون من فضلات وقيئ.. ثم تعلمت الغنى.. نعم غنيت بصوت واهن.. صوت قد فقد بريقه منذ زمن..

" صغيرة أنا يا زماني "
" صغيرة داخل البستان "
" صغيرة تشتاق للعبة "
" صغيرة تتألم يا أصحاب "

ثم تتحسس الأيادي..
لا ليست الأشباح إنهم أصحاب الأصابع العظمية ولكني لن أتوقف عن الغنى..

" كل يوم أنا أشتاق "
" أشتاق أنا الصغيرة أشتاق "
" فأين هذا العناق "
" بطني تؤلمنيييييي "

دماء تنزل مع البول.. لا يهم.. دماء تنزل مع القيء.. لا يهم..
الاهم هو أن أنهي أغنيتي الجديدة..

" السماء زرقاااااء "
" والرمال صفراااااااء "
" وأنا بيضاااااااء "
" أحبك يا أبيييييييي "

الديدان ترتع وتأكلني حية.. جسدي قد تحول لجثة تتحلل.. لا يهم

" كنت أحب هذا الفتى "
" كان يبتسم ليييي "
" سميته المغوار "
" وحسبته مخلصيييي "

الضخم صاحب اليد المشعرة يضربني بعنف.. يسحلني كما الدمية.. لا يهم.. الأهم هو الأغنية..

" أبي مرة قال لييي "
" جسدك ملكك "
" لكن يا حبيبي "
" أخدووه منييي "
" سامحني يا أبييي "
" قد تخلى عنيييي "

ولكن حدث شيئًا جديدا كسر رتابة الزمان.. لقد فتح الباب.. زحفت نحو الوعاء ولكن لم تكن ديدانا ولم يكن سائلا عفنا..
لقد كان طعاما مختلفا.. لم اتبين طعمه لأن فمي قد تيبس بسبب كثرة القيء ومرارته ولكنه كان جيد الملمس.. هناك سائلا غريبا قد أغرق الغرفة.. أشعر أنه مألوفا لي ولكني لا أذكره.. ثم هناك أياد تتحسس جسدي ولكنها رقيقة.. ماذا يحدث؟!
لا يهم فلنغني..

" يروى في زمان ما "
" خرجت الفتاااااااة"
" قالت سلام سلام "
" قيل لها نوراااااان"
نورااان؟!
اسم من هذا؟!
لا يهم يبدو أنه قد علق بذاكرتي..
" قالت ماذا يا أصحاب "
" قيل لها جميييلة "
السائل ينساب فوقي من جديد.. أشعر بأشياء صلبة تذوب من فوق جسدي.. الطعام يظهر طعمه يوما بعد يوم أو عاما بعد عام.. لا يهم..
الأيادي تطيب جسدي فهو أفضل الآن..
" نوران نوران "
" طفلتي الرقيقة "
" نوران نوران "

الأرض تعود صلبة من جديد.. الأيادي تطيب جسدي.. الطعام حلو المذاق...
و..........

وصرخت ألما حينما رأيت نيرانا تلتهم عيناي.. أغلقتهما بقوة وأنا أصيح.. ثم بزغ شعاع واهن أضاء الجدار المقابل.. قاومت رغبتي في رؤيته لأن عيناي تحرقني.. أنظر له لحظة ثم أغلقها من جديد.. الآن أنظر له لحظتين..
الأيادي تطيبني.. الطعام مالح قليلا.. الشعاع لا يحرق عيناي..
الشعاع اشتد قوة.. الطعام مر المذاق.. الأيادي تطيبني.. الأرض صلبة.. جسدي نظيف..
الشعاع أزداد قوة وبريقا حتى أضاء الجدار المقابل بأكمله.. ها أنا أراه للمرة الأولى منذ أن كنت هنا.. جدار من الحجارة تتوسطه نافذة صغيرة مغلقة بغطاء حديدي.. الماء المثلج يغرقني من جديد..
الباب أصبح ظاهرا، لقد تركوه مفتوحا..

أقف على قدماي.. أسير كما البشر.. قدماي تؤلمني بشدة، أسقط.. أنهض من جديد... أسقط..
أنام من التعب.. مياه باردة من جديد.. أراهم.. نساء عاريات.. يمسحن على جسدي بقطع ملساء.. احداهن تغسل شعري بسائل طيب الرائحة.. الطعام أصبح شهيا.. رحلوا وتركوا الباب كما كان.. نهضت من جديد، أسير خطوة فخطوة.. أسقط.. أنهض وأسير ثلاث خطوات..
" قالت لها الفتاة "
" اليوم يوم عيييد "
" عيد من يا فتاة "
" إنه عيد نوراااااااان"

مرة بعد مرة لا أقول يوما بعد يوم لأن الأيام قد تناست أن تمر بي وتركت غرفتي مظلمة لوحشة الليل.. أسير وأسقط.. أسقط وأسير حتى

عدت للسير من جديد.. حتى تلك اللاصقات الجلدية قد سقطت من على جسدي بعد أن تعافى..

وخرجت أعرج من الغرفة ورأيت ممرا طويلا مضاءً بشعل نارية.. سرت فيه حتى نهايته، كان ينتهي بباب صغير.. مددت يدي اليابسة ودفعته فانفتح كاشفا عن درج ضيق.. صعدت كالمخمورة عليه حتى وصلت لنهايته.. باب آخر فتحته لتظهر قاعة كبيرة.. خطوت بداخلها لأفاجئ بها..

ارتدت لي ذاكرتي كاملة ما إن نظرت في عينيها.. كانت جالسة على العرش.. هارمونيا.. تأملتها بأعين خاوية على عروشها وأطلت النظر حتى هوى أحدهم بدرعه على ظهري فسقطت أرضا..

" اسجدي "

نعم فعلتها بالطبع..

ثم تحدثت بهدوء وقالت:

- الآن ما رأيك ؟! "
- ....
- أتحبين العودة للغرفة أم الحرية
- ....
- أتحبين أن يعبث بجسدك الرجال أم تعبث به الوحوش والجرذان والعفاريت؟!
- ....

أغني بهدوءٍ وشرود بالغ..

" أشتاق لنسمة هواء "

" اشتاق لطلة قمر "

يقترب الحارس ليقوم بالمهمة بعدما أشارت له هارمونيا..

" أشتاق لعناق الموت "

" الألم إلى زواااال"

استسلمت وتركته.. أصابعه رقيقة ليست كمن سبقوه من الوحوش.. هذا أهون كثيرا عليّ..

" النور سطع في الأفااق"

" والظلام يشير لي "

ينتهي من فعلته ويأخذ قطرات لا أعلم ما أهميتها عندهم ولكن لا يهم..

_ الآن خذيها وارحلي من هنا
تقولها هارمونيا.. ليصطدم بي جبل من الخلف.. لقد عاد الضخم من جديد.. يحتضنني بعنف وقوة.. ألا يحيا في ظلام الغرفة فقط؟!
ما الذي جاء به إلى هنا؟!
ولكن مهلا.. لماذا يبكي هكذا..
لا لا إنها امرأة، من تكون تلك؟!
لا يهم فعبثها بجسدي غير مؤلما على الإطلاق..

عدت لأمي ولبيتي.. بقيت خرساء لا أتحدث إلا بالغنى لمدة اثنتا عشرة دورة قمرية، ترعاني أمي رعاية كاملة.. لقد تذكرتها بعد فترة نعم وعرفت أنها أمي.. علمت فيما بعد أنني قد ظللت بالغرفة لمدة أربع وعشرون دورة قمرية" يعني عامان"
نصفهم في الحبس ونصفهم لأتماثل للشفاء..
ورغما عني أحببتها، لم أستطع أن أكنّ لها أية كراهية، وعاد صوتي من جديد ولكن لم تفارقني أغنياتي.. ورأوني العامة واشتهوني، وأصبحت فتاة جيدة تفعل مثلما يفعل قومها كل يوم.. اتركهم يعبثون بجسدي كما يحلو لهم وأغني أنا..
على الأقل هناك ضوء.. أياديهم ليست مخيفة ولا مؤلمة.. ذاع صيتي وأصبحت أغنياتي إلهاما للرجال، فأصبحت غير متاحة للعامة ولكن للقلة القليلة وأصبح الأمر لا يتعدى دقائق كل اسبوع.. وها أنا أفعلها منذ ست سنوات...
" نعم نعم أنا نوران "
" أبي هو حواس "
" وتلك قصتي يا "
" يا أصحاااااب"

******

أطلق زفيرا من نار لعله يهدأ من غليان عقله وثورة قلبه.. أي هول هذا الذي يحدث هنا، أي عذاب هذا الذي قد لاقته تلك الفتاة؟!
كانت تتصنع الجلد طوال فترة الحديث ولكن ما إن انتهت حتى سقطت أرضا وأخذت تنتحب بشدة، رق قلبه لها وكاد أن ينهار بجوارها ولكنه تصنع الصلابة واقترب منها، أمسك يديها في رفق، فلم تهدأ بل زادت

في نحيبها، نظر لها فثارت مشاعره.. إنها تشبهها كثيرا، نجمته الخاصة هل تذكرونها؟!

ضمها بلين ورفق فراحت تنتفض بين يديه كعصفور صغير.. ترك لها كل الوقت حتى أفرغت كل دموعها وهدأت تمامًا..

حاصرته أفكاره وراحت تصيح بانفعال..

أكنت تظنها عاهرة؟!

نعم للوهلة الأولى تظهر للعيان وكأنها عاهرة ولكن من يعلم الحقيقة يدرك بأنها غير آثمة.. ولاحت نجمته من جديد في الأفاق..

ما أدراك أنها قد تخلت عنك؟!

لماذا لا تكون قد تعرضت لظرف قهري جعلها تفعل ما فعلت.. لماذا نحكم على الأمور من منظورنا الضيق ومن مظهرها؟!

كانت هناك غصة مقبضة تجتاح صدره وتتسلل إلى قلبه.. يتمنى لو يخفف عنها ولو بالقليل..

نظر في عينيها فرأى كل شجن الدنيا يجتمع فيهما يختلط بمسحة من جمال طاغ.. ابتسم لها وقال بصوت حاول أن يجعله هادئا:

- لقد انتهى كل شيء وأنت بأمانٍ الآن

قالها وهو يدرك كذب كلماته ولكن ماذا عساه أن يفعل؟!

ابتسمت بدورها ونظرت أرضا ثم قالت:

- شكرا لك لأنك تفهمت الأمر واستمعت لي

تأملها في حب لا يدري كيف راود قلبه وقتها، هناك طفولة وبراءة يجتمعان في وجهها فيجعلانها أية في الجمال بعينيها البنتين وبشرتها البيضاء المشردة بالحمرة، خفق قلبه بعنف فأدرك أنه قد فقد سيطرته عليه..

قال لها مشجعا إياها على الحديث:

- ولكن أخبريني لماذا قصصت عليَّ أنا قصتك
- لأني أريدك ألا تستسلم لها ابحث عنهم فسوف يساعدونك
- من هم؟!
- من اتبعوا أبي من قبل ستجدهم في كل مكان من حولك ينتظرون من ينير لهم طريقهم كون جيشك الصغير واستمد قوتك منه ومن يدري فقد تنتصر عليها في النهاية

- الأمر يقترب من المستحيل فأنا حتى لا أثق في نفسي بأنني سأغادر هذا المكان غير آثما

وضعت بين يديه قطعة صلبة صغيرة مدببة الطرف وقالت:

- ستساعدك هذه
- وما هذه
- كلما أغوتك امرأة قم بوخز نفسك بها فسيتحرر جسدك وقتها من شهوته وستبصر بروحك ما سيجعلك تنتصر كان أبي يخبرني بهذا دائما إن كبحت اندفاع جسدك بأي وسيلة وتركت لروحك العنان فسوف تفعل الصواب

نظر لها نظرة عاشق تفضحه نظراته واتسعت ابتسامته أكثر، وعلى ما يبدو أنها قد شعرت بالأمر فازداد اندفاع الدماء في وجهها فزادته حمرة وجمالا..

- ولكن كيف يفعل رجالكم مثل هذا الأمر مع أجساد بالية ووجوه بشعة
- لا أفقه حديثك
- لقد رأيت نسائكم وهن حولي كن في غاية البشاعة والدمامة
- كيف هذا؟! نساءنا غاية في الجمال
- لا أقسم لك لقد رأيت أجسادهن تغطيها البثور والدمامل كانت قبيحة لدرجة مخيفة

نظرت له في حيرة فأخذ يفكر ويفكر حتى لمعت عيناه وصاح:

- الهاجس
- ما به؟!
- لقد أصابتكم أمراض لا حصر لها جعلت أجسادكم دميمة وقبيحة لدرجة مخيفة ولكن الهاجس يعمي أبصاركم عن تلك الحقيقة وبما أنه لا يؤثر فيّ بدرجة كبيرة فقد بصرت الحقيقة بروحي لا بعيني والتي ترى من خلال الهاجس الذي يطوف بالهواء
- هل تقصد؟!
- نعم الأمراض قد تفشت في مدينتكم بطريقة مفزعة ولو بصرتم ما بصرته أنا فلن يقترب رجلا من امرأة أبدا أخبريني عن عدد الموتى عندكم

- لا يموت أحدا فالكثير يذهب كل دورة قمرية ليدخل جنة هارمونيا
- تعنين أنهم يفقدون الحركة

_ نعم يفقدون بريق الحياة ولكن تذهب أجسادهم إلى هارمونيا لتهبهم حياة أخرى في مكان أجمل

- هي لا تهب شيئًا الأمر كله أن الأمراض الجنسية تفتك بكم كل يوم ولكن الهاجس يعميكم عن رؤية الحقيقة

همت بقول شيء ما ولكنها تراجعت فحثها على الحديث فقالت:

- أطفالنا هنا يخشون النساء بشدة حتى أمهاتهم ويصفونهم بالبشاعة ولا أحد يدري لماذا
- ماذا يعني هذا؟!
- الهاجس لا يؤثر على الصغار ولا يجد سطوة عليهم فقط البالغين ممن تركوا أنفسهم لشهواتهم قد تشبعوا به وأصبح يحركهم كيف يشاء
- تحليل عبقري أحسنت

ابتسمت في خجل وصمتت ليتابع هو:

- وماذا عن أمك أتعرف أنك هنا تخبريني بتلك الأمور؟!

عاد الخوف والحزن يطل من عينيها..

******

أما تلك العارية فكانت تصيح معهم ولكن تصيح بكل ألم وقهر الدنيا وقد هطلت دموعها كالأمطار الشتوية، ظلت تنتحب وتهتف بكلمة " أمي أمي " ولكن صيحات السعادة لم تعطي لها فرصة ليسمعها أحدهم من هؤلاء القوم..

****

- لقد ماتت أمي
- ماتت؟؟؟
- نعم لقد ماتت بالأمس
- كيف حدث هذا؟!

- لقد ماتت في احتفال خاص يقام هذا الاحتفال كل فترة وتخرج منا أكثر امرأة مارست الفاحشة مع قومها وأمي قد فعلتها مع كل رجالنا ولم تترك منهم أحدا حتى أنها قد تخطت الخمسون ألف مرة وهو رقم لم تتخطاه إحداهن أبدا لذلك كانت هي من تستحق الخلود وشرف دخول جنة هارمونيا

يا لسذاجة هؤلاء القوم ويا لدهاء تلك الهارمونيا..

ربت عليها بلين وقال:

- وماذا ستفعلين الآن؟!
- لقد كنت عازمة على فعل أمر ما ولكني رأيتك ورأيت ما حدث لك وقررت أن أساعدك وأخبرك بما أخبرتك به لعلك تثأر لي ولك
- وما هو هذا الأمر؟!
- لا تهتم

برق في عقله سؤالا فجأة فقال:

- ألا تخشين أن تعرف هارمونيا بمساعدتك لي وتعيدك لبيت التربية

قالت بأعين لمعتا بالدمع والخوف:

- وهل تُعذب الجثة في بيت التربية؟
- ماذا تقصدين؟!

ابتسمت ابتسامة عذبة لم يرى في روعتها من قبل ثم عانقته عناقا طويلا غادر به الأرض وحلق في الفضاء ثم وبدون مقدمات ركضت من بين الأشجار بسرعة كبيرة و......

وقفزت بداخل البحيرة...

لقد عرف أخيرا ما الفعل الذي قررت أن تفعله بعد موت أمها.. إنه الانتحار...

****

شعر بهم وانقبض صدره بعنف، نعم فالصحراء لا تترك مجالا للهاجس ليحيا ولكنه لا يرى بالهاجس بل يمتلك بصيرة، ويرى بنور الخالق.. وهو الآن يشعر بهم يقتربوا، نهض من مجلسه للمرة الثانية هذا اليوم وهذا لم يكن ليحدث لولا أنه اضطر لهذا، فالمرة الأولى نهض ليودع

هذا الشاب، والآن ليراقبهم من بعيد، خرج من الغار وتوارى خلف تبة صغيرة وراح يراقبهم في وجل ولسان حاله يدعو بالنجاة لهذا الشاب..
اقترب الموكب الأسود من مكانه ثم راح يتقدم ويبتعد، يحملون تابوتا ناصع البياض، وأدرك الغريب على الفور ما تخطط له هارمونيا.. إنهم يطاردون الشاب ولن يتركوا له مجالا للنجاة، فلو أدركوه في المدينة سيقبضون عليه وسيخسر هو التحدي، فلينجيك مالك الملك وتخرج من المدينة قبل أن يدركوك ولا تمكث بها أكثر من ثلاث ليال..
ثم عاد لكهفه وأمسك حجرا صلبا وراح ينقش من جديد ويرسم أفاعٍ صغيرة بأوضاع مختلفة..

****

يدرك صعوبة المهمة، ويدرك أن الهلاك أقرب من النجاة ولكنها في النهاية ابنته والتي لم يكن ليتركها ولو مرت عشرات السنين، نعم لقد تفشت شائعة موته وصدقها الكل، وهذا كان من حسن حظه أن لم يتبين الحارس ممن قتله يومها فلم يكن هو بل كان رفيقه.. وعادت الذكرى تلف عقله من جديد..

ها هو يرى بعين الخيال ما حدث.. يركض بين الأشجار هو ورفيقه ومن خلفه بعض الجنود يطاردونهم في إصرار، الضباب كان ثقيلا في هذا اليوم.. وكان هذا من حسن حظه، التفوا من حول الأشجار، وراحوا يركضون في طرق متعرجة ليشتتوا الجنود، ولكن هذا السهم أبى أن يُشتت وشق الضباب ليستقر في ظهر رفيقه، شعر وقتها أن السهم قد أصاب قلبه لا ظهر رفيقه.. سحبه بكل قوته وتواروا خلف شجرة وإذ بالجنود يهتفون..
" لقد قتلنا حواس "
اندفعت الدماء في عروقه ونهض لهم ليخبرهم بأنهم لم يقتلوه وليتهم فعلوا.. نهض ليثأر لصديقه ولكن ما كان من الأخير سوى أن جذبه بوهن وقال:

- أقسمت عليك أن تدعهم يظنون هذا حتى تجد من الحرية ما يمكنك من أن تكمل مسيرتك
- ولكن.....

ولم يستطع أن يكملها فتابع صديقه وهو مع الموت في سكرات:

- أقسمت عليك أن ترحل وتصيح وأنت راحلا أنك ستثأر منهم لقتلهم حواس ويكأن أنت أنا

تجمد مكانه وهو يبكي فحثه صديقه للمضي ثم فاضت روحه لبارئها..
وما كان منه إلا أن يعمل بوصية صديقه فصاح من قلب الضباب..
" لقد قتلتم حواس يا ملاعين ولسوف نثأر منكم"
ثم استطاع الهرب، ليعود الجند بعد أن اشتد الضباب لدرجة جعلتهم يتخبطون كالعمي وهم فرحون يتسابقون ليبشروا هارمونيا بقتل حواس ونيل بعض الحظوة لديها...
أما هو فقد عاد ورافقته امرأة واحدة من قومه بعد أن رأته صدفة وهو يهم بالهرب.. وتزوجا واختبأ داخل كهف بعيد في بحر الظلمات..
ووصله خبر أن قومه بايعوا هارمونيا من جديد وأدرك أنه لو ظهر لهم سيقتلونه لا محالة أو سيسلمونه لهارمونيا، وظل يختبأ في كهفه لسنوات مع زوجته.. ولكنه أبدا لم يكن لينسى ابنته أو ينسى قضيته..
وراودته تلك الرؤيا وأدرك أن ابنته في خطر وكان لابد من ترك المعزل والعودة للأحداث مهما كلفه الأمر..
وها هو يقطع الغابة في نشاط وحزم بعد أن واراه الليل بظلماته ووارته أشجار الغابة بأغصانها.. حتى رفع رأسه للأعلى فرأى البدر مكتملا فقال:
" إن من خلق هذا الجمال لهو إله عظيم أعظم من هارمونيا ومن سواها وإن كنت تسمعني يا خالق هذا القمر فألهمني الصواب وانصرني كما نصرتك "

*****

ما كان منه أن يقف موقف الجبان الذي تؤثر فيه الأحداث ولا يؤثر هو فيها، وكان له رد فعل يحسد عليه إذ انطلق كالحصان الجامح وفي لحظات كان يغوص بجسده في قلب المياه ثم يضرب بذراعيه الماء بقوة نحو جسدها المعلق كما الشمعة في قلب المياه، وصل لمكانها فأمسكها بشدة وراح يسبح ناحية الحافة، قاومته كي يتركها ولكنه تشبث بها، وبما تبقت له من قوة وصل بها إلى الحافة وأخرجها من الماء..

سعلت بشدة وطردت رئتيها الكثير من المياه بينما هو سقط بجوارها يلهث بشدة وفي عينيه تلمع نظرات الغضب.. بعد دقائق هدأ الوضع فسحبها من يديها نحو مكان الأشجار وجلس جوارها دون أن يتفوه بكلمة واحدة..

- لماذا لم تتركني

قالتها بصوت متهدج يوشك على الانهيار

- لماذا تضحين بنفسك؟!!!!

تحولت نبرة صوتها للسخرية وأجابت:

- كنت أظنك أذكى من أن تسأل مثل هذا السؤال

نظر لها نظرة طويلة ثم عاد لصمته من جديد..

أما هي فقد ادخرت بعض دموعها لتلك اللحظات وراحت تنفقها في سخاء..

- مات أبي وذقت أنا الوانا وصنوفا من العذاب ثم ها هي أمي تموت فلمن أحيا بعد هذا

نظر بقوة في عينيها حتى خانته عيناه ولمعتا بالدمع وقال:

- لأجلي أنا

وهنا خارت قواها ولم تتفوه بكلمة وإنما تحدثت بلغة الأعين وظلت تنظر له وقد توقف عقلها واضطرب قلبها بشدة.. أما هو فقد تيقن أن مشاعره لم تستنزف بعد وأنها قد ساقته في طريق لا عودة منه.. بكت كل جوارحه لحالها وظل يتطلع في عينيها لما يقارب الساعة دون أن يهمس أحدهما..

في تلك الأثناء كانت الشمس قد اقتربت من المغيب وتلون الشفق باللون الذهبي وراح يغمرهما في حنان وكأنه أم تهدهد صغيرها..

- أخبرني ما الذي أشعر به فقلبي يتراقص

ابتسم لها في رفق وقال:

- يبدو أن الحياة تسخر مني وقد أوقعتني للمرة الثانية في شباك الحب مع من لا تناسبني

- وما هو الحب؟!

- إنه القوة الخفية التي تزورنا وقتما تشاء ولا تغادرنا أبدا مهما طال الزمان وإنما تتوارى في ركن قصي تنتظر أية فرصة لتجدد أحزانا في القلب قد طويت
- ....
- وأزيدك من الشعر بيتا فلقد سقطت اليوم ولا أدري لماذا تصر الحياة على السخرية مني
- وما المفترض أن يحدث بعد الحب
- قالها سيد ولد آدم من قبل " لا أرى للمتحابين غير النكاح " يعني الزواج
- وما هي هيئة الزواج في بلدكم فمظهرك يخبرني أنك من بلد بعيد
- ألم يتزوج أبويك ويظللهما الحب
- لقد كنت صغيرة وقتها وقد أخبرني أبي مرارا أنه يحب أمي ولكني لم أفقه هذا الشعور أبدا وحتى الزواج كان بالنسبة لي هو البناء الذي يعيش فيه الرجل والمرأة
- سأخبرك من خبرنا واسمعي يا ..... يا ملكتي

" علاقة أكرمها الله بالرحمة وظللها بالمودة فيصبح الطرفين فيها كيانا واحدا ونسيجا واحدا فيفرحان لفرح بعضهما ويحزنان لحزن بعضهما، يسندان بعضهما وقت الشدة ويتعاهدان على الحياة معا بحلوها ومرها.. برقتها وقسوتها.. يشبان معا ويهرمان معا.. يحيا كل منهم لأجل الآخر.. تسد هي احتياجاته ويسد هو احتياجها.. لا يفرق بينهما شيئًا سوى الموت.. وحتى لو فرق بين الجسدين فأرواحهما تتلاقى في ملكوت الله حتى يلتقيا في عالم آخر وفي حياة أخرى "

- أهذا هو الزواج حقا؟!
- بل وأكثر من هذا
- لم أكن أعرف سوى أن الزواج لمجرد الإنجاب ومحط للشهوات لذلك فقد أهانوا مكانته عندنا وقالوا إن أفعالنا هي أقدس وأشد حرية من التقيد بشخص واحد وأن يفعل كلٌ ما يشاء على هواه
- والله لهذا هو الجهل بعينه أتعرفين أن للجسد حرمة عظيمة عندنا

- كيف هذا؟!
- لكي ينال الرجل من المرأة ومن قلبها وجسدها ينبغي أن يحارب ويثبت أنه أهلا لهذا ويستحق أن يطأ هذا المكان المقدس فجسد المرأة عندنا مقدس محفوظ كما كنوز الأرض لا يستحقه إلا من يعاني ليتحصل عليه فيقر الرجل أمام الجميع بأنه يتمناها وأنه لن ينظر إلا لها وبأنه يرجو أن تكون رفيقته حتى الموت، أما هي فلها مطلق الحرية في أن توافق وتهب قلبها وجسدها له أو ترفض فلا يكون له سلطان عليها
- أنت تتحدث عن أساطير وقصص عجيبة
- لا بل أحدثك عن الزواج في ديني الحنيف
- ولكن إن كان الزواج هكذا فلماذا تركت أمي أبي وخانت مثل هذا العهد
- لأن الخطأ في شخص أمك وليس في الزواج نفسه فقد صان أبيك العهد ولكن أمك لم تفعل وهو عهد مقيد باثنين فلا يحفظ إلا بحفظ الطرفين له
- إذا فلماذا لا يفعل الناس هنا مثل هذا فالأمر هنا مثل السلع المجانية كلٌ يستعمل أي سلعة تقع في طريقه
- لا أدري حقيقة كيفية هؤلاء القوم
- إنه الهاجس بلا شك
- نعم إنه الهاج..........

وصارعه عقله من جديد ليسقط في جوفه ويفطن للكثير والكثير..

" هل أنا أتحدث بالحقيقة فعلا؟!

ماذا عن تلك الأماكن الملعونة والتي يتشبه فيها قومنا بهؤلاء، ماذا عن شواطئ العراة وبيوت العهر والفساد؟!

أليس هذا نموذج مصغر لما يحدث هنا؟!

وهل حقا يشعر هؤلاء بالمتعة بعد كل هذا التحرر؟!

والله لا يحدث هذا فإذا كُشف المستور فُقد الشغف، وأي رجل هذا الذي قد يشتهي امرأة يرى جسدها ظاهرا أمام عينيه كل لحظة، ماذا عن تلك القبائل البعيدة والتي لا يرتدون أية ملابس.. يقال أن الرجل يواقع المرأة مرة كل شهر، لقد زهدوا تلك البضائع الرخيصة السهلة، وماذا عن حال أصحاب شواطئ العري أتراهم يتلذذون فعلا بمثل هذا؟!

كلا والله لا يحدث فهناك يوهمون أنفسهم بالمتعة التي تفقد أي شغف لمثل هذا الأمر..
والله جمال مثل تلك العلاقة لا يزورنا إلا في الإطار الذي فرضه الخالق.. الزواج.. فالمرأة الكاشفة لجسدها هي امرأة بالية تظن آنها مرغوبة ولكنها لا تفتن سوى المرضى والمتوهمون، أما النفس النقية التي تحب أن تخرج شهوتها في إطار الحلال فلا تشتهي إلا ما بين أيديها.. المغطى.. المصون.. فرداء المرأة كغطاء الكنز لا يستشعر حلاوته إلا من كشف الغطاء بنفسه لا من كُشف له الغطاء وللعامة من تلقاء نفسه..
ولكن هناك أمرا آخر، كيف يشتهي هؤلاء الأقوام بعضهم بعضا وهم على هذا الحال؟!
كيف يجدون الشغف لفعل هذا؟!
كيف لا يرون قبح أجسادهم؟!
حتما هو الهاجس يفعل فعلته هنا.. يوهم العقول أنهم يتلذذون كما الخمر يسكر العقول أو هو أمر حتمي بنيت عليه مدينتهم.. فهو مجرد عمل يومي لا أكثر، عمل روتيني يفقد كل لذة وشغف بل لقد جلب لهم كل المهلكات لأرضهم من أمراض وغباء ودياسة واختلاف الأنساب..
ولكن هل هم مصيّرون في هذا؟!
حتما لا فالهاجس أضعف من هذا هو فقط يوهمهم بأنهم يتلذذون ويغفل عنهم قباحة الأمر لا أكثر..
وإلا فكيف يفعل أناس من قومنا مثل هذا ولا هاجس في أرضنا..
إذا فهو الكفر بعينه وعبادة الشهوات لا أكثر.. فالكفر أشد قوة من الهاجس.. فإن كانت المرأة محط شهوة الرجل وإن كانت تلك فطرة الله التي خلق عليها الناس فلابد أن هناك سبيل آمن لمثل هذا..
فالله لا يرضيه أن تسود الأمراض وتختلط الانساب في المجتمع وإلا ما حرم إتيان الحرام وفي أمر الزنا قال" لا تقربوا الزنا"
وهنا جعل له سبيلا بالزواج ولا سبيل آخر.. إذا فالمؤمن التقي يعرف هذا أما من يفعل مثل هذا الأمر فهو إما..
كافرا..
أو من عباد الشهوات..
" أحمد"

" أحمد "

أفاق من شروده ونظر لها نظرة غريبة وقال لها:

- الهاجس أضعف مما كنا نتوقع يا نوران فهو لا يعدو كونه سحرا يسحر الأعين ويشكل الأشياء فقط أو هو مجرد وهم كبير صدقه الكل وآمنوا به وعبدوه كما عبدوا هارمونيا وكما عبدوا شهوة الجنس
- كيف تفطن لمثل تلك الأمور؟!
- أنا نفسي أتعجب من سرعة إدراكي تلك وتحليلي للأمور

****

الغريب

نعم أعرف أنك حائرا في أمرك ولكني سأدعو لك لترى بنور مالك المُلك..

ثم وضع يده على رأسه وقال

" يا مالك الملك بيدك النور وأنت النور فاجعل هذا العبد يرى بنورك ويسمع بنورك ويفطن لحقيقة الأمور بنورك "

ولم يتذكر أحمد وقتها سوى تلك الكلمات

" الله نور السماوات والأرض "

****

الظلام قد خرج من مكمنه متكاسلا يرجو الشمس أن تتركه لينام قليلا ولكنها ما لبثت أن نهرته وغابت ليستيقظ هو مرغما ويصول ويجول في المكان، أما هو فقد كان يسره هذا بشدة.. ولكن ما يخشاه أنه لم يضع أي خطة، اللهم سوى بعض الارتجال.. سيعبر الغابة وينتظر حلول ليلة جديدة ليتسلل داخل مدينة الخطايا ويبحث عن ابنته في البيت الذي يحاول تذكر مكانه بشدة ثم ما يلبث أن يعود إن لم يجدها وينتظر حلول ليلة أخرى.. خطة فاشلة ولكنها الوحيدة..

سار بخطوات سريعة خفيفة لا تسمع منها وطأة بين الأشجار، وبينما هو على هذا إذ به يتعثر ويسقط داخل حفرة عميقة لم يكد يراها، ولم

يتوقف الأمر عند هذا بل التف عليه حبلا من أسفل قدميه وفجأة وجد نفسه يحلق في الفراغ ثم يعلق بين السماء والأرض بوضع مقلوب وقدميه مقيدة بقوة.. حاول الفكاك من مصيره ولكن دون جدوى.. حاول ثني جذعه والوصول لقدميه ولكن الوضع كان أقرب للمستحيل.. ومن قلب ظلام الغابة برزت أعين حمراء تنظر من قلب نيران ملتهبة إليه.. أصابه الخوف وظل يحاول التحرر بعصبية ولكن دون جدوى.. ثم خرجوا عليه، أقزاما يحملون المشاعل والفؤوس بين أيديهم.. قصار القامة عراة الجزع وجوههم كأنها صحون طعام..

التفوا من حوله وتحدث أحدهم بصوت ناعم وكأنه صوت امرأة..

" انظروا من وقع في الفخ"

فقال أخر:

" يا للحظ السيء لقد ظننت أننا قد اصطدنا حيوانا يصلح للطعام"

وقال ثالث:

" ولكن ما الذي جاء بسكان البحر لغابتنا ألم تحرم هارمونيا هذا؟! "

وقال رابع:

" أنت إذا من هؤلاء القوم الذين يتفوقون علينا كل مرة وينصرهم الهاجس علينا، انظروا لجسده المفتول وانظروا لأجسادنا الهرمة، لا تتركوه حيا فلنقتله لنحرر بعض غيظنا منهم"

فانفعل الكل لكلماته وأصبحوا يرددون كلمات على شاكلة..

" نعم نقتله"

" اسلخوه حيا"

" أضربوه بفؤوسكم "

وهنا رفع أحدهم كفه في الهواء فصمت الجمع مهابة له فعلى ما يبدو أنه كان كبيرهم فقال بهدوء:

- ما الذي جاء بك إلى غابتنا
- لقد ضللت طريقي أرجو أن تحلوا وثاقي وسأرحل على الفور
- لك ذلك

فصاح أحدهم غضبانا:

- أستتركه يرحل هكذا بكل بساطة

فصفعه كبيرهم على وجهه بعنف وقال غاضبا:

- أنا من يقرر هنا

تحدث حواس مسرورا وقال:
- أشكرك بشدة
- حلوا وثاقه
ثم التفت وسار قليلا ثم نظر لحواس وقال:
- ولكن هناك مشكلة
- وما هي أيها الرجل الكريم
_ هؤلاء القوم جوعى ولم أجد ما يسد رمقهم فما رأيك لو طهوناك ليأكلك هؤلاء الرجال
وهنا أنفجر الجميع ضاحكا مسرورا فقد أدركوا أن كبيرهم كان يتلاعب بالأسير وأنه لن يتركه أبدا..
وارتج القزم الذي صُفع منذ قليل من فرط السعادة حتى كاد ينفجر وقال:
- سآكل عضلاته المفتولة تلك بأسناني الحادة
وظل يجز على أسنانه كالمعتوه..
فقال كبيرهم:
- قيدوه بقوة وسوقوه نحو الشجرة الأم وقيدوه بإحكام هناك حتى أقضي في أمره..
وأدرك حواس أن مهمته قد فشلت قبل حتى أن تبدأ وأن الموت يسخر منه في تلك اللحظات...
******

- وماذا ستفعل الآن؟!
قالتها نوران وبصمة الخوف قد وضعت على كل حرف
- أريد أن اطمأن عليك أولا وبعدها سأجد سبيل
- أقسمت عليك بهارمونيا أن تخبرني
أحمر وجهه غضبا وصاح فيها:
- ومن تلك الملعونة لتقسمين بها علي
توترت بشدة وقال:
- أعتذر منك فقد اعتدنا على القسم بها فعلمني ما أقول
- نحن نقسم بالله
- حسنا أقسمت عليك بالله أن تخبرني
هدأ قليلا واعتذر لها عن انفعاله وقال:

- الليل قد جاء وانتهى يومي الأول هنا سأبيت مكاني وسأحاول أن اتخفى غدا وبعد غد سأرحل فإقامتي هنا ثلاثة أيام فقط
- ولكن برداءك هذا فأنت ملفت لكل الأنظار وصدقني لن تتركك النسوة قبل أن يتحصلن عليك وأكاد أجزم أنهن قد وضعوا رهانا عليك الآن وأن كل منهن تبحث عنك لتكسب الرهان
- وماذا عساي أن أفعل؟
- انزع عنك رداءك وكن مثلهم فلا تلتفت لك الأنظار
- والله لا أفعل مثل هذا ولو كان فيه هلاكي
- حسنا هناك حل آخر ولكن........
- ما بك؟!
- أخشى عليك بشدة والله الذي تقسم به لو اقتضى الأمر لفديتك بروحي

اضطرب قلبه ثانية ونظر في عينيها ودون وعي منه قال لها:

- أحبك

لم تقال لها مثل تلك الكلمة من قبل ولكنهن النساء في كل مكان وزمان، فما لبثت أن شعرت أنها تطير حتى النجوم وأن السعادة تضرب قلبها الذي كان يرفرف بجناحيه.. اندفعت الدماء في وجهها لتحمر وجنتيها فتزداد جمالا وتشع بريقا..

نظرت أرضا بعدها ولم تنطق.. أما هو فقد تعجب من حاله، أهو يمثل على تلك الفتاة أم ماذا؟!

كيف أحبها بتلك السرعة؟!

ولكن ماذا عن خفقان قلبه وبشاشة روحه، أهم يكذبان أيضا؟!

تحرر بصعوبة من تلك اللحظات الآسرة للأرواح وقال:

- أخبريني يا ..... يا نوران أرجوك
- فقط الحراس هم من يسيرون بيننا بردائهم

برقت عينيه وأدرك مغزاها.. ثم التفت لها وقال:

- والان ارحلي حتى لا يراك أحدهم وينالك السوء فيتأذى قلبي

نظرت في عينيه وقالت:

- والله لا أتركك أبدا سأذهب معك

- خطأ يا نوران فلن أخاطر بك في رحلة لا أعرف هل سأعود منها أم لا
- حتى لو متنا فلنموت معا

وضع يده على كتفها وقال بحزن:

- الأمر ليس بتلك البساطة أتحسبين أنني قد أرضى لك السوء
- ألم تقل إنك تحبني منذ لحظات
- نعم فعلت
- إذا فخذ حبيبتك معك
- وماذا بعد أن تذهبين معي كيف تظنين بنهاية المطاف؟!
- نتزوج

ارتجف قلبه وجسده ولم يجيب فتابعت:

- ألم تقل إن المتحابين يتزوجون
- ليت الأمر بتلك البساطة
- بل هو بتلك البساطة ثم ماذا تظن لو أنك تركتني
- ....
- سأبقى على حالي مع قومي أتحب هذا لي

دمعت عينيه وقال:

- كلا والله
- حسنا أتحب الموت لي بعيدا عنك فبالله لو تركتني فسأفعلها
- أبدا
- حسنا فلنحيا معا أو نموت معا
- ولكن بشرط
- هات ما عندك
- تقابليني بعد يومين خارج أسوار المدينة
- لا لن أتركك
- بلا ستفعلين فماذا لو شاهدك أحدهم معي وأخبر هارمونيا؟!ماذا لو قبض علي؟!
- حسنا لأجلك أوافق ولكن اسمع مني
- نعم
- ستسير في طريق مستقيم حتى البوابة الخلفية للمدينة والتي تطل على الغابة واعلم أن الحراس لن يخرجوك منها حتى تتم

يومك الثالث، أما أنا فسأجد طريقة للهرب فمدينتنا ليست بحصينة أبدا ويمكن الهرب منها بسهولة

- ولماذا لا نهرب معا؟!
- لأنك وببساطة في تحدي مع هارمونيا وإن غادرت قبل موعدك ومن مكان غير البوابة فستعرف هارمونيا ووقتها ستكون خسرت تحديك وستقتلك
- نعم أنت على صواب
- سيحميك من تسميه بالله فأنا أشعر بهذا
- سيفعل يا حبيبتي
- سأراك ثانية أنا على يقين بهذا
- سيحدث

اقتربت منه وتحسست وجهه بأناملها ثم نظرت في عينيه بقوة وقالت:

- أحبك

ثم ركضت مبتعدة وهي تنزع الجلباب عنها حتى لا تلفت الأنظار، نظر لها وهي عارية بحزن وقال في نفسه..

" أقسم أن يتوارى جسدك هذا خلف الرداء ولن يجرؤ أحدهم على رؤيتك هكذا عما قريب "

ثم التقط الرداء ليرتديه من جديد ويرحل ليتم أمره..

*****

السكون يعم أرجاء المكان اللهم إلا من نعيق بعض الغربان التي تظهر كل دقائق، تسلل من بين الأشجار وراح يحث الخطى نحو أحد الشوارع ليسير ناحية الجانب الآخر من المدينة، وبينما هو يسير إذ به يسمع صوت تأوهات عنيفة، ويكأن أحدهم يحترق حيا.. اقترب من مصدر الصوت فوجد نفسه يقف أمام أحد المنازل، التف حول المنزل ومن خلال الشرفة تطلع بصمت لما يحدث..

كانت امرأة مستلقية على ظهرها وتحمل بين يديها أداة حادة تشبه الشوكة وتخدش بها جسدها بكل عنف، كانت الدماء تسيل من كل مكان وهي تتأوه وتزيد في الخدوش العميقة.. لم يكد يرى سوى امرأة بيضاء جميلة ولكن ما إن أغلق عينيه واستشعر روحه كما علمه الغريب رأى.. رأى أكياس جلدية سوداء منتفخة في كل مكان من جسدها.. رأى

جسدا بشعا يشبه أجساد الوحوش في تكوينه.. كانت تمزق بالشوكة تلك الأكياس السوداء فتسيل فوق جسدها مادة خضراء اللون.. تماسك حتى لا ينهار من قباحة ما يرى لحظات وانتفض جسدها مرات ومرات ثم سكن تمامًا وسكنت في عينيها نظرة تخطت نظرات الفزع بمراحل. وإذ بامرأة أخرى عارية تدلف للغرفة وتقترب من الجثة وتقول:

" مرحى فغدا تكونين في جنة هارمونيا "

ركض مبتعدا وهو ينازع كي ينسى ما رآه.. حقا فليس بعد الكفر ذنب فمن يعبدون امرأة حتما سيصدقون أنها ستهب لهم الجنان بأبوابها الثمانية.. لقد تفشت بينهم أمراض فتاكة بسبب أفعالهم يظهر مرض الإيدز بجوارها وكأنه بعض السعال.. رحماك يا الله..

انطلق متواريا بالمنازل حتى سمع صوت أقدام فاختبأ سريعا خلف جدار ونظر فإذ به أحد الحراس.. كان يحمل بين يديه فتاة صغيرة وعلى وجهه ابتسامة شيطان.. كانت فاقدة الوعي على ما يبدو.. راقبه أحمد في اهتمام وسار خلفه متخفيا حتى انتهى الحارس لما خلف شجرة فوضع جسد الفتاة على الأرض وظل يرمقها في تلذذ..

اقترب منه أحمد وتوارى خلف جدار صغير وأخذ يتابعه فإذ بالحارس يقول:

" كم أعشق إتيان الجثث "

يا للكارثة تلك الفتاة قد فارقت الحياة.. ومع هذا الحارس يمني نفسه بانتهاك جسدها..

أيعقل هذا؟!

ولكن ولما لا؟!

فالأفكار الشاذة لا تولد إلا في مثل مجتمعات التحرر والمجون، فهذا رجل قد مل من إتيان النساء فما كان منه إلا أن اتجه للموتى لعله يجد المتعة التي فقدها.. وها هو يحاول أن يجدها في جسد فتاة لم تبلغ الحلم بعد.. دقق النظر فإذ بالفتاة وقد التف حول عنقها حبلا رفيعا.. لم يحتاج كثيرا ليعرف أن الحارس هو من قتلها فقط ليأخذ منها متعته التي لن يجدها..

وتأججت نيران الغضب بداخله وقال:

" فليكن جزاءك من جنس عملك "

نزع أحمد الحبل الذي كان معلقا حول خصره وعقده من طرفيه واقترب في هدوء شديد.. أما الحارس فكان في واد آخر.. فقد نزع ردائه واستلقى فوق الفتاة وبدأ في تقبيل جسدها وهو مبتسما.. منتشيا.. سعيدا

و..........

وانتفض جسده بعنف حينما التف من حول عنقه حبلا غليظا وراح يعصر عنقه عصرا.. أما أحمد فقد كان ينبض بالغضب وهو يجذب طرفي الحبل بكل قوته.. تشنج الحارس وراح يضرب بذراعيه في الفراغ لعله ينجو.. انتفخت عيناه واشتد احمرار وجهه ثم همدت حركته تمامًا وتراخى جسده.. تركه أحمد وهو يلهث بشدة ثم خلع عنه ردائه وارتدى رداء الحارس ولم يكد يذهب حتى نظر للفتاة الصغيرة بحزن ودفعها برفق حتى استقرت فوق ردائه ثم لفها فيه وحملها ثم حفر حفرة صغيرة أسفل الشجرة ووضعها بكل رفق ثم ردمها باكيا.. آسفا ولسان حاله يقول:

" رحم الله روحك "

ثم عاد للحارس وأدرك أنه يجب أن يخفي جسده فهو سيظل هنا يومين كاملين ولو عرفوا بمقتل الحارس لاتجهت الشكوك نحوه.. ولكن كيف سيدفن مثل تلك الجثة والأرض شبه صلبة.. لقد عانى لدفن جسد فتاة صغيرة فماذا بالحارس؟!

حسنا لنفعلها.. حمل سيف الحارس ثم هوى به على عنقه ففصل رأسه عن جسده ثم حمل السيف ورأس الحارس وانطلق سريعا في طريقه...

****

خرجت الشمس من مخبئها وراحت تلقي بأشعتها نحو المدينة وهي مضطرة ولسان حالها يقول:

" لو كان الأمر بيدي لأحرقتهم أو منعت عنهم ضوئي "

وخرجت نوران بعد ليلة لم تذق فيها طعم النوم بسبب هذا الملاك الذي يدعى أحمد.. تتساءل هي بكثرة..

أهذا هو الحب الذي أخبرها به والدها؟!

وإن كان بمثل تلك الحلاوة فلما زهدت أمي فيه وعادت لما نفعله هنا؟!

تريد أن تتفقد أحوال المدينة وهي ترجو أن يصمد أحمد ليومين من ثم يستطع الخروج ووقتها ستفديه بروحها..

القلق ينهش جسدها كما الحب.. القلق من فقدانه أو اصابته بضرر ولو بسيط.. يا من يقول عنك بأنك " الله " نجيه مما هو فيه..
سارت في المدينة ترمق كل ما حولها بمقت شديد.. المنازل.. الناس.. كل شيء.. وعلى مد بصرها كان هناك تجمع للكثيرين..
حثت الخطى نحوهم وقد بلغ القلق منها مبلغه فإذ بها ترى جثة منزوعة الرأس ملقاة على الطريق والناس من حولها يتساءلون يا ترى لمن هذا الجسد.. ومن قد يفعل هذا؟!
لم يدرك أحدهم جثة من ولكنها أدركت وابتسمت بفرح.. إنها جثة لحارس من الحراس دون أدنى شك فزراعيه قويان يوحيان بهذا.. أما من فعل هذا فهو أميرها الذي جاء من بلاد الأساطير.. إنه هذا الذي سرق قلبها وعقلها.. وبينما هي في صندوق أفكارها إذ نزعتها يد منه وسحبتها من وسط الجمع.. كان شابا يبتسم ويجذبها نحوه ليفعل مثلما يفعل الناس.. أدركت أنها لو دفعته أو هربت فسيجذب هذا انتباه الكل وهذه جريمة كبيرة عندهم.. فهنا لا تمتنع امرأة أبدا عن دعوة رجل..
فلتكن الحيلة إذا.. دفعته عنها برفق ثم همست له:

- لقد أحبك الحظ اليوم
- لما؟!
- أنا لا يطلبني سوى الأثرياء هنا ألا تعرفني
- بلا أعرفك أنت نوران ذات الأغنيات الجميلة ولكنك لن تمتنعين عني أليس كذلك؟!
- لا تقلق ولكن سأخبرك بأمر
- وما هو؟!
- هنا لا يكترث احدا لجرائم السرقة وقد طلبني اليوم رجلا من أثرياء المدينة فتعال معي لنسرقه ولو ساعدتني فستحصل على ثروة لم تكن لتحلم بها

ما أجمل أن تخاطب في الناس جشعهم فتلك طريقة ناجحة جدا فما إن قالتها حتى ارتعشت يد الرجل وازدرد لعابه في صعوبة وقال:

- أحقا ما تقولين
- نعم ولكن بشرط
- ما هو؟!

- الخطة لم تكتمل بعد وأحتاج ليومين كاملين لذا كن معي كلما خرجت فلن يقترب مني أحدهم طالما أنت معي فأنت مثل زوجي حسب تقاليد المدينة ولن يقربني أحد إلا حينما تبتعد.. وأنا إن فعلتها مع أحدهم فسأفقد تركيزي ولن أضع خطة جيدة لذلك كن معي حتى لا يقربني أحد طوال اليومين.. وأعدك أنك ستحصل على المال وعلى جسدي كله بعدها

أومأ الرجل برأسه أن نعم واصطحبها حيث منزلها وهو يمني نفسه بثروة كبيرة.. أما هي فابتسمت بخبث ولسان حالها يردد..

" طالما أنني أحببتك فلن يمسني أحد سواك يا أحمد "

ثم التفتت للخلف حيث الجثة واتسعت ابتسامتها وقالت:

" امض في طريقك يا بطل "

******

كان يحدق به في تلذذ وهو يجز على أسنانه تارة ويخرج لسانه تارة أخرى.. ثم اقترب منه واخذ يلعق جلده وهو في غاية الاستمتاع.. أفاق المقيد في الشجرة من غفوته وأصابه الغثيان مما يفعله هذا القزم بجسده وصاح به:

- ابتعد أيها المقزز

آثار ته كلمة المقزز تلك وكأنه يثني عليه فراح يعض ذراع حواس بعنف ويلعق الدماء من مكان الجرح وحواس يردد متألما..

" ابتعد يا قذر "

وكانت الكلمة أشد وقعة عليه فأمسك كفه المقيدة وعض اصبعه فقطعه وراح يلوكه باستمتاع وحواس لا يتوقف عن الصراخ.. ولكن القزم لم يتوقف بل أمسك كفه ليلتهم آخر وفجأة شق حجرا متوسط الحجم الفراغ وارتطم برأس القزم فأسقطه أرضا..

نهض غاضبا والدماء تسيل من رأسه يتطلع للمكان الذي قذف منه الحجر فإذ بقزم آخر يقف أمامه متحديا..

هتف الأول بغضب:

- يا عاهر أتجرؤ على ضرب أحد أفراد الشواشنة

ثم أنطلق نحوه والتحم الاثنان في صراع مميت وحواس يتابعهم في قلق شديد.. تجمع الأقزام من كل حدب وصوب يحاولون فض الشباك ولكن دون جدوى..

وهنا رفع القزم الأول حجرا وهوى به على رأس الثاني مرة واثنين فاندفعت نافورة دماء من رأسه فصرخ متألما ونادى على قومه..
" يا براقع النجدة يا قوم "
وهنا بدأ الصراع بين البراقع والشواشنة وكانوا يختلفون قليلا في مظهرهم فالبراقع يرتدون ملابس مزركشة وهم أكثر طولا من الشواشنة.. وبدأوا يكيلون اللكمات والركلات لبعضهم البعض..
وسقطت الأجساد وسالت الدماء واشتد الصراع حتى ارتفع في الفراغ صوت بوق يشبه صوت البومة فتوقف الكل وتسمر في مكانه.. وهنا خرج من بين الأشجار رجلا يضع تاجا على رأسه ونظر لهم في غضب شديد..

توسطهم وأمرهم بالجلوس ثم تحدث:

- أين المتخاصمون؟!

فاقترب منه القزمان كل يضع يده على رأسه ليمنع تدفق الدماء..

- ما الأمر

تحدث القزم الثاني وقال:

- لقد رأيته يأكل إصبع الضحية ويفسدها ونحن لا نحب إلا أن نأكل ضحيتنا سليمة كما أنه فعل هذا أمام الشجرة الأم وهذا محرما..

نظر له الملك وقال:

- أحقا فعلت هذا
- نعم ولكني لم أقصد شيئًا من هذا
- أما أنت فأفسدت الضحية ومن ثم أهنت الشجرة الأم وليحرم لحمه على كل الشواشنة

ارتفعت اصوات السخط والاعتراض من الحضور ولكنه لم يبالي ورحل عنهم وتلاقت نظرات الغضب من الشواشنة مع نظرات الفرح من البراقع.. بينما نظرات حواس كانت تنبض بالخوف..

*****

نهض من نومه بعدما أزعجته الشمس الحارقة.. فرك عينيه بوهن شديد وتحامل على نفسه وأخذ يفكر من جديد.. إنه الآن يرتدي زي الحراس ولكن هذا لا يعني أنه آمن فلا ينبغي له أن يصادف حارسا أو أن يراه أحدا من قريب.. كان الجوع قد بلغ منه مبلغه فلم يأكل طعاما منذ يومين.. أخرج تمرة من العشر تمرات التي أعطاهم إياه الغريب ووضعها في فمه ثم أخرج زجاجة صغيرة من الصوف أو شيء يشبهه وتجرع منها جرعة ثم وضعهم حول خصره ثانية..

الآن قد بدأ يومه الثاني.. نظر إلى السماء بابتسامة واهنة وقال:
" اللهم إن كانت السماء بعيدة فأنت أقرب من حبل الوريد.. اللهم فإنك في غنى عن دعواتي فأقض بما أنت أهله وأنا راضٍ به أينما كان "

ومن وسط الأشجار خرج كمن هدأت روحه بعد عناء وسار بخطى واثقة متأنية على الطريق ليكمل المسير.. وخرج القوم من جديد ليفعلوا عاداتهم اليومية.. وقرع إنذار الخوف في قلبه من أن يفتتن بهؤلاء العاريات وأغمض عينيه من جديد واستحضر روحه النقية.. استحضر روحا لم تخلق من التراب بل جاءت من النور الإلهي ذاته.. وانطفأ بريق الشهوة في عينيه وتبدل بنور رباني وسار يرى بهذا النور.. كان الطريق على حاله.. البيوت تتراص بنظام على الجانبين والطريق في المنتصف مستقيما.. وقد خرج القوم ليمارسوا كل أنواع المجون كما العادة.. ولكن الأمر لم يكن له بتلك البساطة.. فلم يكن يرى أناسا، بل كان يرى وحوشا تفعل مثلما يفعل البشر..
رأى امرأة قبيحة قد تورم جسدها بأكمله وهي تعانق رجلا قد انتشرت البثور على نصف جسده السفلي فأصبح كوحش مخيف.. شرد ببصره يتأمل عيني الرجل ولأول مرة رأى فيهما الألم الشديد.. لم يرى أية لذة تذكر، الرجل يتألم حقا.. عيناه مخيفتان حقا ولكنهما يصرخان من الألم والرعب.. مزيج مخيف يجعل قلبك يرتجف بين جنباته.. وفوق رؤوسهم كان الهاجس يدور كما الدوامة الصغيرة.. وفي الأجواء يهرولون كما هم.. تلك الشياطين البشعة.. ينالون من كل امرأة أكثر مما ينال رجلها..

وارتفعت أصواتهم تصدح في الأفاق، لم تكن أصوات لذة أو شهوة.. بل كانت أصوات ألم، أصوات قد فاقت أنين الموتى وصراخ المعذبين..
هؤلاء القوم لا يستمتعون بتاتا بهذا الأمر.. هكذا أيقن.. حتى رؤياهم هكذا لا تثير داخله سوى شعور النفور من الزنا..
لم يبغض الزنا في حياته مثلما فعل الآن.. وهناك على مد البصر كان هناك جمع غفير يصيحون بأصوات عالية.. تقدم منهم بهدوء حتى لا يثير الريبة فرأى بساط أحمر يقف عليه خمسة من الرجال العراة ومن حولهم يقف الجمع على هيئة دائرة وهم يصيحون بحماس.. إنها مسابقة من نوع ما حتما..
كانت الحضور ينظر لهم بفخر وكأنهم على وشك مغادرة كوكب الأرض للبحث عن كوكب آخر للحياة.. وهل الأرض أصلا كوكبا؟!!
دعنا من هذا الأمر حاليا فلنا حديث طويل بشأنه..
وانطلقت صافرة من فم أحدهم.. اصطف الرجال بجوار بعضهم ثم جلسوا القرفصاء وبدأوا في ...
واتسعت عينيه من قوة المفاجأة.. لقد كانوا...
كانوا.....
تماسك يا قارئي العزيز..
لقد كانوا يتغوطون..
نعم هذا ما كان يحدث.. مسابقة في التغوط بسرعة.. ودارت الدنيا من حوله وكاد يفقد اتزانه ولكنه تماسك في اللحظة الأخيرة.. وارتفعت الصيحات المشجعة من الحضور.. وصفق الجمع محمسا الرجال ليدفعوا فضلاتهم بقوة أكبر.. تمسك بسيفه كي يستمد منه أي شعور آدمي قبل أن يسقط من فظاعة ما يرى.. وبعد دقيقة نهض أربعة منهم رافعين أيديهم بفخر واعتزاز بعد أن تخلص كل من فضلاته الغالية..
لعنكم الله أيها الأنعام..
وهناك الخامس كان يجلس مهموما ونظرات الخيبة تصوب نحوه ممزوجة بصيحات الاستهجان.. ثم ...
ثم.....
تقدم الرجال الأربعة وحمل كل منهم فضلاته بين يديه ثم قذفها نحو الرجل الخامس ليتلطخ وجهه وجسده بها وسط سعادة الجمع الغفير وصيحاتهم التي تنعته بالفشل..

أي فشل هنا يا أوغاد؟!
أليس من المحتمل أنه يعاني من إمساكا حادا.. ابتسم جراء هذا الهاجس.. واتسعت ابتسامته لأنه شعر ببعض الجنون هنا..
ولكن عقله أبى أن يصدق ما رأت عيناه..
كيف هذا؟!!
الأمر فاق حدود قدراته على الاستيعاب.. حتى الكلاب تردم فضلاتها بالتراب بعد أن تنتهي.. لقد فاق الإنسان بفعله أفعال الدواب..
إذا فالله لم يكن يأمرنا فقط بالتستر لأنه يريد هذا فقط.. بل ليمنع عقولنا من الفكر الشاذ.. ولكن أي عقول تلك التي تتواجد في رؤوس هؤلاء؟!!
مضى في طريقه وهو يقاوم رغبة ملحة في القيء.. ومن خلفه كانت هاتين المرأتين يهمسن ويشيرون نحوه ثم يضحكن بصوتٍ خفيض.. لقد تراهنت المرأتين على هذا الحارس الذي لم يكن سوى أحمد..

****

لاحت جثة الحارس المنزوعة الرأس لها في تلك الكرة الشفافة فتحول وجهها لأتون من اللهب.. إنه أحد حراسها بلا شك.. والأقرب أنه من فعلها.. هذا الشاب القادم من عالم آخر.. هي على يقين بهذا.. ولكن أتقتله الآن؟!
ولكن إن فعلت قبل أن ينتهي التحدي فسوف ترتفع شعبية الشاب وقد ينهار ملكها كله.. كيف كانت واثقة في الهاجس إلى تلك الدرجة؟!!
لقد مضى اليوم الأول والشاب لم يمس امرأة ولو صدفة.. حتى انها لا تستطيع رؤيته أبدا الآن.. وكأن الأرض قد انشقت وابتلعته..
قامت من مجلسها وفتحت صندوق صغير فخرج منه ضبابا فاحما أسود اللون.. كان هذا هو الهاجس الأسود.. أسوأ هاجس قد تواجد يوما على أرضها.. حررته لكي يبحث عن الشاب ويصيب أقرب امرأة له لكي تراوده من جديد لعله يسقط بين يديها..
ولكن ماذا لو نجى؟!
لازالت الغابة تعج بالأسرار والسحر والشهوات.. وما بحر الظلمات ببعيد.. وحتى لو نجى فلن ينجو من سحرها هي.. فأنا الفاتنة التي يتساقط الرجال ليقبلن قدميها.. شعرت بآثار غريبة ونادتها غريزتها القذرة فنادت على الحارس.. وبعد قليل دلف رجل من خلف الحارس

بهي الطلعة حسن المظهر وكأنه كوكب دري.. نظرت له بأعين تتأجج بالشهوة فانحنى بين يديها خوفا منها..
ولكنها لم تتماسك وهجمت عليه تلثم جسده وهو لا يجرؤ على النظر إليها.. وأسقطته أرضا لتطفئ نيران شهوتها ويستكين جسدها قليلا.. ثم...
ثم أمسكت بخنجر ملتو وقطعت ذكورته لينتفض الرجل عدة مرات بعنف شديد ولكنها لم تمهله ونحرته نحرا وهي تلثمه بقوة من شفتيه ثم نهضت من فوقه ليدلف الحارس في خشوع ويحمل الجسد الممزق ويخرج بهدوء شديد..
لم تنتهي من شهوتها بعد وشعرت أنه لن يطفئها سواه..
هذا الشاب الذي شعرت ولأول مرة أنه يستحق كلمة رجل...
هذا الذي يدعى أحمد

******

هل تراهم؟!!
فتاتين تسيران بخفة خلف هذا الحارس.. نعم لقد تراهنّ عليه دون علمه.. ولكن حاول أن تدقق النظر قليلا.. أترى ما يدور حول رؤوسهن.. نعم ضبابا أسودا.. أتعرف ما معنى هذا؟!!
نعم لقد سيطر عليهن أقوى أنواع الهاجس فجعلهن كحوريات من الجنان في أعين العامة.. وجعل شغلهن الشاغل هو الظفر بهذا الحارس.. نعم لقد تعرف الهاجس عليه وأصاب أقرب فتاتين منه.. وقد برع الهاجس في اختياره فقد اختار فتاتين مراهقتين فلم يتمكن المرض منهما فأصبحن مثيرتين لدرجة تفوق الوصف..

وسمع من خلفه صوت رقيق.. ملائكي.. عذبا.. كان يطلب منه أن ينتظر.. التفت خلفه فرأى أجمل فتاتين في هذا الكون.. هكذا كان حالهم.. بأجسادهن الصارخة بالانوثة ووجوههن النابضة بالسحر.. وارتعشت فرائصه كلها وفقد السيطرة على جسده الذي استرخى على بعضه وكادت قدماه أن تتهاوى.. اقتربن منه في دلال وهن يهمسن ويبتسمن..

سحبته إحداهن نحو أحد المنازل وحاصرته بجوار أحد الحوائط.. أما هو فقد اشتعل جسده بالرغبة وبرقت عينيه ببريق الشهوة.. وفي محاولة أخيرة من روحه سمع همسا يقول: " اهرب "
ولكنه كان أضعف من هذا وأحاطت خصره بذراعيها ونظرت في عينيه فشعر بإرادته تذوب وتهرب بعيدا في أعماق الأرض.. ومن خلفه أحاطت به الأخرى ليقع بين فكي المصيدة.. واشتعل الهاجس فوق رؤوسهن وأصبح كأتون من النيران السوداء.. وطفت شهوته على جسده وعقله وفاضت به.. وأحاطت كفيه بين أصابعها ورفع هو كفه الأخرى التي راحت ترتجف بعنف فتشبث بردائه لكي يتزن فإذ به يصرخ من الألم ويرتد للخلف بعنف.. نظر إلى إبهامه فرآها مغروزة فيه ويخرج طرفها من الجانب الأخر..

******

- ستساعدك هذه
- وما هذه

كلما أغوتك امرأة قم بوخز نفسك بها فسيتحرر جسدك وقتها من شهوته وستبصر بروحك ما سيجعلك تنتصر كان أبي يخبرني بهذا دائما إن كبحت اندفاع جسدك بأي وسيلة وتركت لروحك العنان فسوف تفعل الصواب

******

شعر بتنميل يغزو كفه المصابة وبالألم يغزو جسده.. تأوه بشدة وحاول أن يجذب الأداة من إبهامه ولكنه صرخ حينما أحس بأن كفه قد أصابها الشلل.. اقتربت إحداهن لتساعده فركلها بقدمه في بطنها بكل قوته فسقطت أرضا متألمة، وما كان منه سوى أن ركض بأقصى ما يستطيع ليتوارى عن الأعين التي راحت تراقبه في فضول وتعجب..
تناثر الدمع من مقلتيه وهو يهرول باكيا، لا يدري إلى أين؟!
أصابه ذهول شديد.. لقد كان قاب قوسين أو أدنى من السقوط في الفاحشة.. كادت حياته أن تنتهي منذ لحظات.. توقف خلف أحد المنازل وتوارى عن الأعين ثم حاول من جديد أن ينزع الأداة من إبهامه.. وبكل ما يملك من قوة اقترب بكفه الأخرى وقبض على طرفها ثم أغمض عينيه ونزعها بعنف ليصيح ويرتجف وكأنه قد نزع سيفا من

أحشائه.. تقطرت الدماء من إبهامه فنظر لها بأعين توشك على الفيضان بالدموع.. مزق قطعة من نبتة مجاورة غريبة الشكل وقام بتضميد إصبعه ثم تهاوى أرضا وقد أصابته الحيرة في مقتل..

كيف حدث هذا؟!!

لماذا لم يستطع استحضار روحه كما العادة؟!

ما الذي أصابه؟!!

راودته فكرة أنه كاد أن يهز عرش الرحمن بفعلته فانفجر بركان من الدموع كان حبيسا وخر ساجدا لله معتذرا..

ظل على حاله لدقائق ثم نهض وتوارى بين منزلين متجاورين ولحسن حظه أنه قد ابتعد عن أماكن التجمعات فلم يراه أحد وأخذ يفكر ويحلل الأمر..

لقد ظن أنه أصبح منيعا ولن تغويه إحداهن أبدا.. ظن أنه قد وصل لمعرفة السر الذي يجعلك محصنا.. استحضار الروح في هذا الوقت..

و....

وأضاء عقله بنور الله ليرى هذا المشهد ويفقه من جديد...

******

لكم اشتاقت لهذا العبد الذي يخدم في قصرها.. لكم فاض بها وهي تحاول أن تنال منه ولكن دون جدوى.. ها هي زليخة تغلق الأبواب وترسم الخطة المحكمة لتحصل عليه لنفسها.. وهل هناك امرأة قد تصمد أمام جمال يوسف الصديق.. واقتربت منه وبدأت تراوده عن نفسه.. وسقط يوسف في أمر لا يحسد عليه أبدا

و........

" لولا أن رأى برهان ربه "

" لولا أن رأى برهان ربه "

" لولا أن رأى برهان ربه "

****

" لولا أن رأى برهان ربه "

ظلت تلك الكلمات تتردد في ذهنه وتنير من ظلمته الكثير "

إذا فليس هناك من هو معصوم من الفتنة حتى خير الخلق.. الأمر كله بيد الله.. الله هو العاصم ولست أنت..

الله هو الذي ينجيك من الخطيئة ولولاه لتهاوى الكل في جنبات الفاحشة..
لقد وثق بنفسه وبروحه وظن أنه عرف السر ولكن السر لم يكن استحضار الروح فقط وإنما اليقين بالله بأنه منجي من الفتن واستحضار عظمته في تلك اللحظات..
فالله الله في الخلوات
الله الله خلف الأبواب المغلقة..
الله الله حينما تثور الشهوات..
هدأ كثيرا بعدما تذكر رحمة الله ثم جلس يستريح خلف أحد الأشجار.. وسرعان ما توسطت الشمس كبد السماء وراحت تمني نفسها بحرق هؤلاء القوم الذين يجاهرون ويبارزون الجبار بمعاصيهم ولكنه لم يأذن لها بعد.. تمنت بداخلها لو تقترب منهم حتى تذيب جلودهم ولحومهم ولكنه لم يأذن بعد.. تتعجب من رحمته لأنه يمهلهم.. تغار عليه ممن يسجد لغيره ولكنها لا تملك سوى المشاهدة فهو العليم بكل شيء..

جلس يراقب الشجرة ويتأملها في شرود محاولا جمع شتات نفسه.. ثم راوده فكرة كتابة مقال عن الجنس ودوافعه.. ولكن أين الجريدة التي ستنشر هنا.. استلقى تحت الشجرة وراحت تدور بخلده بعض الذكريات عنها.. نجمته الخاصة..
ها هو يرى بعين الخيال ما فعله من قبل.. يجلس معها في حديقة وينظر لها بكل حب.. يقترب منها ثم وبدون شعور يقبلها.. ينتفض جسده بعنف لتلك الذكرى.. ثم تقتحم ذهنه ذكرى ثانية.. ها هي تحدثه وتقول بكل برود:
" ابحث عن أخرى"
وكانت تلك الذكرى بمثابة الصفعة التي رجت كيانه.. إنه لم يتق الله فيها فلم يعطه الله إياها..
الأمر بسيط جدا.. تتق وتصبر ولا تعص الله فيما تريد فتكون هديتك أن يعطيك الله ما تمنيت وأكثر والعكس صحيح.. هكذا كان الدرس قاسيا وهكذا تعلم بعد فوات الأوان..

******

بكل هدوء يسيرون.. كملك الموت يقتربون.. لا ينظر العامة إليهم ويخشون.. إنهم العفاريت.. ها هم يسيرون داخل المدينة بخطى منتظمة ومن حولهم يقف العراة في ثبات ورعب.. لا يجرؤون على النظر إليهم.. حتى الأطياف والهاجس قد ثبتا في الفراغ حتى تمر العفاريت.. لقد اقتربوا من العاصي واقتربوا من القبض عليه.. هكذا أخبرتهم هارمونيا أنه لو بقي لأكثر من ثلاث ليال في المدينة عليهم أن يقبضوا عليه ويضعوه داخل النعش.. ووقتها سيتجرع الهاجس مرغما ويسجد لها ثم ستقتله بنفسها في حفل كبير تعلن فيه انتصارها الساحق..
لا يؤخرهم تعب ولا نصب.. هم يسيرون وكأنهم خارج الزمان والمكان..
هم "العفاريت "

*****

اقتربت الشمس من المغيب وهي حزينة لأن الله لم يأمر بعد.. وبقي هو على حاله يراقب الشجرة.. ما أشد عودك وما أصلب ثباتك!
تقفين هنا منذ سنوات متحدية كل شيء.. لا تأبهين برياح ولا بمطر ولا حرارة.. ربما تنحنين برقة في مواجهة الرياح ولكن لأنك تدركين أن هذا هو سبيل النصر في النهاية.. ذكية أنت وتملكين بصيرة.. فيا ليت البشر يملكون ربع ثباتك على مبادئك..

أغلق عينيه وحاول النوم ولكن الأخير أبى أن يزوره وراح شبح نوران يحلق في فراغ عقله ونياط قلبه.. يبكي قلبه بصمت ويتعجب.. كيف له أن يحب ويفكر في امرأتين؟!!
يا لقلوب الرجال!!
ثم أخرج المذكرة الصغيرة والقلم من جيبه وراح يكتب بخط صغير حتى تحتوي الصفحة كلماته..

" حتى الكتابة لا تسمن ولا تغني من جوع. بل يزداد الألم في قلبي ويتضاعف.. أنا أتألم بسببك.. ظننت يوما أنك ستكونين مصدرا للراحة والسعادة.. ولكني كنت واهما.. أتألم بشدة.. ليتني مت قبل أن القاك.. لن أسامحك يا مصدر الألم والعذاب ومع هذا كله أشتاق حد الموت "

حقيقة لم يدرك لمن كتب ولكن يكفيه أنه قد كتب.. قَبِل النوم زيارته في تلك اللحظات وسقط أسيرا في زنزانة النوم التي لا تقبل من كان محكوما عليه بالهم والغم..
خرجت الشمس من مضجعها تحث الخطى وتمني نفسها بأن الله سيأمرها اليوم أو أنها ستشهد هلاك هؤلاء القوم.. كانت متفائلة وترجو ألا تخرج غدا إلا على بقايا هؤلاء.. وأفاق هو على أشعتها وهو متحمسا نشيطا.. اليوم هو اليوم الثالث.. سيفعلها بمشيئة الله.. وما بعده سيكون أيسر.. فهل هناك شهوة أشد إغواء من شهوة الجنس؟!!
لا والله لا يظن هذا.. أخرج تمرة فمضغها وهو يتعجب من هذا التمر الذي يسد جوعه ليوم كامل.. ثم تجرع من الماء وسار في طريقه ناحية البوابة.. كان عليه ألا يتوقف أبدا ولا يلتفت لإحداهن أبدا.. يجب أن يدرك البوابة اليوم ولا سبيل سوى لهذا.. فلو لم يصل لها اليوم فسيخسر تحديه.. ولكن الأمر صعبا.. الطريق الرئيسي المؤدي للبوابة قد امتلأ من جديد بالعراة..
لقد اختبئ ليومين ولكن لا يقدر على الاختفاء اليوم.. وهكذا سار بينهم ولسانه يردد
" اللهم إني أعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن "

وبعد ساعة من السير رأى البوابة هناك على مد البصر.. شعر بسعادة بالغة وكاد يصيح فرحا.. هرول ناحيتها وهو يخلع عنه خوذة الحارس وردائه وبقي برداءه الداخلي.. تخطى ممرا صغيرا يقود إلى البوابة ووقف أمام حارسي البوابة ينظر لهما بظفر ويشير إليهما كي يفتحوا له البوابة..
ولكنهم لم ينصاعوا لأمره.. نظر لهم بحيرة وقال لهم:
_ افتحوا البوابة
ولكنهم لم يحركوا ساكنا.. اشتد غضبه وكاد أن يفتحها بنفسه لولا أن زجروه وأشهروا سيوفهم في وجهه..
- ألم تعلموا أنني في تحد مع هارمونيا وأنني قد ربحت وينبغي عليكم أن تفتحوا البوابة؟!
أجابه أحدهم بلهجة قاسية:

- البوابة تفتح مع مغرب الشمس وتغلق بعد دقيقة واحدة وهكذا تنتهي أيامك هنا إن أنت خرجت منها

تراجع بسخط وجلس بعيدا يراقب البوابة في ترقب.. الشمس لازالت في الأفق تشتد وهذا يعني أنه سيجلس لساعات وهؤلاء القوم يراقبونه في حذر سرعان ما سيتحول لجرأة وستقدم إحداهن نحوه لتحاول إغوائه من جديد..

ظل يردد الدعاء مرات ومرات دون كلل أو ملل.. مرت ساعة تلو الأخرى والشمس تتحرك بهدوء يزيده سخطا على سخطه.. وسرعان ما اقترب منه فوج من النسوة يتحسسن نبضه.. فما كان منه إلا أن حمل بين يديه صخرة كبيرة وصاح فيهنّ..

- لو اقتربت واحدة منكنّ فسوف أحطم رأسها

تراجعن مذعورات وبقي هو على حاله والشمس من فوقه تحرق رأسه وتذيب مخه.. بحث بعينيه عن مكان ليختبئ فيه من أشعتها ولكنه لم يجد سوى على مد البصر.. هناك بعض الأشجار ولكن هناك الكثير ممن حولها من هؤلاء الملاعين..

قرر أن يبقى وليحدث ما يحدث.. ولكن الشمس كانت أقوى منه فشعر بوعيه ينسحب تدريجيا وبقوته تتلاشى وبالظلام يبتلعه من كل جانب حتى تهاوي في غيبوبة قصيرة.. استيقظ ليجد نفسه عاريا ومن حوله عشرات النسوة ينظرن له بهيام ويتحدثن عن اللحظات الممتعة التي عاشوها معه.. يا للكارثة.. لقد سقط في الوحل وهو لا يدري..

كيف حدث هذا؟!!

لقد استغلوا نومه واوقعوه في شباكهن.. ومن حوله كانت ضحكاتهن العالية تمزقه من الغضب.. ثار الدم وفار في عروقه وانتفض ثم حمل بين يديه حجرا ضخما وهوى به على رأس إحداهن بقوة فسقطت أرضا تنزف من رأسها وهي لا تتوقف عن الضحك.. ضربها مجددا فتناثر الدم واللحم منها ولكنها لم تتوقف عن الضحك.. اشتد غضبه وظل يضربها حتى تحول رأسها لكومة من اللحم المفروم وهي لا تتوقف عن الضحك.. وفجأة عم الصمت المكان بأكمله ثم نظرت له بعينين مفزعتين من وسط عجينة من اللحم وقالت:

- سوف تزني لا محالة

وشهق شهقة ثم هب من مكانه وأخذ يلهث بشدة.. نظر من حوله فرأى بعض النسوة يقتربن منه.. لقد كان حلما.. يا رب لك الحمد.. ولكنه لم يتأن وحمل الحجر وهرول خلفهن بغضب صارخا:
_ ابتعدن أيتها الملعونات
صحن فزعا وهرولن مبتعدات وهو يقذف عليهن الأحجار ويسبهن..
كان الحارسين يراقبن ما يحدث دون أن يفعلوا شيئًا.. فأمر هارمونيا واضح.. مهمتهم أن يفتحوا البوابة مع غروب الشمس فقط ولمدة دقيقة واحدة ثم يغلقوها..

جلس يترقب ويترقب حتى أشفقت عليه الشمس ودنت قليلا من الغروب..
وهنا رأى الحارسين يفتحوا البوابة على مصراعيها.. وثب قلبه فرحا قبل جسده وتقدم بثبات وفخر نحو البوابة لولا أن اصطفت بعض النسوة على يمين ويسار الممر المؤدي إلى البوابة..
اضطرب قلبه وتذكر حلمه واخذ يذكر الله في وجل.. وما إن وصل إلى أول الممر القصير حتى ساد الظلام المكان كله وكأن المكان مسرح وقد أسدل عليه الستار.. ارتجف مكانه كعصفور فقد أمه في ليلة باردة ووقف يحاول أن يخترق الظلام ببصره.. وفجأة انبلج ضوءً خفيفا عن يمينه ويساره ليرى النسوة من حوله يضئن من قلب الظلام.. وأدرك أنه التحدي الأخير.. وثارت مخيلته دون وعي منه ولا قدرة على إيقافها.. واشتعلت غرائزه وهو يرى النسوة يمدن أيديهن نحوه في شغف.. تتلوى الأيادي كالأفاعي عن يمينه ويساره تحاول الظفر به.. خطى أول خطوة بأقدام تترنح..

سار بينهن في الظلمات وهن يحاولن أن يخطفنه من كل مكان.. وإذ به يسمع صوتا عن يساره يشبه همس الأفاعي يقول:
" تعال إليّ أمتعك وأجعلك تحلق في السماء من فرط المتعة"
نظر لمصدر الصوت فرأى امرأة تشبه حورية البحر.. نصفها الأعلى امرأة والسفلي سمكة.. كانت لؤلؤة مكنونة.. أجمل امرأة قد رآها يوما في حياته... كانت أشد إغراءً من كل بنات حواء مجتمعات.. تطلع لها كثيرا ثم.....

نظر للأمام وهو مسحورا بها وحاول المضي قدما ليسمع عن يمينه صوتا عذبا يقول:
" تعال إلي أجعلك تغرق في بحر العشق والهوى "
نظر لمصدر الصوت فرأى امرأة قد فارت بالأنوثة والجاذبية.. كاد أن يسقط أرضا لولا أن تحامل على نفسه بمعجزة وصوت ضعيف يصرخ بداخله:
" شياطين "
" اللهم نجاة "
سار من جديد واشتدت الأصوات عن يمينه ويساره وضرب الضوء عينيه فلم يعد يرى سوى حوريات تساقطن من الجنان..
" هلم يا فتى إلى جنتنا "
" لا تترك الجنة فتُلعن إلى الأبد "
" حرر شهوتك واتركها "
" ألست رجلا كما الرجال "
" تعال لنحيا في جنات الجنس والهوى "
وهنا عاد الضوء من جديد وارتد إليه عقله لتتسع عينيه فزعا.. لقد كانت البوابة تغلق من أمامه.. لقد أدرك قوة الفخ الذي سقط فيه بعد فوات الأوان.. لقد كانت مهمتهن هي تعطيله حتى لا يصل إلى الباب..

وبكل ما يملك من قهر ومرارة صرخ صرخة جعلت النسوة ترتد إلى الخلف.. واقترب فرعي البوابة من أن يتعانقا.. وتهاوى أرضا وقد علم أن كل شيء قد انتهى..

****

تسير متخفية تحاول ألا يراها أحدا من الرجال.. لقد خدعت هذا الرجل واستطاعت الهرب وهي الآن تنطلق نحو السور الشرقي.. هناك فتحة في السور يمكنها أن تعبر منها وتلتف مع السور من الخارج حتى تصل إلى البوابة..
ظهر لها السور من بعيد فشعرت بنشوة عجيبة وانطلقت ناحيته حتى توقفت أمامه تبحث عن الشق الصغير الذي ستعبر منه.. ظلت تبحث عنه لساعتين حتى دنت الشمس من الغروب.. توترت بشدة وكادت أن تنهار من القلق حتى لمحتها هناك.. ركضت نحوه ثم حاولت أن تمر

بجسدها من بينه ولكن الشق كان صغيرا ولا يمكنها أن تمر منه.. لقد عرفت مكانه من أبيها وأخبرها أنه من فعله ليكون ملاذا للهرب ولكن يبدو أنه قد تم إصلاحه..
جلست محبطة تتذكر أحمد الذي سينتظرها كثيرا وسيظن أنها قد تخلت عنه ثم سرعان ما فقدت ما تبقى من تماسكها وسقطت باكية..

ظلت على حالها حتى سمعت صوتا مخيفا يأتي من خلفها.. نظرت لترى حارسا ضخم الجثة يقترب منها شاهرا سيفه وهو يقول بصوت غليظ:
" ماذا تفعلين بجوار السور "
لم تجبه من شدة الخوف فتطلع لها بنهم ثم جذبها بعنف واحتضنها بقوة ليأخذ منها ما يريده.. وهنا أدركت أن حلمها قد انهار تمامًا وأنها لن ترى أحمد مرة أخرى.. وزرفت عينيها دموع القهر وتركت نفسها بين يدي الحارس ليستمتع قليلا..

******

فجأة سمع صراخا من خلفه فالتفت خائفا فرأى ما جعل شعره يشيب.. إنه الموكب المظلم.. لقد كان يتجه نحوه ومن حوله النسوة يهرولن خائفات صارخات.. يبدو أنه قد خسر تحديه بالفعل وسرعان ما سيلتهمه هذا التابوت..
كانوا يسيرون كعادتهم ببطء شديد وكأنهم قد ملكوا زمام الزمان.. نظر أحمد للسماء دامعا وقال:
" يا من شققت البحر لموسى أشفق علي ونجني بحولك وقوتك فأنا لا حول لي ولا قوة "
وانطلقت دعوته بسرعة البرق وجاء الرد الإلهي أسرع من دعوته. ومن خلفه شعر باضطراب فالتفت ليرى سيفا يخترق السنتيمترات التي تبقت لإغلاق البوابة ليحول من إغلاقها.. ثم يدفعها للخلف فتنفتح من جديد ليظهر خيالا لجسد يقف أمام البوابة ممسكا بسيف.. وانقض الحارسين عليه واشتعل جسده بالأدرينالين وانطلق كالليث نحو الحارسين..

وقد كانت المفاجأة عنيفة عليهما إذ تفاجأوا بأحمد ينقض بكل عنف على أحدهم والآخر ينقض عليهما من الخارج.. واختل توازنهما وارتبكا وكانت فرصة ذهبية لن تتكرر ثانية.. انقض أحمد على أحدهم وركله بعنف بقدمه ويده تمتد لتنتزع منه سيفه ثم دار حول نفسه ليمرر السيف على عنق الحارس فينحره نحرا.. أما الحارس الآخر فقد تغلب على الخصم الآخر وأسقطه أرضا ثم رفع سيفه وهوى به على الجسد المسجى.. ولكن قبل أن يصل السيف توقف على بعد سنتيمترات حينما اعترضه سيف أحمد ولم يفق الحارس من ذهوله حتى هب الجسد المسجى ناهضا وغرز سيفه في صدر الحارس.. ولم يتمهل لحظة فقد كان الموكب على بعد خطوات فأمسك أحمد من يده وانطلقا يشقا ظلمات الغابة كالبرق تاركين من خلفهما جثتين وموكب يتقدم كما هو لا يعنيه ما حدث بشيء وكأنه يعلم المستقبل ويعرف أن الظفر آت لامحالة..

******

توقف رفيقه عن الركض وأخذ يلهث بشدة.. تطلع أحمد له في حيرة شديدة فقد كان من أنقذه حارسا من الحراس ولكنه لم يتبين هذا سوى الآن بفعل الظلام.. نظر له الحارس ثم نزع الخوذة وابتسم لتتسع حدقتي عينيه ثم يهتف بكل ذهول..

" نوراااااان"

ابتسمت له بحب وقالت في دلال:

- أكنت تظن أنني سأتركك دون مساعدة؟

تساءل بتلعثم شديد:

- ولكن كيف؟!

قادته برفق نحو أحد الأشجار وجلسا يستريحا ثم أطلقت لذاكرتها العنان لتتذكر ما حدث منذ ساعة واحدة..

*****

عانقها الحارس وبدأ يقبلها في جشع وهي بين يديه ترتجف كالجريح.. تتمتم بكلمات واهنة وتبتهل لله بأن ينجيها فهي ستؤمن به على كل حال..

ثم رأت في خيالها أحمد.. رأته بين يدي العفاريت يصرخ وينتفض.. ثم رأته من جديد يمسك بيديها وينظر لها بقوة وثبات ويقول:
" أنت أقوى مما تظنين "
وكانت لكلماته مفعول السحر وعادت لوعيها لترى نفسها ملقاة ومن فوقها الحارس.. ولامست يديها مقبض السيف الملقى فما كان منها سوى أن دفعت الحارس بقوة فسقط من فوقها لتحمل هي السيف وتنهض لتضربه فتقطع كفه اليمنى ثم ضربة ثانية لتطيح برأسه.. لم تتمهل للحظة ونزعت عنه ردائه لترتديه ثم تركض بمحاذاة السور لترى فتحة غير التي كانت عندها فتعبرها بسرعة وتنطلق بمحاذاة السور ولمدة نصف ساعة حتى وصلت للبوابة من الخارج..

ترقبت من مخبئ قريب أن تفتح البوابة وبالفعل فتحت لترى أحمد يقترب من العبور وإذ فجأة يتوقف ثم ينظر يمينه ويساره وكأنه مسحورا بالهاجس.. اضطرب قلبها وظلت تحثه في داخلها أن يسير ولكنه كان يسير متخبطا وكأنه سكرانا.. وبدأت البوابة رحلتها نحو الإغلاق فما كان منها سوى أن هرولت ووضعت سيفها ليحول من إغلاقها ثم حدث ما حدث..

لم ينطق لسانه بشيء وإن نطقت عينيه بكل شيء وهو يتطلع لها في امتنان بلغ آفاق السماء وعجزت عن حمله الجبال.. وبدأت المرحلة الثانية من التحدي الجهنمي.. وتهيئت الغابة بكل أبناءها لاستقبال الوافد الجديد..

****

وهنا لنا وقفة بسيطة لأنقل لكم ما خطه أحمد في مفكرته عن تلك الشهوة..

هناك سبل للنجاة حتما من تلك الشهوة المخيفة والتي تودي بصاحبها نحو الهلاك..
أولا:
استحضار عظمة الله في وقت الفتنة والظن به ظن الخير واليقين بأنه لولا الله لسقطت في مستنقع الرزيلة حتى القاع ولكنه من يحميك من

نفسك ومن هذا الأمر المريع، ومعرفة أنك لن تقوى أبدا على دفع هذا الأمر عنك إلا بأمر الله وبقوته فأنت بدونه لا حول لك ولا قوة.. هذا هو الأمر أن تستعن بالله وأن تترك ثقتك بنفسك وتستبدلها بالثقة بالله لأن وقت الفتنة يذهب العقل وتحل محله الشهوة فقط..

ثانيا:

أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.. فقط انظر إلى السماء وقت استدراج الشيطان لك للوقوع في تلك المعصية وتخيل أن عين الله تراقبك.. وقتها ستنهزم كل رغبة لديك لتقع في مثل هذا الأمر.. وأن تتذكر دائما أن الذي خلق الظلام يراك..

ثالثا:

اعتزال مواطن الفتن وعدم اتباع خطوات الشيطان.. فقد أمر الله وقال" ولا تقربوا الزنا " ولم يقل " ولا تزنون " لأن الجريمة عظيمة والفتنة أعظم.. فالبداية تكون نظرة ثم ابتسامة ثم موعد ثم مقابلة ثم حديث برئ هذا ما يمهد له الشيطان حتى يصل بك إلى جريمة الزنا.. فلا تظن أنه من الخير أن تحادث امرأة ليس بينك وبينها صلة لأنك قد تفعل لها خيرا.. لا أنت تسوق نفسك إلى الهاوية في هذا الوقت..

رابعا:

استحضار الروح وفصلها عن ملذات الجسد.. فالجسد فان والروح باقية فإن أنت استحضرت روحك من دون جسدك فستجد انها قد فطرت على بغض كل ما هو حرام وخاصة لو كان زنا.. ستجدها تحثك على الهرب من المعصية بكل قوتها.. فحاول أن تستحضر روحك في كل موقف حتى تنجو من كل شر يقود إليه جسدك.. وتذكر أن الجسد يدفن في التراب ليأكله الدود والروح تصعد إلى السماوات.. فمن الذي يستحق الإكرام والطاعة؟! الجسد أم الروح؟!

خامسا:

تذكر حدود الزنا والتي وصلت إلى القتل ومعرفة أن الحد عظيما لأن الجريمة عظيمة وأن عرش الرحمن يهتز لمثل هذا الأمر.. ومعرفة أنه كما تدين تدان فإن أنت فعلت مثل هذا قد ترى أبسط العقاب وهو أن

ترى الأمر يحدث في أهل بيتك ولا ينتهي الذنب عند هذا الحد وإنما تكون مجرد بداية..

****

الغابة..

وما أدراك ما الغابة..
حيث الضباب والهاجس..
فهنا تسمع صوت شهيق الهاجس وزفيره..
هنا الأشجار المتيبسة المتلصصة على السائرون..
هنا الضباب هو سيد المكان منذ قديم الأزل وكأنه الكائن الوحيد هنا..
هنا تهمس الأشجار للموت حتى يرحب بالقادمين..
ولم يكن القادمين سوى أحمد ونوران..
سارت من خلفه خائفة.. وجلة.. يقشعر بدنها كلما توغلت أكثر بين الأشجار العملاقة التي راحت تبتلع نور الشمس وتحمي الظلام منه.. تتوغل لترى الأشجار من فوقها وقد تعانقت فروعها لتزداد سطوة الظلام ويزداد الضباب كثافة.. أمسكت كفه بقوة لتستمد بعضا من الأمان وسارت بجواره صامتة متهيبة كطفلة ترى العالم الخارجي للمرة الأولى.. كان الضباب قد هبط من فوقهم بثقله فلم يترك مجالا للرؤية.. نظر لها ليستشعر حجم المسئولية التي تجثم على عاتقه فطرد بعضا من القلق والخوف الذي أبى أن يرحل كله..

كانت الرؤية قد انعدمت تمامًا وراحوا يسيرون وسط محيط من الضباب.. الرياح أخذت تعبث بهم من كل جانب دون أدنى شفقة.. ارتجفت بجواره بعدما وجد البرد سبيلا لغزوها.. ولكنه كان يفكر في وجل..
أتراه ينجح في العبور؟!
الأمر مخيف بشدة هنا..
وماذا عنها؟!
أيستطيع حمايتها حقا؟
اسئلة حلقت في الفضاء دون إجابات..
وسار يتخبط دون هدف فكان لزاما عليه أن يتوقف لعل الضباب ينقشع أو يعود أدراجه.. ولكنها ليال ثلاث ولابد أن يكمل طريقه مهما كان..

توقفا بجوار أحد الأشجار عظيمة الحجم وجلسا يستريحا قليلا..
تحدثت بصوت مرتجف وقالت:

- لماذا تعبد من تسميه بالله

صمت طويلا وهو شاردا في محيط أفكاره ثم أجاب:

- بل السؤال الصحيح لماذا يعبد الناس غير الله؟!
- ماذا تقصد؟!
- أقصد أن كلٌ يسير إلى هلاكه إلا الله هو الذي يبقى فكيف نعبد من يهلك ونترك من يبقى
- أتظن أن هارمونيا قد تهلك يوما ما
- أنا لا أظن بل أنا على يقين بهذا
- ولكن ما الذي يجعلني أعبد الله
- لأن الله هو الخالق ولا خالق سواه لأن الله هو الرزاق ولا رزاق سواه لأن الله يغفر الذنوب ولا يغفرها سواه لأن الله هو الرحيم بنا ولا يرحمنا سواه.. هو ناصرنا ومغيثنا هو منجينا وراحمنا هو العزيز الذي لا عزيز غيره وهو القوي الذي تستمد الخلائق منه قوتها وهو الجميل فمنه ينبعث الجمال وهو العزيز الذي نستمد العزة منه هو الودود هو الجبار هو السميع هو البصير الذي أحاط بكل شيء علما هو رب الأرض والسماوات هو الذي ينجي من عذاب يوم عظيم وهو من بيده الجنان بأبوابها الثمانية فمن عبده نجا ومن عصاه هلك..
- أحقا هو مثل ما تقول
- بالطبع لا هو أعظم من أن تصفه كلمات أو حتى عشرات الكتب هو الذات التي جاء منها كل شيء ولا يعلم عظمتها ولا قدرتها إلا هو ولكن يكفي بأن أقول لك بأن أمره بين الكاف والنون فهو يقول للشيء كن فيكون
- وإن كان بمثل تلك القوة فلماذا يترك هارمونيا تدعي الألوهية
- لأن سنة الله ثابتة في أرضه فمن استعان بها نجا وأصبح عزيزا فوق الأرض ومن أستعان بغيره هلك وصار ذليلا لا يرى وإن كان يترك هارمونيا فلحكمة يعلمها هو ولأن موعدها لآت يقينا ولأنه يمهلها لعلها ترجع عما هي فيه فهو لا يحب العذاب لعباده ويحب أن يعودوا إليه ليغفر لهم.. وهارمونيا تلك

لم يصنعها سوى قومها كما فعل قوم فرعون وكما قال عنهم الله " فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوم سوء فسقين "
هنا أجهشت بالبكاء وسالت العبرات من عينيها فرق لحالها وقال لها بحزن:

- ما يبكيك؟!
- ويكأن أبي هو من يتحدث فقد كان يقول مثل ما تقول
- تحدثي بتلك الكلمات في كيانك " اللهم اجمعني بأبي في جناتك "

وابتسمت من بين دموعها وأغلقت عينيها ثم أراحت رأسها على كتفه بعدما شعرت بالأمان الذي غادرها منذ سنوات طوال ونامت..
أما هو فقد تعجب من نفسه وأخذ يحدثها:
كيف وصلت إلى تلك المرحلة من الإيمان؟!!
ألست أنا من كنت أخوض المغامرات الجنسية في خيالي كل ليلة؟!
ألست أنا من تكاسل عن الصلوات لأيام طوال وتجرأ على الله مرات ومرات؟!!
سبحانك يا الله لا أستحق هذا الشرف بأن جعلتني أقف لتلك الساحرة وأن طهرت روحي من الشرك بك..
وأراح رأسه على رأسها ليغلق عينيه ويغفو بهدوء..
ورآه هناك في عالم الأحلام يزحف نحو بوجه مشتعل وجبهة قد برزت عظامها وأعين جاحظة بطريقة مخيفة.. لم يقدر على الحركة أبدا فقد شعر أنه مقيدا بسلاسل من حديد في الجدار.. اقترب منه هذا الشيء ونظر في وجهه وصرخ بأعلى صوته وقال:

....
وانتفض أحمد من نومه على صرخة نوران التي راحت تنتفض وتتشبث به بكل خوف.. نظر للأمام فرأى تلك العينين التي راحت تبرق في وحشية وهي ترمقهما من قلب الظلام.. انتفض من مكانه وتراجع إلى الخلف لتحتمي هي به وتقف من خلفه تنتفض.. راحا يرقبان أية حركة لتلك العينين ولكنها كانت ترمقهما في ثبات، ولكن " دوام الحال من المحال " فقد سمعا صوت زمجرة مخيفة ثم برز صاحب العينين ليروه رؤي العين.. نمرا ضخما لم يرى أحمد في ضخامته من قبل..

كان يقترب منهما وهو ينفث بغضب ويزمجر.. لقد ثار من شدة الجوع ويبدو أنه قد وجد طعامه..
راقبه أحمد بقلبٍ مذعور ولسان حاله يردد " النجدة يا رب "
أخذ النمر يمر من أمامهم يمنة ويسرة وهو يرمقهما بشراسة وكأنه يدرس خصمه قبل الهجوم ونوران من خلفه تنتفض وقد شل الخوف لسانها..
ثارت مخيلته في تلك اللحظات وترددت عشرات العبارات في ذهنه..
"إن كان من الموت بد فلتكن ميتة الرجال"
" ستقف أمامه يوم القيامة تحاجه بأنك صمدت أمام الساحرة "
" ستذهب إلى الله مهما كان وهو أرحم الراحمين فليكن ذهابك له مشرفا "
" الواجب يحتم عليك حمايتها ولو كانت حياتك هي الثمن "
" لو صارعته فستجد هي فرصة للنجاة"
" لا لا لا تخشاه فخوفك يعني الهزيمة حتما حتى قبل أن تحارب "
" استحضرت عظمة الله فرأيت النمر فأرا صغيرا "
" لست بنبي ولا رسول ولكني مثلهم أشهد أنك إلها واحدا لا شريك لك وأنا عبدك كما هم فكن معي كما كنت معهم"
ومن ثنايا روحه بزغت روح البطولة فأخرج سيفه وأمسكه بكل قوته وأخذ يترقب ويدرس موقفه..

كان المشهد أقرب إلى مشهد أسطوري شاب يشهر سيفه وأعينه تقطر شجاعة وإقدام في وجه نمرا ضخما قد ظهر عليه التردد من رؤية السيف ومن خلف الشاب فتاة ترتعد وتحتضن كتفه..
امسك يدها بهدوء وضغط عليها برفق فانتفضت روحها ونظرت له بذهول ما لبث أن جعل مخيلتها تثور..
" ألم يخبرك أبيك من قبل أن كلّ سيموت وحينما يجئ موعدك كوني شجاعة "
" أحمد الذي أشعرك شعورا لم تظني يوما أنه موجود في تلك الحياة"
" الم تقبلي على الموت من قبل وهو من أنقذك حسنا لأفديه بروحي الآن "
" حتى لو مت فعلى الأقل لن أشهد موت أكثر من أحببت في حياتي "

" نعم سأموت واذهب لمن يسميه بالله ولو كان كما قال فسأدخل الجنة حتما فهو ذو صفات عظيمة كما قال"
ومن خلفه سمع همسا يقول
" أحببتك أكثر من أي شيء في هذا الكون.. فلتخبر الله أنني كنت سأؤمن به على كل حال.. اهرب واهدم عرش هارمونيا "
واتسعت عينيه فزعا حينما رآها تركض من خلفه بشكل عرضي من خلف الأشجار ليلتفت لها النمر متفاجئا من ردة فعلها ولكنه لم يبقى في مكانه سوى لحظة ثم انطلق كالصاعقة موازيا ليلحق بها.. كان يدرك أنها الحلقة الأضعف وأنها ستكون لقمة سائغة لذلك ترك صاحب السيف وبدأ في مطاردتها..
أما هو فقد صرخ قلبه صرخة لوعة لم يصرخ مثلها في حياته وركض من خلفها وقد تدفق شلال من الأدرينالين في جسده..
كانت تركض بأقصى سرعة تملكها لتبعد النمر عن محيط أحمد الذي كان يركض من خلفها وقلبه ينتفض فزعا عليها وبجوارها وعلى مسافة ستة أمتار كان النمر يركض موازيا لها ينتظر أية ثغرة ليلحق بها.. وبعد عشرون ثانية رآها بعينيه المخيفة.. فتحة بين الأشجار تسمح لمروره ليصل لها وتحول ركضه بزاوية مخيفة ليلحق بها عند تلك الفتحة واقتربت مخالبه التي راحت تلتهم الأرض التهاما من الإمساك بفريسته.. مال نحوها حتى كان يفصله بينه وبينها مترا واحدا ثم وثب وصرخت هي وأغلقت عينيها حينما رأت عن يسارها جسدا هائلا يقفز نحوها وقد شهر نحوها سكاكين حادة كافية لتمزقها إربا.. و....
وسالت الدماء الغزيرة تشهد عليها أشجار الغابة الصماء..
******
لا يدري كيف تحول المشهد من أمامه فجأة ليرى نفسه في معركة كبيرة أو لنقل ملحمة، كان صليل السيوف يهدر كما الشلال وصراخ القتلى يصم الآذان وصيحات " الله أكبر " تزلزل الأرض من تحته.. الغريب أنه كان يمتطي فرسا ويركض بأقصى سرعته نحو هذا الفيل الأبيض المجنون الذي راح يفتك برفاقه فتكا دون أن يستطيع أن يردعه أحد.. إنها معركة القادسية بلا شك هذا ما أخبره به عقله وهو يدعى باسم القعقاع بن عمرو في تلك اللحظات.. ولكن من هؤلاء الذين يحاربونهم؟!

جاءه الصوت من جديد.. " إنهم الفرس بقيادة رستم "
إنها معركة حاسمة بلا شك فالهمة التي يحارب بها رفاقه تلهمه بذلك..
ولكن هذا الفيل، إنه يحول دون النصر وينبغي أن يضع حدا له..
وكصاعقة السماء انقض بفرسه على الفيل وصرخ صرخة زلزلت كيانه قبل أن يرفع حسامه ويهوي به على عين الفيل فيفقأها.. لا يدري كيف فعلها وهذا القطيع من الفرسان يحمي الفيل ولكنه استطاع أن يخترق الصفوف وأن يفعلها.. شعر بفرحة عارمة تغزو خلاياه ولكنه تماسك حينما ترنح الفيل من أمامه ليصرخ بكل ما امتلك يوما من صوت ب" الله أكبر " ثم يشق سيفه الفراغ ليقطع خرطوم الفيل ليتراجع الأخير مذعورا ثم يسقط أرضا ناظرا بذعر لهذا الرجل الذي جاء من السماء حتما وليس من الأرض.. وتخبطت الفيلة الأخرى حينما سقط زعيمهم وراحت تركض بلا هدف..
ومن خلفه ارتفعت صيحات "الله أكبر" لترتجف لها السماء وتنحني لها الأرض..
" الله أكبر "
" الله أكبر "
" الله أكبر "

*****

وعاد المشهد من جديد واقترب من نوران بشدة وما إن نظر يمينه حتى رأى الوحش الكاسر ينقض.. واشتعلت النيران داخله وزمجرت بصوت أعلى من صوت الوحش ومن أمامه رأى جزع شجرة فقفز فوقه برشاقة ثم وثب بكل ما يمتلك من قوة صارخا بأعلى صوته " الله أكبر " وتزامن وقتها وثبة الليث على نوران..
واقتربت مخالبه من الظفر بعنقها و......
وكالصاعقة انقض بسيفه على النمر الذي فوجئ بنفسه وهو يحلق أنه هناك من اخترق جسده من ناحية اليمين.. فاختل توازنه ولم يظفر بعنق الفتاة التي فصلها عنه سنتيمترات.. وسقط أرضا ليشعر بألم حاد في بطنه ولكنه ما كاد أن ينهض حتى رأى عملاقا ينقض عليه ويهوي بسيفه عليه مرات ومرات لتتناثر دماءه وتتمزق أشلاءه وقد صمت اذنيه بكلمات لم يسمعها من قبل وإن رددها قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة..

" الله أكبر "

*****

توقفت عن الركض ونظرت للخلف بارتياع وهي ترجو وتتمنى ألا يكون قد أصابه مكروه أبدا.. وتوقف قلبها عن الخفقان وتوقف شهيقها وزفيرها وهي تنظر لجسدين فوق بعضهما ولا تدري أيهما سينهض.. ولكنه نهض في النهاية والدماء على وجهه وجسده..

لقد انتصر على الوحش.. وبكل فرحة الدنيا ركضت نحوه وعانقته لتجهش بالبكاء وينتفض جسدها مرات ومرات..

بعد دقائق طويلة عاد الهدوء يلف الغابة ويتسلل بعضا منه إلى قلبيهما..

قادها بين الأشجار ليبتعدا عن جثة الوحش وسارا قليلا لتتساءل هي بكل فخر:

_ كيف قاتلته وسط هذا الظلام

نظر لها بحيرة ولم يجيب..

نعم الغابة مظلمة ولكنه كان يرى كل شيء بوضوح.. هل اكتسب قدرات خاصة؟!

يبدو أن الرجل الغريب قد أودعه الكثير من العلم والقوة معا..

*****

الغريب..

اقترب منه ثم وضع يده على قلبه وقال:

" اللهم هب له نورا وقوة وفراسة وفطنة وبصيرة "

*****

انطلقا من جديد وكل منهما شاردا في أمور شتى ولكن ما كان يجمعهما هو الحب.. تلك الفطرة التي جعلت من الرجال حمقى ومن النساء بارعات.. فها هو بسبب الحب ينقض على نمر ضخم دون أية خطة تذكر.. بينما هي تحارب حارسا وتضع الخطة.. هذا هو الحب شئنا أم أبينا..

سارا بين الأشجار الصماء من جديد وإن اعتادت عيناهما على الرؤية في هذا الظلام.. ما أفقرك أيتها الغابة.. الأشجار غريبة المظهر قديمة.. متهالكة كأشباح قد هزمها الزمن فبقيت مكانها تترنح بعدما سأمت من

الانتظار.. فلم يأت مخلصها بعد.. رائحة الخشب عطنه.. غريبة وكأنك قد سقطت في أرض الشياطين..
وبدأت نوران في الغناء..
" ما أرادوا سوى الجسد"
" والروح تشتكي "
" والجسد قد بلى "
" والروح قد شابت "
" يا ظلام الغابة"
" أنا مشتاقة"
" فعلمني كيف أموت "
" في ظلام الغابة"

كان يستمع لها وابتسامة منهكة ترتسم على محياه.. ما أشبهها برفيقة الأمس.. حتى اسمها " نوران " يشابه كثيرا اسم من كانت يوما تحيا في قلبه المكلوم.. الآن فقط لاحظ التشابه الغريب بينهما.. العينين.. هناك تشابه كبير بينهما.. ربما كان هذا سبب شعور الألفة الذي شعر به حينما رآها للمرة الأولى.. تراها قد تخونه كالأولى!
أم أن التشابه هنا ظاهري فقط.. أم هو تشابه آخر تشترك فيه كل بنات حواء.. هل هناك فعلا فتاة تحارب لأجلك على هذه الأرض؟!
أم أنها تحارب لأجل نفسها؟!
حتى إن وجدت الحرب خاسرة انسحبت لتحارب على جبهة جديدة.. قلبه يئن بشدة.. يمني نفسه بدموع قليلة لا تلاحظها هي ولكن هي لن تترك لك لحظات لتخلو بها مع دموعك؟!
وفي تلك اللحظة تحرك شيئًا كالبرق من أمامهما فانتفضا من المفاجأة.. أمسكت يده برعب وهي تنظر هنا وهناك تحاول معرفة كنه هذا الشيء.. وهل هو حيوان صغير أم نمر كبير..
ومن خلفهما تحرك الشيء من جديد ليختفي بين الأشجار المظلمة.. لمحاه بطرف عينيهما وإن لم يجدا الوقت الكافي لرؤية ملامحه.. وسرعان ما تحرك شيئًا آخر من أمامها وهو يهمهم بصوت غير مفهوم يشبه صراخ النساء.. ثم أحاطوهم من كل حدب وصوب.. يهرولون عن

أيمانهم وعن شمائلهم.. من أمامهم ومن خلفهم.. صوت الهمهمات يزداد ويرتفع..
نوران تنتفض..
التوتر قد فتك بحاميها وهو لا يدرك إلى متى سيقدر على حمايتها..
ثم لمعت العيون وانبلجت من قلب الظلام تحدق بهما في وحشية مخيفة..
عيون حمراء بلون الدم تنظر من قلب الظلام.. إنه الهلاك في أعتى صوره.. وإن لم يكن هو الهلاك بعينه فهو الفناء.. كلها مسميات مشتقة من هادم اللذات..
واقتربت الأعين واتضحت الأجساد..
أقزام..
عشرون قزما على الأقل بأشكالهم المقززة المخيفة..
الوجوه دائرية مسطحة كما الأطباق والأجساد مترهلة متسخة والأظافر طويلة زرقاء..
أحاطوا بهما ثم برقت الأعين وارتفعت الفؤوس وشقت الصرخات ظلمات الليل و.
والغابة..

******

لازال على حاله يدعو ويرجو أن ينجو من هذا المكان.. مقيدا هو كما كان لا يقدر على الحركة أبدا.. وإذ به يفاجئ بمن يقف أمامه ووجهه يشتعل غضبا.. لقد كان قزما سيء الرائحة بشع الخلقة كما هم.. كان يحمل بين يديه فأسا.. رفعه للأعلى ثم هوى به نحو حواس الذي أغلق عينيه وصرخ بداخله.. انتظر أن يمزق جسده أو تقطع أوصاله ولكن لم يزوره الألم.. فتح عينيه فوجد الحبل الذي كان مقيدا به وقد تمزق.. تطلع للقزم في حيرة فأجابه:

- لقد حررتك ولكن لك أن ترد الجميل أو أن تذهب
- وكيف أرد لك الجميل؟
- أن تساعدنا في مهاجمة البراقع فطالما نحن الشواشنة لن نظفر بك وقد ظلمنا الباطش " يعني ملك الأقزام " فقد قررنا الخروج عليه والثأر من البراقع
- وأنا أوافق

- حسنا هلم بنا سريعا

اخترقا ظلام الغابة في انسيابية عجيبة وراحا يركضان في نشاطٍ جم.. ولك أن تتخيل قزم يرتج من فرط البدانة يتبعه عملاق قوي البنية ضخم الجثة.. مشهد لن تراه في حياتك غالبا سوى هنا في غابة الجحيم ومقر حكم هارمونيا في مسابقات الدماء والهلاك.. ولكن دعنا من فلسفتي الفارغة وهيا نكمل الحكاية..

وصلا لمكان صغير يجتمع فيه ثلاثون قزما ينتظرون.. ما إن وصلا حتى هتف أحدهم:

- هناك فرقة من البراقع في الجانب الشرقي تحاول الصيد فلنحولهم من الصياد إلى الفريسة الليلة ونتحرر من سطوة الباطش

وهكذا انطلقوا في الظلام وعيني كل منهما تنير له دربه كأعين قطيع من الذئاب.. اقتربا من الجانب الشرقي بعد ساعة من السير الأقرب للهرولة.. وهناك كانت هناك مفاجأة أشد وطئا على نفوسهم وخاصة على نفس أحدهم..

******

الجبار هو من بالأعلى ولا جبار سواه..

سبحانك أنت الإله في الأولى.. وأنت الإله في الآخرة.. أنت الإله القوي وما دونك ضعيف.. فيا مولاي لا تتركهم يعيثون فسادا في الأرض وأنزل رحمتك فننجو من شرها أو عذابك فننجو من بطشها..

******

وارتفعت الصيحات والصرخات تحلق في الآفاق.. فما إن هموا بالهجوم عليهما حتى شعروا بمن ينقض عليهم من الخلف.. وفي ظلمة الغابة راحت الدماء تتناثر والأوصال تتمزق.. جذب أحمد نوران بقوة وركضا في اتجاه معاكس لعل النجاة تقبل بهم.. ومن حولهم كانت الحرب سجال فقتيل من هنا وآخر من هناك وإن كان عامل المفاجئة للشواشنة قد أعطاهم نصرا مبدئيا.. واختبئا خلف شجرة كبيرة ثم استلقيا تحتها وصيحات الألم تخترق مسمعهما.. وإذ بهما يشعران بلهاث من خلفهما فيلتفتا بعنف ليروا قزم ينقض عليهما بفأسه.. حاول أحمد منعه ولكنه ضربه بمقبض الفأس على رأسه فارتد بعنف وسالت الدماء على وجهه لتجزع نوران وتصرخ بهيستريا ولكن أحمد ما كان له أن يسقط

ويتركها.. نهض من جديد وانقض على القزم وأمسك الفأس من بين يديه وحاول انتزاعه ولكن القزم كان يحارب بشراسة وقوة شديدة نتيجة لحقل الدماء المنتشر من حوله.. واستطاع القزم أن يخلص الفأس ورفعه ليهوي به من جديد ولكنه توقف مكانه للحظات وهو ينظر لما خلف أحمد خائفا ثم هرول مبتعدا ليلتفت أحمد فيرى عينان تشقان الظلام وتتقدم نحوه.. كانت هناك بالأعلى مما يعني أن صاحبها أضخم بكثير من هؤلاء.. مادت الأرض به وسالت منه الدماء.. حاول التماسك ليواجه القادم من جديد ولكن قدماه خانتاه وتهاوى أرضا لينظر بوهن لمن يتقدم ثم يسمع صوتا صارخا يشبه صوت نوران يقول....
ماذا؟!!!
هل قالت" أبي"؟!!!!
يبدو أن الضربة كانت قوية لتتلاعب به الهلاوس وسقط أرضا بلا حراك..

*****

ذكراك يا أبي حاضرة وإن مرت سنوات عليها.. تهدهدني وتلاعبني فأضحك.. تمازحني وتلاطفني فأبتسم.. أذكر نظرة عينيك وملامح وجهك.. أذكر ابتسامتك وهيئتك العملاقة.. هل أنا في حلم؟!!
هل مت في هذه الحرب الطاحنة وأنا الآن قد ذهبت لأبي حيث عالم الأموات؟!!
نعم هذا ما حدث.. ولكن هل سيلحق بنا أحمد؟!
نعم سيفعل.. والان لأعانق أبي عناقا ينسيني حياتي بأكملها.. لألقي بكل متاعبي على عتبات قدميه وأنسى الدنيا وما فيها..
صاحت بكل ما تمتلك من دهشة وذهول واشتياق.. أبي.. ثم انطلقت لتلقي بنفسها إلى بر الأمان الذي كانت تظن أنه مجرد سراب.. كانت تظن أنها ستسبح في النيران إلى الأبد.. ولكنه يظهر لها على حين غرة.. لم تكن جاهزة البتة ولكن من يبالي بموعد النصر وإن طال انتظاره؟!!
المهم أنه قد جاء.. وقت الخلاص من أسقام الحياة.. لحظات السعادة التي ننتظرها لسنوات وسنوات.. ابتسامة حبيب أو عناق قريب أو حتى طلة قمر.. المهم أنها لحظات لا تأتي سوى مرات معدودة وتلك كانت

منهم.. لذا فقد انطلقت نحوه بكل ما تملك من عزم وقوة.. بقوة أودعتها في عروقها كل مرارة السنين وجعلتها عازمة على الخلاص.. بقوة الضعف والألم الذي لاقته لمدة عامين في الغرفة.. وألقت بنفسها بين أحضانه باكية بدموع قد انهمرت كسيل قد طال حبسه فظن أنه لن يقدر على تفتيت الصخور والخروج وإذ بالصخور تنزاح من تلقاء نفسها..

أما هو فقد شلت الدهشة لسانه وكاد يتهاوى أرضا لولا أن وجدها بين يديه تبكي وتنتفض.. نعم إنها هي.. حتما قد تغيرت قليلا ولكنها هي.. ابنته والتي جاء ليبحث عنها فإذ به يقابلها بين أمطار الدماء وصراع الحديد والنار..

وبكل ما يمتلك من قوة ضمها إليه.. يريد أن يعيدها إلى جسده كما كانت من قبل.. مجرد شيء يجري في جسده مع الملايين.. يريد أن يكون له رحم لتعود إليه فلا تخرج إلى تلك الحياة مجددا.. يريد أن يحبسها في قلبه فلا يراها احدا ولا يؤذيها شيء..

****

نفس الشيء المحترق متفحم الوجه بارز الأسنان يتقدم منه.. لم يغازله شعور الخوف تلك المرة وإنما شعور الفضول المخيف.. الفضول للمعرفة.. تقدم منه مشتعل الوجه ثم أشار له لينظر جهة اليمين.. نظر حيث أشار فرأى نفسه يقود جموعا ويركضون.. صيحات الله أكبر تزلزل المكان وتسخن الجراح في الجيش المقابل.. وإذ به يسمع

" إن الله سيبطله تبطل كل باطل "

****

أفاق من غيبوبته القصيرة لتهتز من أمامه الموجودات وتدور به الدنيا مرات ومرات.. يحاول أن يتبين ما أمامه.. هناك فتاة تبكي وعملاق يداويه وصغار يراقبون في صمت.. إنه في حلم مخيف حتما.. سيستيقظ الآن ليجد أمه تعاتبه على طول نومه.. أغمض عينيه طويلا حتى صفا ذهنه ثم فتحهما ليرى من جديد نفس المشهد..

وإذ بالفتاة تقول:

- أحمد إنه أبي

ثم أجهشت بالبكاء فحاوطها العملاق بقوة ليحميها حتى من دموعها.. نهض من مكانه فساعده العملاق وانتظر الكل أن يتحدث.. ولكنه كان

في واد أخر.. كان هناك نورا يحلق في فراغ عقله.. كان وعيه يتقبل الحقائق في نهم ويحلل ويستنتج ويرسم ثم برقت عينيه ببريق مخيف آثار الخوف في القلوب المحيطة به..

- الآن لقد صدقت العهد معنا أيها العملاق خذ ابنتك وهذا الغريب وارحل عن هنا

قالها أحد الأقزام.. ليقول حواس:

- شكرا لكم على صدقكم

ثم ساعد أحمد على النهوض وقاده للأمام ليرحلوا ولكن أحمد توقف فجأة ونظر من حوله.. هناك أقزام وعملاق وفتاة.. هناك قدر وفرصة.. حتما هناك خطة..

ثم التفت لأحد الأقزام واقترب منه في هدوء فتحفز القزم ورفع فأسه ولكن أحمد تودد إليه ووضع يده على رأسه وأخذ يتمتم..

وفجأة صرخ القزم وتهاوى أرضا ليتراجع الكل فزعا حينما رأوا ما يخرج من فمه.. ضباب حالك السواد يخرج من فمه وصدره.. وما زاد الفزع فزعا هو مظهر جسده الذي راح يتمدد ويتمدد ووجهه الذي أخذ يتشكل حتى تحول لبشري يشبه كثيرا الرجال في مدينة الخطايا..

وشهق الجميع وثبتوا في مكانهم لا يقدرون على شيء..

لا همس..

لا حركة..

لا دقات قلوب..

أما هو فقد استغل الفرصة وصعد فوق فرع شجرة وتحدث..

" قد تعجبون مما رأيتم وقد تظنونني ساحرا جبارا ولكني سأخبركم بالأمر كله.. لقد سحرتكم هارمونيا منذ قديم الأزل وقد بلغ منكم الهاجس مبلغه ولكني قد طردته من جسد رفيقكم بكلمات الإله القدير خالقكم وخالق هارمونيا فبايعوني لنصرة الإله الخالق وسوف أطرد من أجسادكم الهاجس وأحرركم من بطش الساحرة"

وحلق الذهول بجناحيه فوق الأجساد متعجبون مما يروه.. حتى نوران لم تعي ما رأت.. أما هو فقد وعي أن هناك خللا في أجسادهم القبيحة.. خلل ذكره بقصة الشيخ المعالج بالقرآن..

" لقد ذهب هذا الشيخ لامرأة مشلولة منذ عشرون عاما.. وقد حُكي له أنها طافت أرجاء الأرض طلبا للعلاج دون جدوى.. وبعد أن استعان

بالله وقرأ الرقية نطق الجني وتعامل معه وطرده.. وكانت المفاجأة لقد نهضت المرأة تمشي وسط دموع الأهل والأصحاب.. لقد كان الجني يشل حركة الأعصاب منذ أن تمكن من جسدها "

وهكذا ترآت القصة في ذهنه وفكر أنه ربما يكون الهاجس كذلك.. يسيطر على هرمونات الجسد ويعبث بالأنسجة والأعصاب.. فهو في النهاية سحرا بالغ القوة فاق قوة السحر الأسود والسفلي.. إنه سحر الهاجس وما كان سيبطله إلا الله..

" إن الله سيبطله تبطل كل باطل "

هكذا قرأ الآية سبع مرات على القزم فتحرر من السحر وعاد كما كان..

ثم دنا منه كبير الشواشنة وحواس.. نظر كبير الشواشنة للأقزام وأمرهم بالجلوس ثم تحدث:

- أنا أبايعك يا أيها الغريب

ثم التفت لقومه وقال:

- أتبايعون الغريب معي؟!!

تحدثوا بصوت جهور وقالوا:

- نعم نبايع

وهنا رفرف قلب أحمد من السعادة ونظر للسماء وحمد الله وأثنى عليه..

ثم تحدث حواس وقال:

- لك المقام فأخبرنا بما ستفعله..

نظر أحمد لنوران وقال:

_ هنيئا لك العثور على أبيك حيا فهذا من فضل الله

ابتسمت في حياء وقالت:

_ الحمد لها.... أقصد الحمد لله القدير

ثم تغيرت نبرة صوته بشدة وارتفعت بشكل مخيف واتسعت عينيه وبدأ يتلو..

" فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ۝ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ"

وهنا صرخ الكل بلا استثناء.. الأقزام وحواس ونوران.. تساقطوا كحبات المطر وأخذوا يرتجفون وينتفضون في عنف وهو لا يتوقف.. ظل يردد كلماته مرات ومرات حتى خرج الضباب الحالك من الأفواه والصدور وراح يتشكل على هيئة شياطين راحت تزأر وتتخبط بين

الأشجار.. ولكن هذا لم يوقفه وإن دب الخوف في قلبه.. وظل يردد ويردد حتى تراخى الضباب ببطء شديد وابتلعته أرض الغابة إلى الأبد..

وكانت صدمة للكل حينما نهض الأقزام ورأوا بعضهم في تلك الهيئة.. بشر يشبهون الغريب كثيرا في كل شيء.. انكمشت الملابس عليهما واستطالت أجسادهم وحسنت وجوههم.. أما حواس فقد ضمر جسده قليلا وإن بقي على حاله مفتول العضلات ضخم الجسد.. أما نوران فقد شعرت بأن جلدها قد تغير بأكمله وأنها صارت أنقى وأطهر من ذي قبل..
تركهم أحمد لدقائق يهنئون بعضهم ويفرحون ويبكون.. تركهم ليخرجوا كل مشاعرهم المدفونة حتى انتهوا.. وهنا وقف بينهم من جديد وإن أصبحوا يناهزونه طولا وقال:

- والآن هيا لنرسم خُطة

******

قلبها يتفتت ونياطه تتمزق وروحها تصرخ من الحزن.. لقد قرر أن يبتعد.. أن يكمل رحلته وحيدا.. هكذا كانت الخطة تقول.. وهكذا حسم أمره.. وهكذا لم يبالي بها ولا بما تحمله له.. أخائن هو؟!
أم أنها المصلحة العامة؟!
وقف بينهم ليستعد للرحيل بعد أن رسم خطة كاملة.. ثم قال:

- رددوا معي
- ....
- أشهد أن لا إله إلا الله

فقال الجميع:

- أشهد أن لا إله إلا الله

ثم قال لهم:

- _ فلتحيوا عليها من اليوم وتموتوا عليها فهي منجية من الدنيا ومن عذاب الله.. واعلموا أنه ما من إله إلا الله ولا ينبغي أن يكون إله غيره واعلموا أنكم جند الله اليوم وأنه ناصركم لا محالة إن أنتم نصرتموه

وهنا صاح الكل فرحا بعد أن اجتمعت القبيلة كلها وبايعته على النصر أو الموت.. وهنا سقط أحد الأقزام أرضا وأخذ ينتحب ويبكي بعنف..

تطلع له أحمد ثم عرفه حتى بعد أن تحول جسده لرجل ناضج.. وأضاء عقله أكثر وأكثر.. وقام بتعديل الخطة قليلا..
ثم تقدم إلى نوران وحبس أدمعه بباب من فولاذ وقال:
- _ لقد وفقك الله ووجدت أباك وقد ساعدتني بشدة ولكن صدقيني لا ينبغي أن تكملي معي الأمر فدورك مع أبيك أعظم بشدة وبمشيئة الله سأراك عما قريب
وهنا لم تتمالك نفسها فأجهشت بالبكاء وسالت العبرات من عينيها فانصرف هو على الفور ومن عينيه تساقطت الكثير من العبرات الصامتة..

*****

أنطلق من جديد عازما على النصر ولا شيء غيره.. ولكن ما به؟!
قلبه يئن ويشتكي.. قلبه مفطور.. مكلوم..
لا يهم فلينتهي من الأمر برمته ثم ينظر في أمرها..
ولكن خاطرة جديدة جالت في خاطره..
أهو عقاب من الله؟!
لقد انتهك حرمة جسدها في أوقات كثيرة.. لقد لامس كفيها واحتضنها مرة.. لماذا لم يصبر على هذا؟!
إذا فليستغفر قبل أن يعاقبه الله ويحرمه منها إلى الأبد.. ما أقبحني وأضعفني حينما فعلت هذا.. ماذا سأقول لله حينما يسألني عن هذا؟!
هل سأقول له لقد أشفقت على ضعفها؟!
أم تراني سأنكر أنني فعلت.. فلتعفو يا رب وإلا هلكت في دنياي وأخراي..
استلقى أسفل شجرة ليرتاح قليلا بعد ساعتين من السير المتواصل.. وبدأت نفسه تهدأ قليلا وعقله يصفو تدريجيا.. لاحت له النجوم من بين الأشجار اليابسة فبدأ يتأملها..
لماذا يكره النجوم؟!
بسببها فعل.. ألا تعرف أن هذا الجمال هو من صنع الإله الجميل.. ألا تعرف أن جمالها من جمال الله!
وبدأت روحه تهفو للنجوم حينما حدثته نفسه بذلك.. إنه الله الذي لا يخذل أبدا.. إنه الله الذي يعطي بلا مقابل.. الجميل الذي تشتاق له النفس وتهفو له الروح.. وبدأت النجوم تريه شيئًا من جمال الله وأخذ قلبه

يتعلق بالله ويصفو من حب المرأتين.. الله الله على جمال النجوم فكيف بجمالك يا جميل.. فاللهم أرني انظر إليك يوم أن ألقاك.. ثم ثقل جفنه وهدأت روحه فغط في ثباتٍ عميق..

******

في أنحاء الغابة يتحرك كألف ألف شيطان.. يصول ويجول كعزازيل الصغير دون رقيب أو عتيد.. إن الهاجس الدموي الذي وُكل بتتبعه في قلب الغابة ليفتنه.. لقد قارب على الوصول إليه.. ولكن هناك شيئًا غريبا.. لا يمكنه معرفة ما يدور في أماكن معينة.. ولا يستطيع تحديد وجهة الشاب بدقة.. كيف هذا؟!!

لقد كان يخبر هارمونيا بكل شيء ولكنه الآن مقيد بخط سير معين.. وبما أنه لا يفكر كثيرا ولا يتردد فقد سار لمهمته الأساسية.. فتنة الشاب في غابة الجحيم.. وهناك لمحة مستلقيا يغط في نوم عميق.. هيا لقد بدأ العمل..

*****

المُلك..

حينما تأمر فيطيعون..

حينما تُنهي فينتهون..

حينما تدنو لك الدنيا ونعيمها..

حينما تتسابق الحسناوات لينالوا رضاك..

وقتها تذكر..

لا تتجبر أبدا ولا تتكبر..

لأن وقتها سيبطش بك المتكبر الجبار وستجد نفسك بين فكي جهنم..

فقط قل الحمد لله لتزداد نعمة وفضلا وتذكر أن الفضل بيد الله وأنه ينزع الملك ويعطي الملك لمن يشاء..

وهذا هو البلاء العظيم..

*****

أفاق من نومه ليرى شيئًا عجاب.. إنه في قلب الجنة.. وإن لم تكن الجنة فهي حتما الفردوس الأعلى.. حيث أوسط الجنة وأعلاها..

" يقول العلماء أن الجنة على شكل قبة لأنه كيف تكون الفردوس في الوسط والأعلى إن لم تكن الجنة على شكل قبة "

الانهار تجري أسفل منه.. هذا نهر من خمر وهذا نهر من عسل.. تراب الأرض من فضة وأحجارها من زمرد ولؤلؤ. القوارير على الأرائك من ذهب مطعم بالياقوت.. الأشجار من حوله مصنوعة من الزبرجد والياقوت الأخضر.. الحور الحسان تضحك بصوت يذهب بالعقول قبل القلوب..

الغلمان يلعبون ويهرولون كأنهم اللؤلؤ المنثور.. الخمر مسكوب في أكواب من المرمر له لون الزئبق الشفاف.. رائحة المسك تزكم أنفه.. القصور من حوله من ذهب وفضة..

الخيام من حوله من زجاج ناصع البياض شفاف.. داخلها الحور يبتسمن له فيذوب مع ابتساماتهن..

يسير وهو منتشي مما يراه.. لا بل يحلق كما النسر في فراغ تلك الجنة فتضرب نسمات الهواء العليل وجنتيه فيزداد انتشاء.. الضحكات تملأ المكان مطعمة برائحة المسك.. تقف الجواري أسفل منه يشرن له في دلال.. الغلمان ينظرون له في رهبة يمنون أنفسهم لو يشير لهم إشارة فيتسابقون لجلب ما يريده..

الأغصان تدنو بحبات الفاكهة الحلوة المختلفة الألوان.. الأرائك تسبح فوق الانهار تناديه كي يتكئ عليها..

دنا من الأرض فإذ بإحداهن تلبسه ثوبا شفافا من نور أبيض فيشعر بملمسه الحريري على جسده فيذوب كما يذوب العاشق في عيني عشيقته..

تقدم منه رجل جميل الهيئة بهي الطلعة قد خُلق من نور.. يشع من حوله نورا أحمر اللون فيزيده جمالا وحسنا.. أمسك يديه برقة وقاده نحو عرش كبير يسبح على أحد الانهار.. عرشا لم يرى مثله في حياته.. عرشا مصنوعا من ذهب وفضة مطعم بحبات الياقوت والماس.. صعد درجاته في جلال حتى جلس على كرسيه الذي كان يسبح على سائل أبيض شفاف فشعر وكأنه يغوص في بحر من المتعة اللامنقطعة..

ثم تقدمت الحسناوات يليها الغلمان والأشجار ووقفوا بين يديه ثم...

ثم خر الجميع سجدا أسفل منه.. وهنا شعر بنشوة تسري في أوصاله لم يشعر به في حياته كلها..

مد يده أمامه فتقدمت الحسناوات في دلال يقبلنها فيشعر بملمس شفاههن على يديه فتسري المتعة في أوصاله أكثر وأكثر وتمنى من داخله لو يبقى هنا إلى الأبد..

ثم اختفى المشهد كله ليرى من أمامه رجلا متوترا يخرج من كهف صغير.. كان رث الهيئة يرتدي ملابس بالية والفقر يفضحه من كل مكان.. عيناه تبصر فقرا وجسده يشع فقرا وخطواته تفقر الأرض من ملمسها.. تقدم الرجل ناحية حشد عظيم ووقف بينهم في فضول شديد..
وفجأة صاح الجميع في انبهار وسعادة حينما خرج الموكب عليهم..
هودج ضخم من ذهب خالصا يحمله عشرون رجلا.. ومن داخل الهودج الشفاف كان يجلس رجلا يظهر عليه الثراء الشديد.. كانت الحلي الذهبية تتساقط من الهودج فيتقاتل عليها الناس وكان الخمر يتفجر من أسفل الهودج فيتساقط الناس فوق بعضهم ليرتشفوا منه..
البغال من خلفه محملة بحلي ذهبية وفضية وقطع من أحجار كريمة..
والجواري فوقها يرتدين ملابس من مرمر ويبتسمن في سعادة..
وهنا تحدث الرجل الفقير وقال:

- يا ليت لي مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم

فالتفت له رجل بجواره بسخط وقال:

- ويلك يا هذا ثواب الله خيرا لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون

تجاهله الفقير وظل يتتبع الموكب في انبهار حقيقي حتى وصل الموكب لقصر ضخم ودخل منه وأغلقت البوابات ومن حول القصر الكل يهتف..
قارون
قارون
قارون
قارون
ووجد نفسه يهتف معهم بكل حماسة.. ثم..
ثم ارتجت الأرض بعنف ففزع من فزع وسقط من سقط من هول ما يحدث.. ثم انشقت الأرض من حولهم فهرولوا في رعب يتخبطون ويتساقطون.. ثم ابتلعت الأرض القصر بمن فيه.. لقد خسف الله بقارون

وبداره الأرض.. واختفى القصر من أمام عيني الفقير وهو في حالة من الصدمة العنيفة فحدثته نفسه..
" لو أن الله من عليَّ لخسف بي الأرض"
******
اختفى المشهد ليرى نفسه من جديد في تلك الجنة ومن حوله الجواري يجلسن أسفل قدميه يقبلنها.. أفاق جزء من عقله وراح يصرخ..
" إنها شهوة المُلك"
" إنه اختبار المُلك"
ولكن الجزء الأخر راح يردعه بحزم.. لا يريد أن يفيق هو حتى بعد ما رآه.. من هذا الذي يريد أن يخرج من تلك الجنة.. صرخ عقله من جديد..
" أنت في اختبار عظيم فلتتحرر "
وزجره الجزء الأخر من جديد فقال..
" لن تجد مثل تلك النعمة أبدا ولو عشت خالدا "
و.....
واسترخى في مكانه ليترك الجواري يقبلن قدميه وإن ابتسمت إحداهن في خبث وبرقت عينيها ببريق مخيف..
بريق الهاجس..
*****
يتقدم الموكب المظلم كما هو..
بنفس الهدوء والثبات يخطو خطواته..
وقد جاءه الخبر السعيد.. لقد سقط الفتى في الفتنة حتى النخاع.. لم يستطيع أن يقاتل شهوة الملك والسلطان والتي تذهب بالعقل وتغوي كل النفوس.. إلا ما رحم الله..
وقد اقتربوا منه وبشدة.. سيجدونه ملقى على أرض الغابة مغيبا عن الدنيا.. سيضعونه داخل التابوت وستكلل مهمتهم بالنجاح..
و.......
وفجأة اضطرب الموكب بشدة وسقط التابوت من بين أيديهم حينما سمعوا صوتا يصرخ.. كان يقول كلمات عجيبة ولكنها بثت الفزع في قلوبهم..
كيف هذا؟!!

هم لم يشعروا بخوف بسيط طوال حياتهم فماذا يحدث..
ثم تعالت الصيحات بنفس الكلمات..
" الله أكبر "
ثم صرخ أحد العفاريت متألما حينما اخترق صدره سهما.. نظر له الأخرون في حيرة.. كيف يؤثر فيه السهم؟!
لقد اشتعل السهم في صدره بنارٍ خضراء أخذت تحرقه وهو يتلوى ويصرخ حتى أصبح رمادا أمام أعينهم..
وانقض العشرات من كل حدب وصوب عليهم بأسلحتهم وهم يصيحون بالله أكبر..
ثم أخرج حواس قارورة صغيرة تحتوي على ماء ورشه عليهم فاحترقت جلودهم وصرخوا صرخات مفزعة وكأنها صرخات المعذبون داخل القبور.. وارتفعت السيوف تحصد الأعناق حصدا..
لا تبقي ولا تذر..
السيوف كالنار تخترق الأجساد فتحرقها.. المياه كالحمم تشوي الجلود.. وتساقط العفاريت واحترقت الأجساد.. وارتفع صدى فحيح النيران يخرق مسامع الغابة الصماء وهي تأكل الأجساد.. ولم يتبقى سوى عفريت واحد قد تآكل جسده وأخذ ينازع عزرائيل نزاعا واهنا..
اقترب منه حواس ووضع سيفه على عنقه ونظر لوجهه الأسود الفاحم وقال:

- ما هي مهمتكم؟!

ضحك العفريت ضحكة شيطان مارد وقال:

- سوف تهلكون جراء ما فعلتم

هوى حواس بمقبض سيفه على رأسه فاحترق وجهه وقال ثانية:

- أجبني

تحدث العفريت بصوت واهن وهو مع الموت في سكرات وقال بصوت خشن قادم من أعماق الأرض السابعة:

- كنا سنجلب الفتى وأبشرك يا هذا لقد سقط في الفتنة حتى النخاع وسيخسر تحديه حتما.. أما أنا فسائلك سؤالا
- سل؟!
- كيف تغلبت علينا تلك السيوف؟!

ابتسم حواس وقال:

- لم تتغلب عليكم السيوف وإنما تغلب عليكم ما نُقش على السيوف

ثم رفع سيفه وهوى به على عنق العفريت ففصله وتناثر الرماد يمنة ويسرة وذاب الجسد كله..

تحدثت نوران بخوف وقالت:

- أبي ماذا يقصد بقوله" لقد سقط في الفتنة حتى النخاع"
- حقيقة لا أدري ما هو وضع أحمد الآن ولكننا سننفذ وصيته
- أية وصية

تذكر حواس كلمات أحمد حينما قال..

" لا إله إلا الله هي أقوى الكلمات على وجه الأرض.. فإن وقعتم في مأزق فرددوها حتى تنقطع أصواتكم ففيها النجاة والمدد وكل العون"

وهنا تحدث حواس للجميع وقال:

- سننفذ الخطة كاملة مهما كان ولكن سنضيف عليها جزءا صغيرا
- ما هو

تساءلت نوران فأجاب:

- سنردد قول" لا إله إلا الله" بنية نجاة أحمد مما هو فيه

وهنا انزوت الأشجار وانكمشت الأرض من تلك الكلمات التي خرجت قوية من كل الأفواه..

" لا إله إلا الله"

" لا إله إلا الله"

******

لازال فوق عرشه مدلل من الحسناوات.. الشبق والمتعة يتدفقان في عروقه كما الدماء.. الانتشاء قد بلغ منه مبلغه.. لقد خسر التحدي حتما.. ولكن هناك عين ناظرة من الله تراقب وترى.. هناك جند الله يساعدون.. هناك لطف من الله وفرصة ثانية..

كانت لا إله إلا الله تصل حتى عرش الرحمن لا تمنعها حواجز ولا حتى ملائكة.. وقد تقبلها الله بقبول حسن.. وجعلها سببا للنجاة ولإعطاء فرصة ثانية.. وحينما تقدمت حسناء بسائل شفاف له رائحة العنبر نحو

فمه وحينما مد فمه ليشرب ويسقط للأبد في قبضة الساحرة اختفى المشهد من جديد من أمام ناظري أحمد ليرى ويعي..
عرش مهيب يجلس عليه رجل لا تقدر على النظر في وجهه أبدا من قوة شكيمته وشخصيته الفولاذية التي تحاول التحرر من نظراته.. كان من حوله الآلاف من الانس والجن والحيوانات.. حتى الرياح تقف هناك تنتظر أمره حتى تلبي بخضوع..
لقد كان اجتماعا وكان يتحدث للعامة:

- من منكم يأتيني بعرشها

قال عفريت من الجن:

- أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك

ثم قال آخر وقد أوتي علما خاصا:

- أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك

ثم وفي لمح البصر وجد عرش ملكة سبأ " بلقيس " مستقرا أمامه..
ولكن ماذا قال هذا الملك العظيم الذي مَلَكَ مشارق الأرض ومغاربها ومَلَكَ جيش مثل هذا.. لقد قال:

" هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيم"

ثم راحت كلمات نبي الله سليمان تتردد
" أَأَشْكُر أم أكفر "
" أَأَشْكُر أم أكفر "
"أَأَشْكُر أم أكفر "
ووجد أفكاره تسبح في فراغ لانهائي..
هذا سليمان العظيم وبكل هذا الملك يدرك انه فتنة وبلاء ولا يتوقف عن شكر الله فماذا عنك أنت.. أنت لا تملك سوى سرابا.. كل هذا سراب ليغويك عن مسيرتك.. تحرر
تحرر
تحرر
تحرر
تحرر

تحرر
واقترب الكأس من فمه وتقطر السائل فوق فمه و......
ضرب الكأس بعنف فسقط أرضا.. فنظرت له الجارية في غضب شديد وتحولت ملامحها لشيطان رجيم.. فتراجع للخلف فمُحي كل شيء وأصبح أثرا بعد عين.. لا أنهار ولا غلمان ولا جواري.. إنها غابة قاحلة.. ولكن تلك الشيطانة لازالت أمامه تمسك بالكأس من جديد وتتقدم نحوه وتقول بصوت قوي..
" اشرب وإلا قتلتك "
" اشرب لتعود إلى جنتك وتبقى معنا "
وراودته الأفكار من جديد.. سيشرب ليعود إلى الجنة..
ولكن عقله يصرخ بأنها خدعة وبعد صراع مرير قال لها:
- هلم إلي لأشرب
وتحولت ملامحها على الفور إلى حورية حسناء وتقدمت منه ومدت الكأس..
وبكل قوته أمسك يدها وضغط عليها بعنف وقال:
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أعوذ بالله من نفخه وهمزه
وهنا نظرت له في رعب شديد واختفت على الفور..
سقط أرضا لاهثا بعدما كاد أن يسقط في فتنة ليس لها قرار.. حمد الله كثيرا على النجاة وتطلع من حوله ليشعر بالذعر الشديد..
*****
الغريب
سوف تشعر بالوقت وكأنك تملك الزمان وستعي كم المدة التي قضيتها
لقد مر يومين كاملين وهو هنا.. هذا ما شعر به وتيقن به في داخله.. يا للمصيبة..
نهض من مجلسه وركض بأقصى سرعة وهو يدعو الله أن يصل لنهاية الغابة قبل أن ينتهي يومه الثالث.. لم يشغل باله كيف انتهى اليومين فهو في عالم سحري ليس له قوانين ثابتة.. اللهم نجاة.. اللهم نجاة..
بعد دقائق من الهرولة شعر بألم عنيف يمزق جسده جراء المجهود العنيف الذي يبذله.. توقف لاهثا وقد بدأ الجوع والعطش يفتكان به فتكا..

أخرج تمرة ليأكلها فإذ به يرى شجرة كبيرة بيضاء كالثلج تتدلى منها فاكهة أرجوانية تتلألأ كالماس.. سال لعابة واشتد جوعه لمرآها..
تذكر قول الغريب وقتها وهو يقول:
" لا تشرب مما تراه ولا تأكل منه أبدا"
وقرر أن يمضي في طريقه ولكنه قرر أن يمتع ناظريه فقط بتلك الفاكهة.. اقترب من الشجرة في رهبة فرأها تقطر عسلا أبيضا شفاف اللون ومن جذورها تنفجر نافورة صغيرة من ماء أحمر شفاف.. اضطربت معدته طالبة لهذا وجف ريقه وازدرد لعابه التي لم يجدها..
اقترب مسحورا من الشجرة وهو ينازع رغبته التي راحت تدفعه دفعا نحو الشجرة..
ووقف أسفل الشجرة كالمسحور يتطلع لتلك الفاكهة البديعة.. وهنا دنت فروع الشجرة منه وانحنت الثمار نحو فمه.. وسحره بريق الثمار وقطرات العسل التي راحت تقطر أمام ناظريه..
وكالعادة اختفى المشهد ليرى من جديد..
رجل وامرأة في بستان ملئ بالفاكهة والأشجار.. إنهم يتطلعون إلى شجرة بعينها في انبهار وسحر.. هناك وسواس لا يكف عن الحديث لهما.. يخبرهما أن تلك الشجر هي شجرة الخلد.. يتقدمون نحوها وأعينهم تطل رغبة وشبقا لتلك الشجرة.. يطعمون منها فإذ باضطراب شديد ثم تظهر عوراتهما..
يظهر الرعب جليا على ملامحهما وأخذوا يوارون أجسادهم بورق الأشجار.. هناك صوت جبار يقول..
" ألم أنهاكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين "
وبكل حسرة وألم وذل أجابا..
" ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين"
ثم نادى مناد بصوت عظيم
" يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة "
وكانت وقع الكلمات عليه كالصاعقة فارتد للخلف فأبصر شجرة سوداء طلعها كأنه رؤوس الشياطين.. هرول مبتعدا وهو يحمد الله أن نجاه من جديد.. ثم تناول تمرة وبعض الماء وانطلق من جديد بعد أن ضاع نصف يوم في وقفته تلك أمام الشجرة..

******

غريزة الانثى التي لا تُخطأ أبدا تُحدثها.. تراودها عن قلق حبيس وتوتر فاق الحدود.. الكرة الشفافة لا تنقل لها شيئًا وكذلك الهاجس قد انقطع خبره.. الآن هي لا ترى ما يحدث في تلك الغابة.. مجرد صور مشوشة لا تسمن ولا تغني من جوع.. ومن جديد تراءت لها الرؤية وشعرت بالخوف..

يا ترى ما الذي يحدث في تلك الغابة؟!

كيف فعلها هذا الشاب؟!

الهاجس يتخبط هناك.. يفقد سيطرته.. هي تشعر بهذا وتدرك أن الخطر قد اشتد.. ليتها قتلته وما تركته حرا..

ولكن هناك حل أخير..

العفاريت..

ستبعث لهم برسالة كي يأسروا الشاب قبل الموعد لكي تنجو هي.. وستعرف وقتها كيف تبرر للشعب صنيعها.. وأمسكت الكرة من جديد و...

لا أثر للعفاريت تمامًا.. يا للكارثة.. كيف يحدث هذا؟!

بدأت دموع الخوف تنزلق خفية من عينيها.. شعور بغيض لم تشعر به منذ أن ولت نفسها إلها على تلك الأرض.. الآن تشعر بالضعف والخوف..

الان تشعر كما يشعر البشر.. أتراها رسالة لها كي ترجع عما هي فيه؟!

لا مستحيل سأظل هارمونيا إله مملكة مارق حتى لو سفكت دم كل البشر.. لا تقلقي يا عزيزتي هناك خطط دفاعية أخرى لم تظهر بعد..

وعلى الفور نهضت من فوق عرشها وهبطت درجا ضيقا قادها إلى الاسفل.. ظلت تنزل الدرج حتى وصلت لأعماق الأرض.. ثم دلفت إلى غرفة قد سجن فيها الظلام نفسه وأغلقت الباب الحديدي..

أشعلت شمعة صغيرة ووقفت تتطلع إلى تلك المصلوبة على الحائط.. فتاة لم تتخطى الثانية عشرة.. كانت في حالة يرثى لها وهي تنازع لتحصل على شهيق قد يكون الأخير..

أمسكت أداة حادة وقامت بفض بكارة الطفلة التي تألمت وصرخت فزعة حينما شعرت بهارمونيا.. ثم أخذت قطرة الدم في قنينة صغيرة ورسمت مثلثا صغيرا ثم وضعت الشمعة في الوسط وتلت بعض التعاويذ ثم أسقطت قطرة الدم فوق الشمعة..

وهنا تمدد لهب الشمعة حتى وصل إلى السقف وسط صراخ الطفلة وفزعها.. نهضت هارمونيا بغضب وسخط وأخرجت خنجرا ثم نحرت الطفلة نحرا فتشنجت بعنف ثم همدت حركتها..
وضعتها برفق داخل المثلث ثم رسمت بقطرات الشمعة الذائبة على جسدها ثلاثة أشكال تشبه الصليب †††

ثم وضعت قدمها على رأس الطفلة وراحت تتمتم من جديد..
وهنا ارتفعت صرخات داخل الغرفة من كل مكان.. صرخات لا تمت لعالمنا بصلة.. ثم انطفئ لهيب الشمعة وارتفعت خيوط من لهيب على الجدران من اللامكان ثم ظهر هذا الكائن..
كان يبلغ سقف الغرفة الذي بلغ الثلاثة أمتار.. ذراعيه يجرهما على الأرض وقدميه قصيرة لا تبلغ السنتيمترات العشرة فكان وكأنه يزحف على نصفه السفلي.. كان عبارة عن سائل مزيج من الدماء والطين وإن كان يشبه في زحفه سير الحلزون.. وجهه كان لا شيء.. ليس هناك أية ملامح له.. مجرد جسد من سائل دميم..
ما إن شعرت هارمونيا بوجوده حتى خرت ساجدة.. وهنا وضع إصبعه على الحائط وحركها فبدأت تظهر كلمات تقول..
" ماذا تريدين "
ما إن قرئتها حتى تحدثت بصوت باكٍ.. متهدج.. مرتعد
- المزيد من الهاجس..
حرك إصبعه من جديد وكتب:
- تخالفين العهد والعقاب سيشتد
بكت أكثر وأكثر وقالت:
- فقط تلك المرة
وهنا اختفى الكائن وعاد الظلام إلى الغرفة وإن ظهر صندوق أزرق اللون يبرق في ظلام الغرفة.. زحفت نحوه وفتحته فظهر الضباب.. ولكنه كان أزرق اللون يتأجج كخيوط من لهيب مستعر..
همست بصوت لا يكاد يسمع وقالت..
" بحر الظلمات فتى يدعى أحمد "
وعلى الفور انطلق الضباب يخترق الحوائط لينفذ مهمته.. وابتسمت هي في رضا.. فمن هذا الذي يقدر على الهاجس الناري؟!
لقد خسرت لعبتك أيها الشاب..

******

كان يشعر بهم.. إنها البصيرة التي اكتسبها من الخلوة والعبادة.. هناك من يقترب من داره.. الكثيرون.. لم يدرك بعد أيكونون له شرا أم خيرا..
هل وشى الشاب به فبعثت هارمونيا من يمزقه شر ممزق؟!
فليكن هو لا يخشى الموت على كل حال.. يكفيه أنه قد مات وهو يوحد الخالق..
وبقي على حاله يترقب الموت في هدوء ورضا.. لقد نجى من عذاب الخالق وهذا يكفيه.. ولو كان عذاب هارمونيا شديد فعذاب الخالق أشد..
وهنا دلف رجلا إلى الكهف والتفت الغريب له ثم..
ثم ابتسم في سعادة بالغة وقال له:

- ادنو مني يا حواس
- يا صديقي العجوز لم أصدق أنك لازلت حيا ترزق إلا بعد أن أخبرني أحمد بهذا
- لقد ظننت أنك قد قضيت نحبك على يد جنودها كما قيل
- لا لم يحدث والان لنكمل ما بدأناه منذ سنوات ولم نحققه بعد
- كلي آذان صاغية
- اسمع ما خطط له أحمد ونفذ معي

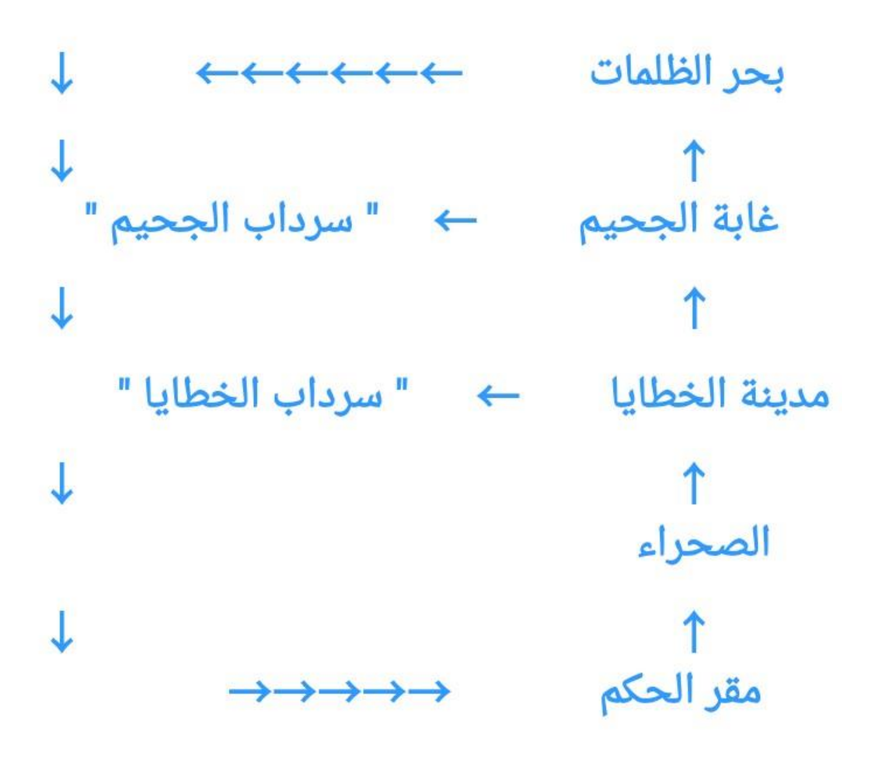
*****

ها قد وصل إلى المبتغى.. خر ساجدا شاكرا لله على توفيقه له وأجهش بالبكاء الشديد.. لقد تخطى المرحلة الثانية.. لقد عبر الغابة وقد نجا من شرورها وسحرها.. يا رب أتم الأمر بقوتك..
ومن أمامه ظهر له بحر الظلمات.. وارتجف جسده من الرهبة.. إنه لا يشبه أي بحر قد رآه من قبل.. المياه هنا قاتمة مخيفة.. الأمواج ثائرة كألف ألف بركان.. هناك صواعق عجيبة تضرب مياه البحر بقسوة فتنفجر المياه وكأنها الحمم..
صوت الأمواج يشبه صوت وحش أسطوري مخيف.. ولكن لا لن يتراجع الآن فبعد هذا البحر سيجد مدينة الحكم كما وصف له الغريب..

*****

الغريب..
مدينة الحكم تقودك إلى الصحراء التي تقود إلى مدينة الخطايا ثم الغابة ثم تعبر بحر الظلمات الذي تشكل على هيئة نصف دائرة لتجد نفسك من

جديد في مقر حكم هارمونيا والمدينة التي تحتضن قصرها.. وهناك سردابان أحدهما في المدينة والأخر في الغابة يسلكه الناس حينما تستدعيهم هارمونيا فيقودهم السرداب للبحر ومنه للمدينة مباشرة..



لنقرأ من جديد ما خطه أحمد عن الغابة..

السلطة والمُلك.. شهوة مهلكة تزرع في صاحبها التجبر والكبرياء وتسقيهما بالقوة والنفوذ فتجعل صاحبها ينازع الله في صفاته.. فليس هناك بجبار غير الله ولا متكبر سوى الله.. فإن أنت نازعت الله في

صفاته وبلغ منك الغرور مبلغه بدأت في الظلم والفجور.. تتحرر من الضمير والتواضع وتسكنك العجرفة والغرور.. ترى نفسك أقوى وأفضل ممن سواك..
وما إن تبدأ في الظلم والبطش ولا تجد من يردعك بل تجد من يتملقك ويثني عليك وقتها تتحرر شهواتك وتلبي كل ما تشتهيه نفسك على حساب العامة.. لا قيود تمنعك ولا رقيب يحاسبك.. وقتها تقتل لمجرد القتل وتنتهك الأعراض حتى تمل ثم تنادي بأنك الإله.. وإن أنت وجدت من يطيعك وحتما ستجد فوقتها ستحاسب وتنصب الموازين المختلة وتعذب وترحم على حسب هواك..
لذا إن ابتلاك الله بسلطة أو نفوذ فاستعملها ولا تجعلها تستعملك.. كن سيدها ولا تجعل من نفسك خادمها.. تذكر سليمان وملكه وكيف أنه شكر الله وأقر بنعمته فما كان من الله سوى أن بسط له المزيد من الملك..
لا تظلم لأن الخالق لم يكتب على نفسه تلك الصفة وتذكر أن الظلم ظلمات يوم القيامة.. لا تنازع الباطش في صفاته فيبطش بك فتهلك..
ارحم رعيتك وأثني عليهم وأكرمهم.. حاسب نفسك قبل أن تحاسبهم وزد في الرقابة على نفسك..
تواضع لله حتى يعلي من شأنك ولا يغرنك بالله الغرور.. وتذكر أن الأمر ما هو سوى اختبار والأحمق فقط من يفشل فيه.. وتذكر أنك مثل رعيتك في كل شيء لولا أن تفضل الله عليك..
وتذكر أنها مجرد شهوة زُرعت فيك كسائر الشهوات فإن لم تخضع لك فحاربها كما يحارب التقي الفجور والمجاهد الأعداء.. حاربها تغنم واستسلم لها تهلك..
حديثي هنا ليس للملوك والرؤساء وإنما لكل مسئول سواء كان رب منزل أو مدير عمل.. تذكر فقط أن هذا ابتلاء وأن عليك من الله عين ناظرة..

أما عن شهوة الطعام والشراب فقد خلقه الله لنا لنتزود منه القوة للعبادة فقط.. فنحن نأكل حتى نعيش ولا نعيش حتى نأكل.. فاحذر بشدة من أن تدخل في جوفك لقمة لم تجلبها من مصدر أحله الله.. لأنك إن فعلت فأنت لا تدخل في جوفك إلا النار.. واعلم أن الخبز يكفيك للعيش وأن

اللحوم والأسماك تكفي أيضا.. فكن زاهدا ولا تركض لتلبي تلك الشهوة وتنسى ما خلقت لأجله.. لا تكرم جسدك بالطعام وتنسى روحك الجائعة.. لا تأكل ما حرمه الله ولا تشربن الخمور فتهلك..

فكما أن الله قد خلق الطعام لنا فقد وضع شروط وموازين فإياك من أن تسرق لتأكل وتشرب أو أن تأكل شيئًا حرمه الله كلحم الخنزير وغيره ولا تشرب ما يفقدك عقلك لأن شهوة الطعام وقتها تكون قد أهلكتك كما أهلكت غيرك وتذكر أن أول ما يتعفن منك في قبرك هو فرجك وبطنك..

جل ما حاربت لأجله هو أهون ما في الجسد.. فلا ترتكب الحرام لبطن سوف يأكلها الدود عما قريب.. أكرم ذاتك بالطعام والشراب الحلال ولا تجعله جل همك..

حفظكم الله وإياي..

******

السحر..

حينما تظهر لك الأشياء على غير حقيقتها..
حينما يرتدي القُبح رداء الجمال..
والتعاسة رداء السعادة..
حينما يكفر البشر ويغضب الرب..
حينما تكون الفتنة في أقوى حالاتها..
حينها فقط تشتد جهنم غضبا..
حينها فقط يشتاق الجحيم..

ثائر هو لا يتوقف عن البطش بمن حوله وكأنه عملاق سيرت له الدنيا.. أمواجه تغلي كحمم بركانية ودواماته تبتلع كفم عملاق لا يشبع.. مياهه قاتمة قريبة من السواد وزبده أسود يبث الخوف في الأعين الناظرة.. هديره مفزع كصراخ الوحوش..

أشجار الغابة على شاطئه تئن وتشتكي من ضرباته القوية.. تطلب النجاة بلا مجيب.. تطلب المدد في ألم.. وقف هو ينظر له وليست هناك أدنى فكرة في عقله لتخبره كيف سيتخطى هذا البحر.. اليوم السادس قد أوشك على الانتهاء.. هكذا كان شعوره بالزمن.. بقى على حاله يفكر وإن طغى صوت البحر على صوت تفكيره..

ليت الغريب أخبره بطريقة للعبور.. أمسك حجرا حادا واقترب من صخرة صماء شامخة كجبل من جليد ونقش عليها أشكال لأفاع في أوضاع مختلفة.. تذكر ما دار بينه وبين الغريب حينما قال له:

- ما تلك النقوش وماذا تعني؟!
- سأعلمك أسرار تلك اللغة
- وهل تظن أنني سأمكث معك هنا سنوات أنا سأرحل بعد قليل
- لا تقلق أحتاج فقط لدقائق معدودة

نظر له غير مصدقا فقال له الغريب:

- السر في عقلك
- كيف

خرج الغريب من مكانه ثم عاد بثعبان صغير ووضعه أسفل قدميه فأخذ الثعبان يتحرك في خوف ثم ينحني ثم يهيئ نفسه للهجوم ومن ثم يعود.. فقال له:

- هذه لغة حية كهذا الثعبان تربط بين الثعبان والعقل فقد زرع الله في عقولنا تلك اللغة واكتشفناها حينما رأينا الثعابين

قل لي أي صوت جاء في ذهنك والثعبان مسترخي الآن..

أضاق أحمد حدقتي عينيه وقام بالتركيز على شكل الثعبان ثم قال:

- أنا أريد النوم فلا تزعجوني

تحرك الثعبان برأسه فقال الغريب:

- والآن؟!

- لقد سئمت منكما ومن حديثكما

قاده الغريب ناحية الجدار الذي نُقشت عليه الرموز فتساءل أحمد:

- هل وفقت في اجتهادي؟!

لم يجبه الغريب ولكنه وقف أمام الحائط وقال:

- والآن حرر عقلك وأخبرني ماذا يقول كل نقش

وبدأ الغريب يخبره بما تقوله النقوش قبل أن يقول هو وشل الذهول لسانه حينما أدرك أن كل ما كان يريد قوله قاله الغريب وعلم أن ما سيدور بذهنه وهو يكتب سيدور بذهن من يقرأ.. يجب أن يتيقن من هذا..

ووقف يتأمل ما نقشه على الصخرة ثم ابتسم..

" أحمد كان هنا "

لا يدري هل كان هذا القارب هنا من قبل أم لا ولكنه رآه.. وفي هذا التوقيت الذي وافق انتهاء ثلاثة أيام أخرى.. ها قد انتهى من الغابة بلا رجعة.. تقدم ناحية القارب الصغير في ثبات وتلا الأذكار من جديد لتحميه من هول ما قد يجده في البحر ثم دفعه بكل قوته حتى استوى القارب على الماء ثم قفز بداخله.. وبالداخل وجد عصا طويلة تصلح لأن يجدف بها ليتحكم بالقارب..

وبدأت الرحلة الأخيرة في تلك المملكة أو ربما الرحلة الأخيرة في الحياة.. لم يعرف بعد.. وانطلق القارب كحلقة وسط فلاة يشق طريقه في بحر الظلمات..

في البداية كان السير بطيئا هادئا.. القارب متزن يترنح في خفة كالعذراء في خدرها.. ولكن الأمر لم يدم طويلا فسرعان ما اضطربت حركة القارب وأندفع بقوة ناحية المجهول ويكأن البحر يشتاق ليلتهم هذا الدخيل.. الأمواج ثائرة تضرب القارب المسكين بدون رحمة والدوامات تقذفه هنا وهناك..

المياه تتناثر على جسده ووجهه كما الشلال ومع ذلك فالقارب يصمد في شجاعة يُحسد عليها.. ولكن إلى متى قد يستمر القارب في هذا؟!

وعلى مد البصر خيل له أن ضبابا أزرق اللون قد وقف يحلق على الشاطئ ثم سرعان ما ذاب مع موجة عاتية.. إنه يتخيل على ما يظن..

الخوف ينبض مع دقات قلبه.. تملكه شعور اليأس بعد ساعة حينما وجد نفسه وسط بحر أسود من المياه الثائرة.. لا يابسة على الإطلاق في أي

اتجاه.. وراوده شعور الضياع.. الضياع من الكون بأكمله.. إنه ها هنا في زمان غير زمانه ووسط بحر هائج لا يملك لنفسه أي نجاة..
سبحان من يجري الفلك بأمره وسط هذا العملاق الباطش.. اليأس والوحدة يحادثانه والخوف يتملكه والدموع تلح عليه لكي تنساب من عينيه.. وجلس على متن القارب ثم انكمش على جسده في وضع الجنين وترك لدموعه العنان.. لقد اشتد الحمل عليه وما من معين.. ثم ما كانت ذكرى نوران تمتزج مع شعوره حتى استلقى أرضا وراح يبكي كما لم يبكي من قبل.. إنه الضعف الإنساني الذي لا تخلو بنية بشرية منه.. إنها اللحظات التي يجب أن تتوقف عندها وتترك دموعك تتحدث.. وقتها سينحدر الأسى والضعف وتعود القوة رويدا إلى جسدك ثانية.. ولكن الهدوء لم يدم طويلا ليترك دموعه تأخذ وقتها وإذ بالبحر يثور هائجا وأخذ يضرب القارب بأعنف ما يمكن فراح القارب يتحرك كالريشة محمولا فوق الأمواج العاتية.. كان موجًا كالجبال راحة يحمل القارب للأعلى ثم يهوي به ليحطمه على سطح الماء.. واشتد الأمر وبدا أن الهلاك قد حضر وأن ملك الموت يستعد لقبض روحا جديدة.. وعقد لسان أحمد وقد انمحت ذاكرته فلم يجد كلمات ليرددها وهو في ساعة الموت.. وهنا اختفى المشهد وأبصر بنور الله من جديد..

سفينة ضخمة على متنها الكثير من الرجال ومن حولها البحر ثائرا كالوحش العظيم.. الكل يدرك أن الغرق سيأتي بين لحظة وأخرى.. ألقوا بمتاعهم كله ولكن لازالت السفينة تئن والموج يزأر والبحر يزداد جوعا.. وهنا كان لزاما أن يلقي أحدهم بنفسه في الماء ليفتدي الجميع به.. ووضعوا أقلامهم ثم اختاروا إحداها.. وكان اسم يونس حاضرا..
تحدث أحدهم وقال..
" هذا رجل صالح فلنكرر القرعة من جديد"
وكرروا الأمر ثانية فيشاء الله أن يظهر اسم يونس ثانية.. وعقدوا العزم على القرعة من جديد ولكن الله أبى إلا أن يظهر اسم يونس.. وهنا أدرك هذا النبي أن الله قد قضى بأمره فما كان منه سوى أن ألقى بنفسه في فم البحر الجائع ليبتلعه في الحال..

ظل يقاوم الموج القاتل ويسبح حتى جاء هذا الحوت العظيم ففتح فمه العملاقة وابتلعه.. كان المشهد في غاية الفزع للمشاهد فما بالك بالمفعول به!
ابتلعه الحوت وسقط يونس في ظلمات ثلاث..
ظلمة الليل..
ظلمة البحر..
ظلمة بطن الحوت..
يا لها من شدة ويا له من ابتلاء عظيم.. يا ترى من منا سيظل متماسكا في موقف كهذا؟!
من منا قد يجد نفسه في سجن في بطن حوت في ظلمات البحر وسيصبر على تلك الفاجعة؟!
بل منا يصبر على أمر أقل من هذا بكثير؟!
لا أظن أن أحد سيقدر عليها.. ولكن يونس أدرك أن الله قادر.. وأدرك أن الله بصير.. وبدأ يردد بلا توقف..
لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين..
لم يتأنى أو يتوقف.. ظل يردد وينتظر أمر الله حتى تعجبت الملائكة وقالت:
" يا رب صوت معروف من مكان مجهول "
وظلت الكلمات تخترق عقل أحمد بلا توقف..
لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين..
لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين..
لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين..
وبعد فترة قدرها الله لفظه الحوت على اليابسة..
واختفى المشهد ليعود إلى واقعه.. وكما كانت رؤياه مزلزلة، لها وقع عنيف في نفسه.. إنه في موقف أقل بكثير مما رآه ومع ذلك أصابه اليأس والقنوط.. استغفرك يا الله..
ثم راح يردد بلا توقف..
لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين..
وبعد دقائق مرت كسنون من الزمان هدأ البحر قليلا وعاد للقارب اتزانه وراح يقطع البحر في همة ونشاط عاليين..

راح يجدف في حماس بعدما رأى من تأثير رهيب لتلك الكلمات على الطبيعة نفسها.. غزاه شعور بالنصر والطمأنينة في تلك اللحظات فتعجب.. يا لغرابة تلك النفس.. بين ساعة وأخرى يتغير حالها كله ولكنه أدرك السر الأكبر.. إذا أردت الطمأنينة لنفسك فتوكل على الله حق توكله.. لا تحمل هم شيء قد كتبه الله قبل أن تولد أنت.. فقط دع الله يسيِّر لك أمورك ولا تزد أنت على الحمد لله..

دقائق تمر ثم ساعة ثم ساعتين حتى شعر بالجوع من جديد فالتقم تمرة ثم جرعة من الماء.. لم يتبقى من العشر تمرات سوى ثلاثة.. سبحان من بارك بهم.. فلم يأكل طوال سبعة أيام سوى سبع تمرات ومع ذلك يشبع في كل مرة.. حاول أن يصف بذهنه قليلا لكي يرتب أفكاره ولكن قلبه وثب من صدره تزامنا مع وثبة هذا الكائن من أسفل المياه على القارب الذي مال بطريقة مخيفة وكاد أن ينقلب تمامًا..

كان كائنا عظميا وإن كانت رأسه على شكل سمكة عملاقة أما جسده فقد كان يشبه جسد الزواحف وخاصة التمساح ولكن المفزع أنه كان يقف على قائمتيه الخلفيتين فكان فارع الطول مخيف الهيئة يبث الفزع في القلوب.. وقف على القارب يتطلع بأعين بيضاء تمامًا إلى أحمد الذي راح ينتفض ويتراجع إلى حافة القارب في رعب.. راح لسانه ينازع ليستعيذ بالله من هذا المخلوق العجيب الذي لم يحرك ساكنا حتى تلك اللحظة.. ولكن كما تعلمون فالأمر لا يدوم طويلا.. وبدأ الكائن يخرج لسانه المشقوق من فمه.. كان لسانه طويلا خشنا يتراقص كما الثعبان المجروح.. اقترب بلسانه من وجه أحمد الذي جاهد لكي يبتعد عن طريقه ولكنه كان يدرك أنه لو تراجع خطوة واحدة لسقط في قلب المياه..

وانقض الكائن عليه وسقط أحمد على ظهر القارب ومن فوقه الكائن يجثم عليه يحاول أن يمزقه بأسنانه المخيفة.. قبض أحمد على رأس الكائن بكفيه حتى لا ينال من وجهه ولكن قوته كانت عاتية وكانت الخسارة قادمة حتما.. كانت لحظات فاصلة.. لحظات تقف بين الموت والحياة تترقب حتى تدفعك ناحية أحدهما.. وارتج القارب بعنف وتسللت المياه إليه واقتربت أسنان الكائن الكثيرة من عنقه وتناثر الزبد الخارج من فمه على وجه أحمد الذي صرخ صرخة عالية ودفعه بقدميه في بطنه فارتد الكائن إلى الخلف مصدرا صوتا شبيه بنباح

الكلاب.. واستل أحمد سيفه في نفس اللحظة التي انقض فيها الكائن ثانية ليجد سيف أحمد بالمرصاد وتنفصل رأسه عن جسده العظمي.. تهاوى جسده على القارب وطارت رأسه ليلتهمها البحر في نهم.. سقط أحمد لاهثا غير مصدقا لما يحدث من حوله.. ولكن ساءت الأمور كثيرا حينما وجد نفسه محاطا بالعشرات منهم وهم يسبحون ناحيته وأصواتهم تملأ مسمعه كأصوات الكلاب الجريحة.. أفواههم تتحرك كاشفة عن أسنانهم الضخمة المخيفة وأعينهم قد فارقتها الحياة..

ولم يتركوه لحظة ليفكر وانقضوا من كل حدب وصوب و.

وانقلب القارب كله ليسقط الجميع في الماء الذي ثار من حولهم وعلا موجه كثيرا.. وأدرك أنه الهلاك في تلك المرة ولكنه لن يستسلم.. سيقاتل حتى آخر رمق ليكون قد فعل كل شيء باستطاعته.. وفجأة فزعوا من حوله وسبحوا مبتعدين وقد ظهر الخوف في أصواتهم وحركاتهم.. راح يضرب بذراعيه الماء محاولا ألا يبتلعه البحر وإذ به يرى حورية بحر.. نعم هو لا يصدق ولكن هذا ما رآه.. أخذت تقترب منه بجسدها الشبيه بجسد البشر الممزوج بزيل الأسماك.. تطلع لها وقد فاق الأمر استيعابه فراح عقله يطلب منه أن يغادره للأبد.. الجنون هو الأقرب لرأسه الآن.. اقتربت منه وهو يسعل ويتحرك بعنف حتى لا يغرق وقالت بصوتٍ هادئ:

- لا تقاوم يا فتى

ثم وضعت يديها على كتفه فأدرك أنها هلوسات سكرات الموت ولكنها لم تكن كذلك لأنها جذبته بعنف ناحية الأسفل.. في أعماق البحر.. وهنا اتسعت عينيه ذهولا وهو يُجذب بقوة عاتية ناحية الأعماق.. توقف جسده عن السحب وطفا في قلب المياه المظلمة.. وشعر بيد توضع على عينيه فإذ به يرى كل ما حوله ثم شعر باليد تتحسس أنفه فرأى الحورية تشير له علامة أن يتنفس.. وبالفعل راح الأكسجين يخترق خلاياه دون صعوبة.. وشل لسانه من غرابة ما يحدث فقالت له:

- لا تترك الأمر يشغلك أكثر من اللازم فهناك ما هو أهم
- وما هو؟!
- ستهاجمك المخلوقات من جديد

أصابه الرعب فقال خائفا:

- وماذا أفعل؟!

- لقد اكتسب جسدك قوة رهيبة أمكنتك من البصر والسمع والتنفس داخل الماء وستمكنك من البطش بهم ولكن شرط أن تتبعني بعدها

وعلى الفور لمح المخلوقات.. العشرات منهم يسبحون ناحيته في سرعة مخيفة.. قالت ثانية:

- هل ستتبعني؟!

قال دون تفكير:

- بالطبع

وهنا انقضت الكائنات وتحول جسده لغواصة بشرية فراح يحاورهم في مرونة وسرعة مدهشة في قلب الماء.. هاجموه ثانية فتعلق بعنق أحدهما ثم ضغط بأصابعه على عنقه فمزقها بكل سهولة.. أصابته نشوة بالغة وشعر بعقار القوة وهو يسري في أوصاله كلها.. يشعر وكأنه قد امتلك قوة ألف ألف رجل.. هاجمه أحدهم فقبض على عنقه ثم جذب رأسه ففصلها عن الجسد.. ولم يتوقف هو بل هاجم ثلاثة ومزق أجسادهم دون أية صعوبة.. وهنا ترددت الكائنات أمام هذا الخصم القوي وراحت تتراجع في خوف وتوتر ولكنه لم يتوقف بل هاجم اثنين آخرين وقضى عليهما لتهرب من أمامه البقية الباقية وقد قررت أن هذا الغداء محال الحصول عليه..

وطفا وسط المياه كنسر يحلق في قلب الظلام.. ومن حوله تبتعد أسماك البحر خائفة وجلة وفي عروقه يشعر بدمائه تركض بسرعة البرق وفي أوصاله تهرول القوة المخيفة.. شعور رهيب راوده في تلك اللحظات.. شعور أنه الأقوى.. أقوى من كل شيء وأي شيء.. أقوى حتى من الزمان والمكان.. ما أجمله من شعور.. وما أجملها من نشوة.. وهنا رآها تقترب في رهبة.. نفس الحورية.. طفت أمامه كما الشمعة المعلقة وقالت:

- يا لقوتك وبأسك يا قوي

أشعرته كلماتها بنشوة لا حدود لها ثم تابعت وقالت:

- لقد وعدتني
- نعم فعلت وسأتبعك ولكن أريد أن أعرف إلى أين

- تلك القوة التي تسري في جسدك مؤقتة ستزول بمجرد خروجك من البحر أما إن اتبعتني وشربت من ماء الحيوان فستبقى تلك القوة تسري في جسدك إلى الأبد

وراحت تسبح من أمامه وهو من خلفها مبتسما منتشيا مطمئنا..

ولكن الأمر تبدل كما البرق ليجد نفسه في مكان آخر وزمان أخر.. إنه في قرية من القرى.. الناس من حوله يتحركون ذهابا وإيابا.. يمارسون حياتهم اليومية بصورة طبيعية.. أين أنا يا ترى؟!

تساءل في نفسه ولكن دون إجابات.. سار في صورة طيف يجوب أنحاء القرية لعله يستدل على شيء ولكنه لم يهتدي.. لم يطل به المطاف حتى رأى رجلان يقتتلان.. شجار عنيف يود كل طرف لو يفتك بالأخر..

وإذ برجل حسن الهيئة قوي البنيان يقترب منهما.. وهنا استغاث أحد الرجلين به مخاطبا إياه..

" أغثني يا موسى فأنا من شيعتك "

وهنا اقترب موسى منهما ووكز الطرف الأخر وكزة بسيطة.. ولكن حدثت الفاجعة حينما سقط الرجل جثة هامدة.. لم يقصد موسى أبدا أن يقضي عليه وإنما أراد فقط أن يدفعه عن الرجل الأخر..

وهنا قال موسى..

" هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ"

وعلى الفور غابت الشمس وعادت من جديد ليظهر مشهد آخر.. نفس الرجل يتصارع مع رجل جديد.. ويظهر موسى في المشهد ليستصرخه ثانية بأن ينقذه فهو من شيعته..

فتحدث موسى قائلا..

" إنك لغوي مبين "

واقترب موسى ليدفع عنه عدوه فإذ بالرجل الآخر يقول..

" أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بالأمس إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأرض"

وعاد ليرى نفسه يسبح ومن أمامه تلك الحورية.. واشتعل عقله بسرعة..

هل هي فتنة جديدة؟!

إذا لم يحكم موسى نبي الله ورسوله قوته فكيف سأحكمها أنا؟!

إذا اقترب الرسول من أن يكون جبارا فوق الأرض بسبب قوته فكيف أنا منه؟!

إنها فتنة جديدة بلا شك.. ولكن لو تركتها فلن أحصل على تلك القوة ثانية..

الله هو القوي فاستمد منه قوتك..

ولكني وعدتها بأن أتبعها..

ولكنك ستكون ظهيرا للمجرمين.. ستعمل أعمال الشيطان وستكون جبارا عصيا..

ولكن...

فتنة قوية لن تصمد أمامها فاهرب منها ولا تخسر الآن بعد أن بلغت تلك المرحلة..

وهنا استعاذ بالله مرات ثم التفت ليعود.. صعد كالبرق إلى سطح الماء وأدرك مكانه بفضل قوته الجديدة.. حدد وجهته وانطلق.. وهنا سمع صوتا مناديا من خلفه.. كانت هي

نظرت له بغيظ شديد وقالت:

- ألم تعدني؟!
- ولكنك تضلين بي الطريق وأنا لا أملك الوقت ولا أريد قوتك هذه
- هل هذا هو قرارك الأخير

نظر لها بقوة وثبات وأومأ برأسه ببطء شديد.. استشاطت غضبا واشتعل وجهها وتحول على الفور إلى وجه شيطان رجيم.. تراجع من قوة المفاجأة وتهيأ لمواجهتها وهو يقول:

- إذا فأنت شرٌ جديد وفتنة أخرى

قالت بصوت هادر:

- أنت غبي تضيع تلك القوة والنعمة العظيمة مقابل إله تزعم أنه أعظم من هارمونيا

لم يتمالك نفسه حينما قالت تلك الكلمات وانقض عليها كالإعصار وأمسك عنقها بقبضة من فولاذ وهو يقول بغضب عات:

- إذا تحدثت بسوء ثانية عن الله فأقسم لك به لأنزعن رأسك من مكانها

تراجعت للخلف خائفة وهي تقول:

- أعطيتك القوة وتهاجمني بها؟!
- نعم أفعل وإن رأيتك ثانية ولو صدفة فسأمزقك شر ممزق..

انطلقت مبتعدة عنه وقد أدرك الهاجس أنه قد خسر تلك الجولة عن جدارة.. والأعجب أنه أعطى له القوة بسهولة وحينما أراد أن يقترب لينتزعها لم يجد سبيلا لهذا وكأن الفتى محصنا من الهاجس..

لا يهم هناك جولة جديدة فالأمر لم ينتهي بعد.. أما أحمد فقد راح يسبح كالقرش العظيم وبسرعة كبيرة.. وبعد ساعات شعر بالتعب الشديد فوقف على قاع البحر يلتقط أنفاسا لا يدرك كيف تخرج من فمه أصلا.. رأى عن يمينه كهفا صغيرا فدلف من فتحته الصغيرة واستلقى.. وعلى الفور سقط في نوم عميق..

*****

تتعجب مما تراه أليس كذلك؟!!

هناك جماعات تتحرك هنا وهناك كأسراب النحل.. هناك أشياء تدبر وكلمات تكتب وأناس يتحدثون.. لا تكن أحمقا فنحن قد اقتربنا من نهاية المطاف وينبغي أن يشتد الصراع.. ولكن العجيب هو أمر هارمونيا التي جلست فوق عرشها تنظر للكرة وقد

انقطع البث تمامًا.. لم تعد ترى ما يحدث في المدينة أو الغابة أو حتى البحر.. إنه اليوم الثامن.. لم يصلها خبر عنه حتى تلك اللحظة ولو استمر الأمر على هذا المنوال فسيكون هنا بعد يومين.. ولكن السؤال الأهم.. هل سيهزمها وتتحقق رؤياها؟!

ولكنه رجل ككل الرجال فكيف لم تغريه النساء؟!

أهناك خطب ما به؟!

علة بجسده مثلا.. لا أظن هذا.. إنه يمتلك قوة غريبة تحميه من براثن الهاجس.. كنت أظن أن الرجال يلهثون خلف شهواتهم.. يبتغون الجنس والقوة ويضعون أي مقابل بعدها.. حتى الطعام يغلبهم دائما.. ولكنها تشعر أن الفتى تغلب على كل هذا.. إنه ليس كأي رجل.. الرجل الذي يهزم شهواته شر هزيمة يستحق لقب سيد الرجال وعن جدارة.. لهذا دق قلبها بشدة له.. ولهذا شعرت بالضعف لأول مرة أمامه.. إنه الوحيد الذي رأته يتغلب على شهوته بعد حواس.. ولكني لن أستسلم لقلبي أبدا.. سأستخدم معه القاضية أو يموت أمام عيناي..

******

استيقظ سريعا وأدرك أن يوما كاملا قد انتهى.. ينبغي أن يتابع المسير حتى يأذن الله أو يموت دون ذلك.. خرج من الكهف وراح يسبح ببراعة شديدة.. ولكن هناك أمر غريب.. البحر قد اشتد ضوء وكأن المياه تشع بريقا خاصا.. بريقا ذهبيا ينعكس على كافة الموجودات.. الأسماك الرائعة تسبح هنا وهناك فتسحر عينيه.. أسماك حمراء تشبه الياقوت وأخرى زرقاء مطعمة بنقاط بيضاء.. القواقع أسفل منه تتحرك وكأنها لؤلؤ مكنون.. أسماك لها سيف كبير من ذهب خالص تسبح هناك وأخطبوط قد خلقت أذرعه من فضة يطفو هنا..

المرجان من حوله يشتد لمعانا وبريقا يسحر الألباب.. أصوات غناء تأتيه من مكان مجهول.. غناء عذب يسحر الآذان ويحلق بالأرواح..

أسماك صغيرة جدا تتحرك في أسراب كبيرة وقد لمعت كلها ببريق أحمر أخَّاذ.. في تلك اللحظة اقترب منه رجلا وجهه كالقمر وردائه ناصعة البياض.. ابتسم له ابتسامة رائعة وقال له:

- من أنت أيها الغريب؟!

فأجابه أحمد مسحورا:

- أنا فقط مجرد عابر سبيل
- مرحبا بك في أي وقت
- أخبرني عن هذا الجمال

اتسعت ابتسامة الرجل أكثر وقال:

- حرك إصبعك

فانصاع أحمد له وحرك سبابته فإذ بقطع من الذهب الخالص تخرج من قاع المحيط وتقترب من سبابته.. أصابته الدهشة وقال:

- كيف هذا

اقترب منه الغريب وقال:

- سأعلمك كلمات تقولها فتملك كنوز البر والبحر وتملك قلوب العباد وتدبر الأمور وتحيي وتميت
- علمني

قالها أحمد وقد أصابه سحر عظيم.. اقترب الرجل منه وقال:

- اينومراه
- وماذا بعد؟!
- فقط فكر فيما تريد وقل تلك الكلمة

وهنا صمت أحمد قليلا ثم أشار بكفه إلى القاع وقال:
" اينومراه "
وهنا خرجت عشرات الأحجار الكريمة من الماس والياقوت والمرجان وحلقت من حوله.. تحسس بعضها في نهم ثم أشار إلى بعض الأسماك وقال نفس الكلمة فالتفت كلها من حوله فامتطى إحداها وهو يكاد يجن من السعادة.. ثم أشار من جديد فجاءته حورية بحر كأنها القمر وحلقت أمامه تنتظر أوامره..
ولكنه رأى بعين الخيال رجلا يركض في أرض مقفرة.. صوت لهاثه قد صم الآذان وعرقه قد تساقط من جبينه لتشربه الأرض في نهم.. شكله مزري ولباسه رث.. قدماه تنزفان دما كلما احتكت بحجر حاد ولكنه لم يتأنى أو يتوقف.. وبعد قليل وصل إلى فتحة في قلب جبل ضخم.. وقف أمامها يحاول أن يلتقط أنفاسه ثم ركض من جديد حتى وصل إلى نهايتها.. وهناك شاهد رجلان يجلسان كأنهم قطع من نور أبيض.. اقترب منهما في وجل ثم قال:

- جئت لأتعلم

فأجابه أحدهما..

- هلم

وهنا جلس أسفل قدميهما في رهبة شديدة..
وبدئوا يحدثونه ووجه الرجل يزداد إشراقا كلما تحدثوا حتى انتهوا.. وهنا شكرهم بشدة ثم ركض مبتعدا ولكن أحدهما استوقفه بصوت هادر وقال:

- إنما نحن فتنة فلا تكفر

ولكن الرجل لم يبالي وركض حيث قومه ليكون سيدهم بما تعلمه من أمور سحرٍ على يد ملكين عظيمين كهاروت وماروت..

وهنا صرخ عقل أحمد..
" يا للمصيبة إنه كفر بالله "
ومن جديد عاد الصراع..
لقد تعلمت فنون السحر كله بكلمة واحدة فكيف تترك هذا كله..
ولكنك ستخسر آخرتك وستحشر مع السحرة الكافرين..
ولكن هناك حورية وذهب وفضة وأسماك رائعة

" زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ"

وهنا كان الفصل بين نفسه وعقله.. وانتصر عقله وأخذ يردد بصوتٍ هادر:

" أعوذ بالله من السحر ومن شر كل شيطان ساحر ومن شر كل ساحر "

ثم ارتفع صوته كثيرا وقال:

" إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين "

وهنا تحول كل شيء إلى هباءً منثورا وعاد البحر الموحش يحتضنه كرحم أم قاسية..

حمد الله على النجاة من كل ما تشتهيه نفسه.. بدء يفكر في تلك الكلمة العجيبة حتى برقت عينيه.. لقد كانت هي ثانية..

اينومراه

إذا عكست حروف الكلمة فتجدها هارمونيا.. يا لخبثك أيتها اللعينة..

وحينما أفاق من شروده وجد أن يومه الثاني قد انقضى ولم يتبقى سوى يوما واحدا ليعبر البحر.. لقد أوشك الأمر أن ينتهي.. فلينجيني الله فيما هو قادم كما نجاني فيما مضى..

*****

تجلس بجوار شجرة شاردة تفكر.. تفكر فيما هو قادم والخطر العظيم الذي سيحيط بهم جميعا.. قلبها يتألم خوفا عليه.. يا الله لا تجعله يصاب بمكروه..

ولكن هل سيتزوجها حقا أم سيرحل حينما يجد وسيلة لذلك؟!

سؤال مخيف أخذ ينهش عقلها بلا رحمة ويدمي قلبها في قسوة.. ليتني ما أحببته ولا عرفته يوما..

هنا اقترب حواس منها وأحاطها بذراعيه وقال لها:

- فيم تفكر حبيبتي

نظرت له بعينين تلمعان بالعبرات وقالت:

- فيه هو

تفهم حواس الأمر بأكمله من هاتين الكلمتين وأدرك الأمر كله.. إنها تحب هذا الشاب وهو لن يقدر على فعل شيء.. ولكنه يدرك يقينا أنها

لن تكون له فهو سيرحل حيا أو ميتا على كل حال.. إنه يرى نفس النظرات التي رآها في عيني أمها من قبل.. نظرات العشق الفاضحة.. ولكن أمها لم تكن صادقة بالقدر الكافي فهل تكون ابنته كذلك؟!

أزاح عبرة سقطت على خدها بإبهامه وهمس في أذنيها..

- أعرف أنك مهمومة حائرة في أمرك ولكني أعرف أين سبيل النجاة

رمقته بنظرة تطلب النجاة فقبلها برفق ثم قال:

- تعالي معي

واقتادها بعيدا ثم أجلسها أرضا وقال:

- غدا سنتحرك يا بنيتي وأيا كان ما سيحدث فهو لأجله لهذا هو لن يخذلنا وسيعطينا أكثر مما تمنينا
- من هو؟!

قالتها برهبة فأشار بسبابته إلى الأعلى وقال:

- الخالق

ثم أردف:

- حدثيه بكل شيء واطلبي منه كل شيء فهو سيقدر على أمورك كلها

ثم تركها ورحل عنها لترفع هي يديها إلى السماء ثم تجهش بالبكاء.. ولأول مرة منذ أعوام تشعر بتلك السكينة الغريبة التي أحاطتها من كل جانب..

*****

اليوم يقترب من نهايته وهو لازال يقضي يومه بين راحة وسباحة.. عضلاته بدأت تئن والتعب راح ينال منه.. لا لن يخسر الآن مهما كان.. لقد بلغ الأمر ذروته وهو منصور بأمر الله.. تذكر لو أنه وصل بعد اليوم الثالث فهل ستعرف هي؟!

نعم فهي ستعرف متى سيدلف مقر حكمها حتما.. يشعر بأنها ساعة واحدة وينقضي اليوم التاسع كله. هناك أصوات عذبة تناديه وكنوز ترفرف من حوله وأسماك رائعة ولكنه كان يدرك أنه لو التفت مرة واحدة فسيخسر.. كم مرة وقع في شرك الفتنة ووجد أن الوقت ينهمر منه كما الشلال المتدفق.. ويكأن هناك علاقة بين الهاجس والزمن فما إن تسقط في شرك الأول حتى تفقد الثاني..

عضلاته تئن من جديد بشدة.. أنفاسه تضيق.. ما الذي يعنيه هذا؟!
لا لن أتوقف.. التقط شهيقا عاليا واخترق المياه كما الغواصة النووية وراح يسرع ويسرع.. الوقت يداهمه والظلام لازال يحيط به.. يسبح بقوة أكبر.. عضلاته تئن.. الأدرينالين يفور.. الظلام اشتد بصورة مخيفة.. إنه يفقد قدراته.. أنفاسه تضيق.. ومع صرخة خرجت من حلقه رأى نور الشاطئ من أمامه.. ونازع جسده ليصل.. وها هو يشهق شهقة الغريق.. و.....
وصل إلى الشاطئ وسقط على أرضه يسعل بشدة ويرتجف كالطائر المنحور.. عضلاته قد ارتخت بشدة وساقيه قد تصلبتا من فرط الجهد..
حتما هو اقترابه من الشاطئ ما فعل به هذا.. ألم تخبره الحورية أنه سيفقد قدراته بمجرد خروجه من البحر.. إذا فقد كان يفقد قدراته كلما اقترب من النهاية..
الأهم أنه قد وصل.. فليدعو الله أن يتم الأمر كما خطط له ولا يفلت شيئًا من بين يديه..
وهناك رآها شامخة كما الجبال الرواسي.. البوابة الخلفية لمقر حكم هارمونيا.. لقد وصل بعد عناء وعذاب شديد.. ولكن الفضل كله لله فلولاه ما خطا خطوة واحدة في هذا الأمر..
اقترب مترنحا من البوابة فانفتحت له على الفور ليراها تقف من خلفها كجوهرة منسية في أرض الضياع.. هارمونيا نفسها تستقبله بعدما علمت بخروجه من البحر..

*****

لنا وقفة أخيرة هنا فهلموا إليَّ..
هكذا كتب أحمد عن القوة والسحر..
إن القوي هو الله والقوي اسم من أسماءه سبحانه.. وهو يبسط القوة لمن يشاء من عباده لتكون فتنة عظيمة لهم.. فيا من ملكت قوة كن على يقين أنها من قوة الله وأنه قادرا على أن يحولها لضعفٍ شديد.. فلا تغرك قوتك ولا تطغو بها على العباد فيبطش بك القوي.. كن رحيما وانصر بها الضعيف والمظلوم ولا تكن جبارا تركض هنا وهناك لتنال القوة والنفوذ لتطغو بها على العباد.. لا تبطش فيُبطش بك ولا تظلم فتهلك

واحمد الله ليزيدك قوة وتذكر أن قوتك من الله وبأمره وأن فيروسا لا يرى قد يدمر قوتك عن بكرة أبيها فلا تغرك قوتك أبدا..

أما السحر فهو فتنة عظمى يشتهيها المرء وإن قلت الفرص للحصول عليها ولكنها أيضا تشغل بال الكثيرين من ضعاف النفوس فتجدهم يفتشون هنا وهناك لينالوا قوة وهمية تسمو بهم على الخلق.. فاعلموا انه الكفر بعينه وحينما تطأ موضع قدم في هذا الأمر فاعلم أنك أقرب للشيطان يومئذ من الله فلا تغرك تلك الفتنة وإن أردت سحرا فاكتفي بالله واعبده حق عبادته فسيهبك وقتها عطايا هي أقوى من أي سحر واتعظ من قول هاروت وماروت
" إنما نحن فتنة فلا تكفر "
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
" من أتى عرافا فصدقه فقد كفر بما أُنزل على محمد "
نظر لها بسخرية شديدة وتحدث بتهكم شديد:

- ما هذا هل انتهى التحدي عند هذا الحد أهذا هو أقصى ما عندك؟!

أشعلت غضبا بسبب سخريته ولكنها تماسكت بقوة حتى لا تفقد زمام الأمور.. لقد تحداها أمام الملأ ولو قتلته الآن قد ينقلب عليها الشعب كله وتفقد هيبتها.. ستتماسك لأنها تملك حيلة أخيرة ولن تتركه.. حتى لو فر منها فسيموت غدا أمام ناظرها وستنتهي قصته للأبد.. ولكنها ستضطر إلى عمل عدة أشياء ليهابها العامة من جديد..
اقتربت منه وابتسمت ابتسامة صافية وقالت برقة شديدة:

- لم أكن أعلم أنك فارسا مغوارا سوى الآن

نظر لها باحتقار شديد وهو يتعجب من نفسه.. كيف ينظر لملكة الحسن والجمال هكذا.. ولكنه جمال يواري قبحا وبشاعة.. صورة ملاك تغطي وجه شيطانة دميمة..
اقترب منه عشرة حراس واقتادوه من مكانه.. سار معهم بثقة شامخا كما الجبل.. يدرك أنها لن تقتله أبدا إلا في الغد.. وربما يكون النصر حليفه هو.. من يعرف..
قادوه حيث قصرها المهيب ثم إلى غرفة فيه وتركوه هناك.. تأمل الغرفة في شرود.. فراش يسبح على سائل أبيض وطاولة من الذهب

عليها أطباق بها الكثير من اللحوم والفاكهة.. استلقى أرضا في هدوء ونظر إلى السماء وهمس لها..
" أغار عليك يا مولاي من مخلوق خلقته أنت فتجرئ عليك ونازعك في ملكك وخلقك وادعى أنه إله مثلك.. وما فعلت ما فعلته إلا لأجلك فإن أنت نصرتني فأنت به جدير وإن لا فلك الحمد والشكر فأنا بمشيئتك راض صابر "
وهنا فُتح الباب ودلفت منها هارمونيا وفي يدها صحن صغير به ثمرة تفاح أرجوانية اللون.. كانت كالعروس يوم زفافها برداء أبيض ناصع البياض تتدلى منه الأحجار الكريمة وشعر معقود كقطع الماس..
اقتربت منه فسبقها عطرٍ أخَّاذ يسحر النفوس.. وقف قبالتها وقال في حزم..

- لا تقتربي وإلا فستكون ليلتك الأخيرة

كتمت غيظها جراء هذا التهديد وابتسمت برقة وقالت:

- لن أقترب فقط اسمع مني
- ها انا استمع
- أنا أعرض عليك نفسي ومملكتي وهاجسي وكنوزي ونفوذي وقوتي
- وما المقابل أيتها الحسناء
- فقط تجلس بجواري غدا أمام العامة وتعلن لهم أنك تنصب نفسك ملكا عليهم وزوجا لي

وهنا هاجت عواطفه كلها واشتعلت شهواته كافة.. إنها تعرض عليه ما يشبع شهواته كلها.. فإنه وإن كان قد تغلب على كل شهوة منفردة فكيف الان..
إنها هارمونيا يعني محيط من جنس لا ينضب وما من رجل لا يتمنى هذا ثم مملكة يحكمها ليكون ملك عليها ثم كنوز لا تعد ولا تُحصى.. أموال ليس لها حصر.. ثم معرفة سر الهاجس ليكون ملك للسحر في تلك الأرض ثم قوة ما بعدها قوة ونفوذ كبير وطاعة من العامة..
لقد عرضت عليه الجنس والمُلك والقوة والنفوذ والمال والسحر معا.. إنه الاختبار الأعظم.. أدركت بفطنتها ما يدور بخلده فهمست له كساحرة فاتنة..

- وافق وسوف تكون ملكا منعم.. تأمر فتطاع وتنهي فينتهون.. ستجري البحار من تحتك وتجلس على العرش عظيما.. بين يديك الحور تبتسم والكنوز تجري ستكون القوي الساحر ملك الأرض كلها..
- وماذا إن وافقت أخبريني بما يدور في خلدك
- فقط أريد معرفة ما يبطل الهاجس
- لن أخبرك قبل أن تخبريني كيف يُصنع الهاجس
- إنه دماء العذارى وكتاب الإله الأسود وأنا سأعطيك الكتاب وستكون الفتيات بين يديك لتأخذ ما شئت من دمائهن والان أخبرني بتلك الكلمات..

قالت جملتها الأخيرة في جشع ظاهر للعيان

فابتسم لها في إشفاق وقال:

- أخبرتك أنها كلمات الله
- وما هي تلك الكلمات
- صدقيني ستعرفينها غدا
- حسنا سأنتظر والآن هل توافق على عرضي..

ابتسم لها واقترب منها ثم تحسس وجهها بأنامله بكل رقة ونظر في عينيها وقال:

- لا

احتقنت الدماء في وجهها وتحدثت بصدى صوت مخيف وقد اشتعل وجهها من جديد:

- سوف تموت أمام عيني غدا وسوف أمثل بجثمانك، ستصلب أمام العامةوتكون عبرة لمن يتحدى هارمونيا..

سارت بخطى سريعة للخارج وهي تشتعل غضبا فإذ بصوته يناديها من جديد:

- هارمونيا

التفتت له بتساؤل فقال:

- أوافق

تهللت أساريرها وكادت أن تنطلق نحوه لتعانقه ولكنه استوقفها بيده وقال:

- ولكن بشرطٍ وحيد

- لك ما شئت

******

الناقور ينقر بعنف في كل مكان بالمملكة.. إنها هارمونيا تطلب مجيء الكل ليشهدوا العرض الخاص الذي وعدتهم به.. الكثير من الهدايا والأموال ستوزع.. الشراب والطعام سيلقى على قارعة الطريق.. الكثير من الهاجس سيحيط بالأجساد.. الجمال والقوة سينال منهما الكثيرين اليوم..
بدأت جموع الأقزام تسير نحو سرداب الجحيم لينزلوا إلى تحت الغابة حيث بحر الظلمات فيعبرونه بواسطة قواربهم فيصلوا إلى مقر الحكم ومن بحر الظلمات اتجه العشرات ليصلوا مع الأقزام إلى مدينة هارمونيا.. أما أهل المدينة فمنهم من عبر سرداب الخطايا ومنهم من تقدم عبر الصحراء.. فكل الطرق في النهاية ستصل بهم إلى المدينة وكأنها روما وكل الطرق تؤدي إليها..
وصلت الجموع مع توسط الشمس في كبد السماء بينما تأخر أهل مدينة الخطايا كثيرا مما أزعج هارمونيا وجعلها في حالة من التوتر الشديد.. لم تعد ترى منذ أيام ما يحدث في الغابة والمدينة والبحر والان لا تصلها أية أخبار.. وبعد تأخر ساعتين كاملتين وصل أهل المدينة على الرغم من أنهم الأقرب ولكنهم وصلوا متأخرين.. حدثت نفسها بأنهم أصبحوا لا يحترمون المواعيد وينبغي أن يعاقبوا وبشدة ولكنها لن تفسد الأمر فلتنتهي من أمر الفتى وبعدها سوف تقوم بمجزرة بسيطة لتعيد لنفسها الهيبة التي قد كسرها الشاب في قلوب العامة على ما يبدو..
وصل الجميع إلى القاعة الدائرية واتخذوا مجالسهم وبقي حضور هارمونيا والشاب المسكين الذي سيلاقي من العذاب الكثير هذا اليوم.. صعدت هارمونيا على العرش فهلل الجميع فرحا وسعادة.. جلست على عرشها فوق الجميع كلوح من الثلج الأزرق المخيف.. راحت تراقب الجموع بأعين جامدة.. تتطلع إلى الساحة التي ستشهد موته في توتر تخفيه داخلها بسهولة وإن لم تستطع أن تملك زمامه بعد..

وهنا فتحت بوابة صغيرة أسفل العرش وخرج منها حارسان يقتادان أحمد حيث منتصف الساحة ثم تركوه هناك.. وهنا وقفت هارمونيا وتحدثت بصوتها الجبار:
" لقد تركت الغريب يحيا برحمتي ويمر بسلام من وسط مملكتي بأمري ودون أن يمسه أذى ولكنه الآن يرد رحمتي ويتطاول على هارمونيا التي تعبدونها واليوم قد حكمت عليه بالموت لتروا جزاء من يتحدى إلهه"
ثم أشارت بأصابعها وقالت:
فليبدئ سباق الموت ومن سيظفر به سيحل عليه وعلى قومه النعيم المقيم..
وهنا خرج ثلاثة.. تتذكرونهم؟!
نعم الثلاثة الذين قتلوا رماح من قبل.. العارية والقزم والضخم..
خرجوا من بوابة صغيرة بجانب الساحة وكل منهم يحمل سلاحه.. تحفز أحمد واستعد للمواجهة وهو يمني نفسه بالظفر والثأر لصديقه الذي قُتل بأبشع طريقة أمام عينيه..
جلست هارمونيا ثانية وهي تهدئ من روعها وتطمئن نفسها بأن الأمر قد بات محسوما لامحالة..
وصرخت العاهرة صرخة محاربة أسطورية وانقضت بخنجرها لا تلوي على شيء، ومن خلفها انقض القزم أما العملاق فقد التف من حوله وانقض..
تراجع أحمد سريعا لينظم هجمة سريعة ولكن الأمر قد اقترب من المستحيل.. إنهم يعرفون كيف يقاتلون وبكفاءة عالية.. أمسك مقبض سيفه و...
وانقض القزم وهوى بالفأس بكل قوة عليه.. تلقى الفأس على سيفه ثم دفع القزم للخلف لتهجم عليه المرأة وتقذف بخنجرها ناحية عنقه فيتفاداه بسهولة فيمر الخنجر مرور الكرام.. وهجم عليه العملاق وأمسك كفه القابضة على السيف بقوة.. دفعه أحمد بحزم ولكنه كان قويا بحق.. رفع العملاق قبضته وهوى بها على وجه أحمد ثلاث مرات فترنح جسده وتراخت قبضته فنزع منه السيف ثم ضربه بقدمه في صدره بعنف فأسقطه أرضا..

نهض أحمد من جديد ولكنه تلقى ضربة عنيفة بظهر الرمح الثلاثي الذي أخرجه العملاق من غمده فتأوه متألما ثم سقط.. حاول أن ينهض من جديد ولكن ضربة ثانية من الرمح جعلته يتهاوى أرضا وهو يلهث بشدة.. اقترب منه ثلاثتهم فحاول أن يزحف مبتعدا ولكنهم أحاطوا به كإحاطة السوار بالمعصم..

ارتفعت دقات قلب هارمونيا وهي تشهد نهايته.. نظر لها ثلاثتهم فأومأت برأسها أن نعم وإن صرخ قلبها بلا.. اقترب القزم منه ثم أخرج من ملابسه شيئًا وقربه من كف أحمد.. أفاق فجأة وأمسك القزم من عنقه وراح يعصر عنقه بكلتا يديه ولكن العملاق هوى بظهر رمحه على رأسه فأسقطه أرضا..

تحسس أحمد صدره وهو يتأوه من الألم ثم.....

ثم شهق شهقة عنيفة حينما اخترق خنجر المرأة صدره فاندفعت الدماء الغزيرة من صدره على الأرض وارتفع صوت الحضور فرحا..

زحف أحمد مبتعدا وهو يشهق ومن صدره اندفعت الدماء ثم نظر للأعلى حيث هارمونيا وابتسم بوهن ثم فارقت عينيه بريقها وأصبح جثة هامدة..

وهنا بكت هارمونيا بصمت وتفطر قلبها ولكنها قد ربحت في النهاية..

تذكرت ما حدث بالأمس حينما قال لها

" أوافق ولكن بشرط "

وحينما تساءلت عن الشرط قال لها..

" آمني بالله يا هارمونيا ولا تعصيه وسوف أتزوجك وأعلمك كل شيء "

تذكرت كيف نظرت له بكل غضب وكادت أن تقتله ثم أجابته.

" سوف أقتل نفسي قبل أن أؤمن بإلهك "

ثم رحلت عنه وهي تقسم أن تقتله إن نجا غدا..

******

نهضت هارمونيا من مكانها وتمالكت نفسها بصعوبة ثم قالت:

" هذا جزاء من يجرؤ على تحدي هارمونيا هيا اصلبوه على هذا الجدار لتنهشه الطيور أمام أعينكم "

واقترب الحراس من الجثة وقبل أن يمسوه فُتحت بوابة أخرى ودلف منها الموكب الأسود.. العفاريت..
نظرت لهم هارمونيا في دهشة وإن تماسكت أمامهم فهي لم تعرف بعد كيف تأخروا وكيف اختفت أخبارهم عنها.. ابتعد الحراس على الفور بخوف واقتربت العفاريت من الجثة ثم حملوها ووضعوها داخل النعش.. وأدركت هارمونيا ما ينوون فعله.. سوف يحرقونه.. هذا ما يريدونه دائما.. صاحت بهم كي يتوقفوا:
" اتركوا الجثمان وارحلوا فسوف يصلب "
التفت الموكب ووقف قبالة عرشها والحشد كله يتابع الأمر بتعجب.. وقف الموكب كثيرا فصاحت فيهم هارمونيا..
" ألا تفهمون يا أغبياء "
وهنا توقف الزمن بأكمله إثر صرخة صرخها أحدهم وكلمات قيلت مع الصرخة.. الوجوه وجمت والأجساد ارتجفت وهارمونيا نظرت بذعر للحشود..
هناك من صرخ بأعلى صوته وسط الحشود وقال:
" إن الله سيبطله "
وهنا انفتح غطاء النعش بعنف وقفز منه أحمد.. نظر له الكل في فزع وقد أصاب الذهول الجميع بلا استثناء حتى هارمونيا والعفاريت.. ولكنه لم ينتظر والتقط سيفه وصرخ
" إن الله سيبطله "
وأشار بسيفه ناحية العفاريت فتساقطوا أمامه صرعى.. والتفت للعارية والقزم والعملاق وانقض كالفارس الهصور وحصد ثلاثتهم حتى قبل أن يمسهم بسيفه.. وسار حتى العرش وأشار بسيفه ناحية هارمونيا التي تملكها ذعر شديد وقال:
" إن الله سيبطله "
وارتفعت الصيحات من كل مكان تردد
" إن الله سيبطله "
" إن الله سيبطله "
" إن الله سيبطله "
وتساقط الأقزام أرضا ينتفضون..
" إن الله سيبطله "

" إن الله سيبطله "
وتغيرت أجساد الأقزام..
" إن الله سيبطله "
وأخرج بعض العراة ملابس وارتدوها..
" إن الله سيبطله "
وانكمشت أجساد أهل البحر..
" إن الله سيبطله "
وتحول جسد هارمونيا كله فأصبحت امرأة كأي امرأة.. نحيلة سمراء قصيرة..
" إن الله سيبطله "
كان الكثيرين يرددونها بلا توقف.. وخرجت الأطياف من الأجساد تتخبط هنا وهناك بلا توقف حتى اختفت تمامًا..
وعم الصمت المكان بأكمله بعد أن تعرى الكل وأصبحت الحقيقة واضحة للعيان.. لقد أبطل الشاب السحر.. هارمونيا ما هي إلا ساحرة..
ثم صاح بأعلى صوته..
" لقد عدت إلى الحياة بأمر الله خالقي وخالقكم وقد أبطلت السحر بقوة الله والان لترووا ما أنا بفاعله "
وهنا رفع سيفه ناحية جثث العفاريت والثلاثة الآخرون وقال بصوت عال:
" بسم الله خالق كل شيء "
وهنا عادت الحياة للأجساد كلها ووقفت تنظر بذهول للجميع.. ثم تابع بصوته
" آمنوا بالله خالقكم وخالقي مبطل السحر ورب كل شيء "
كانت هارمونيا في حالة من الصدمة العاتية التي اجتاحت كيانها كله..
لقد دمر الشاب كل شيء..
لا لن أستسلم بتلك السهولة..
ثم صاحت صيحة نمر جريح...
" يا حرااااااس"
هنا أحاط جمع غفير من الحراس بأحمد وتهيأوا للفتك به.. ووقفت العفاريت لتذود عنه واشتعلت الأحداث وهجم الحراس.. وببسالة شديدة

وقفت العفاريت تقاتل في شراسة عجيبة حتى صاح أحدهم من وسط الجمهور الذي ساده الهرج والمرج..

" احموا الشاب "

وهنا خرجت الأمور عن السيطرة بالكامل ونزل العشرات إلى الساحة وانقضوا على الحراس.. واشتدت الملحمة وسالت الدماء الغزيرة وهارمونيا تصرخ فتستدعي المزيد والمزيد من الحراس.. كانت في ذروة غضبها.. تكاد أن تشتعل فيتناثر رماد الغضب من جسدها.. إنه مُلكها ينهار أمام عينيها وهي لا تقوى على شيء.. حملت خنجرا وركضت نحوه لتنال منه.. هو الذي دمر ملكها وهو من يستحق الفناء..

لم ينزل للذود عنه سوى عشرات قليلة بينما الأغلبية جلسوا يراقبون ما يحدث.. واشتد الصراع وسقطت الأجساد وسالت الدماء لتجري كالانهار.. ولاح النصر لجنودها.. وسقط أغلب من وقفوا للدفاع عن الشاب واتسعت ابتسامتها وهي تنحر كل من يقف في طريقها.. سوف تظفر به على أية حال وسوف تطلب المزيد من الهاجس.. المهم أن تتخلص منه وللأبد.. لقد أصبح كالشوكة التي يجب أن تُقطع.. ولم يتبقى سوى عشرة وأحمد يقاتلون عشرات الحراس الذين أحاطوا بهم من كل حدب وصوب.. وأدرك أحمد أنه الموت.. لا إنها الشهادة.. واطمأنت نفسه وهدأت روحه وقرر أن يستقبل موته بفخر وسرور.. ولكن هناك أمر أخير..

ثم علا صوته وصاح في الناس..

" أيها الناس لقد جاءتكم بينة من ربكم فاعبدوه حتى لا تهلكوا بعذاب الله.. لقد تحررتم من الهاجس فلا تتركوه يتملك منكم ثانية "

ولكنهم كانوا قد ألفوا حياة العبودية.. نفوسهم كانت ضعيفة لا تعي أنهم قد يكونوا أحرارا وأنهم قد يتخلصوا من عبادة هارمونيا يوما ليعبدوا رب هارمونيا.. ثم أنها لازالت تملك زمام الأمور كلها وهم لن يضحوا بحياتهم بسهولة.. لقد صدق الله حينما قال أن أكثر الناس هم الفاسقون والضالون.. وأدرك أحمد أنه قد بلغ الأمانة كاملة وأنهم لن يؤمنوا بحديثه بعد كل ما رأوه.. ونطق الشهادتين حينما سقط خمسة وأقسمت هي أن تنحره بنفسها وتحتفظ برأسه لتضعها أسفل عرشها لتدوسها بقدميها كل يوم.. ورفعت خنجرها وهاجمته وقد خارت قواه تمامًا وأغمض عيناه...

*****

ولكن الله يأبى أن يموت الان.. وحدث ما لم يكن في الحسبان.. لقد تحطمت بوابة الساحة الكبيرة ودخل منها جند كثر وعلى رأسهم حواس والغريب العجوز ونوران.. الكل كان مسلح وعلى أهبة الاستعداد لخوض الأهوال.. وصعقت هارمونيا تمامًا.. لقد فقدت السيطرة على مجريات الأمور.. وعلى الفور التف الخمسة الباقون حول أحمد وسحبوه للخلف ناحية حواس وجيشه.. لم يعترضهم الحراس الباقون وتركوهم ليعودوا.. واصطف الحراس خلف هارمونيا ووقف أحمد قبالتها ومن خلفه جيش صغير..

نظرت له في مقت وغل لو تحولوا لسهام لمزقوه وقالت:

- لن أسامحك أبدا وسوف آخذ روحك بيدي هاتين

نظر لها في ثبات وقال:

- لا يأخذ الروح سوى خالقها

نظرت لما خلفه واتسعت عينيها وهي تقول في ذهول:

- أنت؟؟

تحدث حواس وقال:

- نعم هو أنا يا هارمونيا هل كنت تظنين أنني سوف أرحل دون أن أزيل ملكك

- ألم تمت؟!

ضحك حتى كادت روحه تخرج من حلقه وقال:

- هل أقول لك أن الشاب قد أعادني من موتي أم أخبرك أنني قد خدعتك ما الذي يروق لك

- ولكن كيف؟!!!

- سوف تموتين ولن تعرفي كيف ولكن يجب أن تعرفين أن الله يدبر الأمور رغما عن العباد كلها وكيفما يشاء

- سوف أسحقكم كما الذباب وأحرقكم في محرقة عظيمة لا تبقي ولا تذر

- إن فعلت فهو أمر الله وأنت مجرد سبب أيتها الساحرة

نظرت إلى نوران وقالت:

- وأنت يا فتاة ألم تتعلمي شيئًا في بيت التربية

اشتعلت نوران غضبا وهمت بالهجوم عليها وهي تقول:

- أيتها الملعونة

ولكن أحمد حال بينها وبين هارمونيا وقال:

- ليس الآن يا نوران

ثم تابع وهو ينظر لهارمونيا:

- والان أدعوك ثانية لتؤمني بالله الخالق
- صدقني لو مزقت بدني قطعا قطعا لن أؤمن لك أبدا

ثم هتفت فيمن تبقى من الناس وقالت:

- هؤلاء اتبعوا هذا الساحر وجاءوا ليخرجوكم من أرضكم وينتهكوا أعراضكم يدعونكم لعبادة إله لا ترونه ولنبذي فهل أنتم متبعون

وهنا هاجت الجموع ما بين مشجع لهارمونيا وما بين صامت خائف وما بين العشرات الذين نزلوا ليقفوا خلف جيش هارمونيا..

تحدث أحمد في مرارة وقال:

- لقد جاءهم الحق وعرفوه وقد أقيمت عليهم الحجة ولكن للأسف يجب أن يكون هناك لجهنم سكانا
- وما تكون جهنم تلك

قالتها هارمونيا في سخرية فأجابها:

- محرقة عظيمة تفوق مملكتك حجما لا تبقي ولا تذر
- وأنا أتمنى أن أكون من سكانها على أن أتبعك

هنا تقدم الغريب العجوز بوقار ووقف بجوار أحمد وقال:

- أما اليوم فقد اخترت الكفر يا هارمونيا ولن يكون هناك قتلى ولسوف نرحل وننتظرك في الصحراء حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين

صمتت قليلا وأدركت أنه الحل الأمثل فعلى الرغم من أنها تعلم يقينا أنها قادرة على التغلب عليهم ولكنها داخل مدينتها ولا تضمن ما يحدث خاصة وقد فقدت سيطرتها على الهاجس.. فلتقبل الهدنة وتهيئ نفسها ثم تغير عليهم وتدفنهم في رمال الصحراء ومن بقي منهم تحرقه حرقا..

تحدثت بحدة وقال:

- ارحلوا

وهنا نظر أحمد للعجوز في حيرة فهمس له:

- لقد قضي الأمر فاستجب لي

فما كان منه إلا أن نظر لهارمونيا نظرة أخيرة وقال:

- أشفق عليك مما أنت مقدمة عليه فاستجيبي خيرا لك

ثم التفت وخرج من بين الصفوف للخارج فاتبعه حواس والغريب ونوران ثم باقي الجنود حتى خرجوا إلى الصحراء..

أما هي فكانت في حالة يرثى لها.. هناك صوت يصرخ فيها بأن تتبعه وترجع عما هي فيه ولكنه الغرور الذي أهلك من قبلها وبعدها هو من منعها بأن تكون آمة لله.. تقدمت نحو أحد الجثث ونظرت في وجهه ثم هتفت في ذهول شديد..

" كيف "

كانت تنظر لجثة عفريت من العفاريت ولكنها تعجبت حينما رأت رجل وسيم يرتدي زي العفاريت..

ولكن كيف حدث هذا..

****

منذ عدة أيام..

المجلس يضم أحمد ونوران وحواس وزعيم الشواشنة..

سنتبع تلك الخطة ولن نحيد عنها أبدا..

- هناك موكب من العفاريت يتبعني ويجب أن ننصب له كمينا..

قالها أحمد فتحدث زعيم الشواشنة:

- وكيف سنتغلب عليهم وهم العفاريت
- هم أقوياء بسبب السحر وسوف ننقش على السهام كلمات تبطل السحر ولسوف تحرقهم بأمر الله

وبعد أن يتم الأمر سوف ترتدي فرقة منكم ملابسهم.. ثم ستتحرك فرقة أخرى في الغابة لتنقش تلك الكلمات على كل شجرة، وأنت يا حواس سوف تنقشها كذلك على أرض البحر وأنت يا نوران ستعودين إلى مدينتك لتفعلي كذلك الأمر.. سنحد من حركة الهاجس تمامًا وهذه هي الخطوة الأولى..

سيذهب من بقي إلى الصحراء حيث كهف العجوز وسوف أصف لكم المكان وحاولوا أن تجدوه بكافة السبل وتنتظرون.. وسنحاول أن ندعو كل قزم هنا ليتبعنا وأنت يا حواس حاول أن تدعو قبيلتك وبعض القبائل

في البحر لتتبعنا وبمشيئة الله لن تعرف هارمونيا بما يحدث لأننا سنحد من حركة الهاجس تمامًا..
وحينما أصل بأمر الله إلى هارمونيا وفي نفس اليوم سوف يذهب العجوز بقيادتك يا حواس ومن ينتظر معه إلى مدينة الخطايا ليهاجموها وينشروا الفكر هناك وسأوكل لك الأمر.. يجب أن يسود الهرج تمامًا ويفقد الناس الثقة في هارمونيا وحينما أنتصر على سحرها سيختبئ البعض منا بين العامة في الساحة ليثيروا الهرج ويبطلوا السحر بكلمات الله ثم تهاجمون أنتم بعدها فلا تجدوا حراسا على المداخل لأننا سنشغلهم ليسيطروا على البلبلة التي ستحدث في الداخل..
تسائل حواس:

- ولكن كيف ستقنع العامة هناك بأنك تغلبت عليها

سوف ......
وقبل أن يتحدث لمحه هناك..

******

" وهنا صاح الكل فرحا بعد أن اجتمعت القبيلة كلها وبايعته على النصر أو الموت.. وهنا سقط أحد الأقزام أرضا وأخذ ينتحب ويبكي بعنف.. تطلع له أحمد ثم عرفه حتى بعد أن تحول جسده لرجل ناضج.. وأضاء عقله أكثر وأكثر.. وقام بتعديل الخطة قليلا..

******

- سوف أقوم بتعديل الخطة قليلا.. نوران هل تعرفين المرأة التي قتلت رماح صديقي..
- نعم أعرفها
- أريد منك أن تقنعيها على اتباعنا مهما كانت السبل
- وأنت يا حواس هل تعرف الرجل الذي كان معها من قومك؟
- أستطيع أن أعرفه طبعا
- كذلك سوف تفعل بكافة السبل

ثم اقترب من كبير الشواشنة وقال:

- أريد قزما على هيئة هذا الرجل وأشار للرجل الذي سقط باكيًا

فتساءل زعيمهم:

- أخبرني بخطتك
- سوف ندعو الأقزام لعبادة الله ولو قبل قزما فاتركه ولا تحرره من هاجسه وحاول أن تلين ملامحه لتشابه ملامح هذا الرجل وهو قزما لأنني سوف أدخل في سباق موت مع الثلاثة الذين قتلوا رماح وأريدهم أن يكونوا منا لذلك سيلعب القزم دور هذا الرجل وسيمثلون أنهم قتلوني ووقتها تحضر العفاريت ونقوم بعمل خدعة كبيرة بأنني قد عدت للحياة من جديد وقتلت الثلاثة والعفاريت ثم أعدتهم للحياة بأمر الله لا بأمر هارمونيا فقط أريد بهذا أن أثير البلبلة في المكان فقط..

وهنا تحدثت نوران قائلة:

- وهل ستسامح من قتلوا صديقك
- من قتلت صديقي هي هارمونيا هم فقط مجرد وسائل وقد أمرنا الله بالعفو عند المقدرة وسوف يعود حق صديقي بمجرد هزيمتها

وعلى الفور تحرك الكل.. وتقدم الشواشنة لدعوة كل قزم يقابلونه حينما تعلموا الكلمات، فكانوا يحررون القزم من هاجسه ويدعونه.. قبِل القليل ولم يقبل الكثير حتى بعد تحررهم وكأن النفوس قد استحبت العبودية.. واستطاعوا جلب قزم ولم يحرروه وغيروا من ملامحه ليشابه القزم قاتل رماح والذي عادت له ملامحه..

ثم تحركت نوران ناحية المدينة وخرجت ليلا مع ثلاثة من الأقزام الذين تحرروا من الهاجس ونقشوا على مدار ثلاث ليال كلمات " إن الله سيبطله " على كل بيت..

ثم تحرك حواس ومعه ثلاثة وفعلوا كذلك في البحر وكذلك ثلاثة أقزام نقشوا الكلمات على الشجر.. وخرج عشرة لدعوة الناس في البحر..

ثم استطاع حواس دعوة العملاق قاتل رماح بعد عناء وجدال شديد ثم استمالت نوران في السر العارية الأخرى.. وبعد أن أتم كلٌ مهمته تجمعوا وذهبوا إلى الغريب الذي كان صديقا من قبل لحواس لذلك وجدوه سريعا مكثوا معه حتى اليوم الأخير وتحرك الجمع كله ناحية مدينة الخطايا لأنها أكثر عددا فتعداد سكانها خمسة أضعاف سكان البحر والغابة مجتمعين..

لم تكن المدينة محصنة بالكثير من الجنود لأن اعتماد هارمونيا كله كان على الهاجس الذي ضعفت قوته بسبب ما نُقش على الجدران وتغلب الجيش الصغير على بعض الحراس المحيطين بالمدينة ودخلوها.. كان الناس يتهيأون للذهاب لمقر الحكم ليشهدوا الحدث وهنا خرج حواس يدعوهم لزجر هارمونيا وذكرهم بكل فظائعها وجرائمها في حقهم وحق أبنائهم ودعاهم لعبادة رب هارمونيا.. ولكن لم يستجب سوى قلة قليلة جدا وتحدث أخرون بأنهم سيتبعونه إن تغلب الغريب على سحرها اليوم..

وتحركت الجموع ناحية المدينة بعد أن تأخروا كثيرا ووسطهم بعضا من جيش حواس ليثيروا البلبلة ثم تحرك موكب العفاريت المزيف وانتظر قريبا من البوابة وبعدها تحرك الجيش الصغير..

وبدء الصراع وبرع الممثلون في الأداء وخاصة القزم..

******

اقترب القزم منه ثم أخرج من ملابسه شيئًا وقربه من كف أحمد.. أفاق فجأة وأمسك القزم من عنقه وراح يعصر عنقه بكلتا يديه ولكن العملاق هوى بظهر رمحه على رأسه فأسقطه أرضا

******

لقد أعطى له قطعة ملفوفة تحتوي على الكثير من الدماء فوضعها أحمد على صدره وطعنوه فيها لتقطر الدماء منه..

ثم اكتمل الأمر كما خطط له تمامًا.. ولكنه كان يريد أن يتم الأمر لنهايته ولكن العجوز طلب منه التراجع وكذلك فعلوا ولم يدرك أحمد لما ولكنه قد هزمها وأظهر للناس حقيقتها وزيف أقوالها وهذا يكفيه تمامًا..

*****

سار الجيش الصغير يشق الصحراء في فخر واعتزاز.. النفوس قد تجرعت شعور الحرية للمرة الأولى.. النساء قد شعرن بالعفة وإن لم يعرفن اسمها بعد.. الرجال قد شعروا بالرجولة للمرة الأولى.. هذا الشعور الذي يعطيك الثقة والقوة.. كل تلك المشاعر الإيجابية قد اختلطت معا فعم السكون وانتشرت الطمأنينة بين الصفوف..

سارت نوران خائفة وجلة.. تنظر له بين الحين والآخر بأعين تلمع بالعبرات.. تشعر أن فقدانه قد بات قريبا.. حواس يدرك شعور ابنته

ولكنه لا يملك الحيلة.. أحمد يتماسك حتى لا يفقد اتزانه أمام العامة فيخسر هيبته..
سأل العجوز في تعجب:

- لماذا قررت العودة بعد كل ما فعلنا وبعد أن فقدت مصدر قوتها " الهاجس"
- ألا تذكر ما أخبرتني به من قبل في الكهف حينما قابلتك للمرة الأولى
- ذكرني
- لقد رأيت جثثا عارية في كل مكان وكأن الهلاك قد عم الأرجاء فلم يبقي على أحد، ألم تخبرني أنت بهذا؟؟
- نعم ولكن من أدرانا أن هذا سيحدث عما قريب وقبل أن تجمع شتات نفسها وتهاجمنا
- يا ولدي سنن الله ثابتة على الأرض وأنه لا ينزل العذاب بقوم إلا بعد الحجة البينة والبرهان الواضح، والآن وبعد أن تحرر الكل من سحرها وظهرت الحقيقة واختار الإيمان من اختار، واختار الكفر آخرون فقد وقعت الحجة عليهم والعذاب سينزل عما قريب
- أتقصد انك لم ترد أن يقتل بعضنا أو كلنا وتركت الأمر لما سيحدث
- نعم فلن أجازف بمن آمن بالله فقد نخسر الحرب وهذا كان واضحا للعيان وتبقى هي ومن اختار الكفر ولكن هذا لا يعني اننا سننتظر المعجزة وانما سنحاربهم ولكن بطريقة فرسان الصحاري حتى نملك نقطة قوة ولكني أعلم أن العذاب سيحل قريبا

عم الصمت بعدها إلا من وقع الخطوات المصاحبة للكثير من الغبار..
وصلوا بعد ساعتين لمكان العجوز فأمرهم بالمكوث بالمكان حتى الغد حتى يلهمه الله بمكان يعيشون فيه..
استقر الجميع وخيموا بالمكان على هيئة مجموعات صغيرة وبقي أحمد مع العجوز وحواس ونوران بداخل الكهف..
أشعلوا بعض الحطب والتفوا من حوله يتأملون بعضهم في صمتٍ جميل.. لم يقطعه سوى ارتجاف جسد نوران كل حين ودموعها التي

فقدت تماسكها فسقطت كقطرات الندى.. لاحظ العجوز هذا فأشار لأحمد وحواس أن يذهبا قليلا فاستجابوا ثم ابتسم بحنان كبير إليها وقال:

- ما الذي يحزنك يا صغيرة

لم تتمالك نفسها فأجهشت بالبكاء فتركها قليلا حتى استكانت فقال:

- نظرات العشق فاضحة وأنا أعرف ما يدور في خلدك ولكني أريد منك أن تجيبيني على سؤالٍ واحد
- وما هو
- انظري في قلبك جيدا وتأني قليلا ثم أخبريني هل تحبين أحمد أكثر أم خالقك وخالق أحمد

صدمها السؤال قليلا وإن حاولت البحث عن إجابة في داخلها.. هي لم تتعلم بعد عن الله الكثير ولكنها تذكر كلمات أحمد عنه وتذكر كلمات أبيها من قبل.. هناك جزء في قلبها قد حفه النور والسكينة وقد أخبرتها فطرتها أنه نور الله.. الفطرة تخبرها أن الله هو من يستحق الحب ولا أحد سواه.. هو من سبب الأسباب لتنجو مما كانت فيه وهو من خلق أحمد من الأساس.. إذا فكيف تبكي على أحمد والله لازال في سمائِه يشعر بها، ألم يخبروها أنه بقلوب عباده خبيرا.. ألم يخبرها أبيها أن ترضى بأمره وسيواسيها بأكثر مما تتمنى..

طأطأت رأسها أرضا فابتسم الغريب وقال:

- كنت أعرف أن إيمانك بالله أقوى من كل شيء فقد تذكري من اكتفى بالله كفاه حتى في جانب الحب فسيكفيه الله وتذكري إن تركت شيء لله فسيعوضك بخير منه فابتسمي واشكريه على نعمه كلها

وقعت كلماته على قلبها كوقع كوب من الماء البارد على ظمآن في قلب صحراء شاسعة.. هدأت روحها وابتسمت ثم تكومت على نفسها في ركن قصي ونامت..

بعد ساعات كان الجميع ما بين نائم وصامت فقرر أحمد أن ينام قليلا.. استكان جسده وعمه الخدر الجميل وراح يحلق في عالم الراحة والسكينة ولكن سرعان ما شعر بيد تجذبه عند عالم الراحة.. حاول المقاومة ولكن اليد كان مصرة على انتزاعه فاستيقظ ليرى العجوز...

تساءل عن الأمر فاقتاده العجوز بعيدا وقال:

- لقد آن الأوان لرحيلك يا بني

*****

جاء الصباح فاستيقظ الجيش الصغير ووقف العجوز على رأسهم يحدثهم قائلا:

- لقد كتب الله لنا أن نسكن الغابة ونكون من أهلها ولكن قبل هذا هناك مهمة أخيرة ينبغي أن نفعلها

ثم أشار اشارة خفية فصعد أحمد على تبة صغيرة وقال:

- لقد آن الأوان لأرحل عنكم وإن كنت أنا راحل فالله معكم أينما تكونوا فتعلقوا به وتمسكوا وسينجيكم من كل سوء ومكروب

كان ينازع من بين دموعه ليتحدث وإن لم يتمالك نفسه فترك دموعه تنساب.. احترم الجميع صمته حتى هدأ فأكمل حديثه:

- لقد كتب الله لكم أن تكونوا من خاصته لتسكنوا في جنته فلا تضلوا بعد أن هداكم وسوف يعلمكم العجوز وحواس كل شيء عن ربكم فالثبات الثبات يا قوم

وهنا أجهش الجميع باكيا وهم يرونه يهبط من فوق التبة ثم يتجه بعيدا ناحية مدينة هارمونيا..

سار قليلا ثم التفت وأشار لها فهرولت ناحيته ووقفت قبالته صامتة..

همس لها قائلا:

- هل أنتِ حزينة؟!

ابتسمت له في رقة وقالت:

- كنت أعرف أننا لن نكون معا ولكن تكفيني تلك الساعات التي قضيتها معك لأحيا على ذكراها حتى الممات
- سأنتظرك في الجنة وسأطلب من الله أن يجمعني بك
- وأنا أقسم لك لن أتزوج أبدا وسأعمل بعمل أهل الجنة حتى أموت وسأطلب من الله أن يجمعني بك وقتها
- حسنا فلنا لقاء آخر في مكان أجمل

ثم نظر طويلا إلى وجهها وبعدها نظر إلى السماء وقال..

" رب لا تحرمني منها في الآخرة رب أستودعك إياها حتى ألقاها"

وهنا تقدم منه العجوز وحواس فعانقاه بقوة وقد عجزت الألسنة عن النطق وإن عبرت العبرات عن كل ما بداخلهم..

ثم رحل أحمد

رحل بعد أن تمت مهمته بنجاح..

*****

اقترب الجيش الصغير من مدينة الخطايا فدخلوا من بوابتها بسهولة ووقف العامة ينظرون لهم في غيظ شديد.. لقد ظهرت الحقيقة وظهرت للأعين بشاعة الأجساد ولكنهم أبوا أن يستجيبوا حتى بعد تحررهم من الهاجس..

تحدث حواس إلى الجموع الواقفة..

" أيها القوم لقد جاءكم برهان من ربكم فاستجيبوا لدعواي الأخيرة فالله لن يمهلكم أكثر من ذلك.. أيها القوم اقلعوا عن الفواحش والمنكرات واتقوا الله خالقي وخالقكم.. أيها القوم ابغضوا الزنا والنظر إلى الزنا والتفكير في الزنا والسعي إلى الزنا وكل عمل يقربكم إلى الزنا واستعففوا يعفكم الله "

وانتظر أن يستجيب ولو واحد منهم ولكنهم لم يفعلوا.. لم يكنوا له في قلوبهم سوى المزيد من الحقد والكراهية.. لقد كان السبب في تدمير حياتهم وبشاعة أجسادهم.. لقد كان سببا في تدمير عاداتهم وتقاليدهم وقرروا أن لا يتركوها ولو هلكوا دونها.. واستقر حجر صغير في فخذ حواس فشعر بألم طفيف ولكن سرعان ما رجموه رجما وقذفوا نحوه مئات الأحجار حتى سالت دماءه.. ساد الهرج والمرج وصعد البعض من جيشه الصغير ليحموه وظل العامة يقذفون الجيش بالحجارة حتى طردوه من المدينة بأكملها..

خرجوا من المدينة متعجبين وتساءل البعض عما وصل إليه هؤلاء القوم فلم ينطق الغريب سوى بتلك الكلمات..

" لقد حقت كلمة العذاب عليهم"

واتجه الجميع نحو الغابة حتى وصلوها وبدء عصر جديد.. عصر يعبد فيه الله الواحد الأحد.. وشرعوا في بناء المنازل لتأسيس المدينة الجديدة.. المدينة التي قرروا أن يطلقوا عليها..

" أحمد الراحل"

*****

يسير تحت أشعة الشمس وقد عمت روحه السكينة والهدوء.. لقد فعل ما لم يكن يتوقع أن يفعل يوما.. لقد امتلك حجة قوية ليقف بها أمام الله يوم القيامة.. أما هي فقد استودعها الله ولن يضيع الله الأمانة.. فلتحيي بسلام يا من ملكت الفؤاد والروح..

يا من دق القلب باسمك وطافت الروح بجسدك وانتشت النفس برؤيتك.. سلام عليك في كل حين..

حقا صدق من قال أن المرأة تستطيع أن تعطي ما لا يتخيله العقل.. سبحان من وهبها القدرة على العطاء.. وخاصة لو كانت عاشقة فوقتها انتظر منها المستحيل وستجعله ممكنا بين يديك.. لقد قدمت له نوران ما لم يقدمه أحد وصمدت بجانبه ودعمته ولولاها ما تم الأمر من الأساس..

لقد واسى الله آدم بحواء وواساني بنوران..

وهناك تراءت له مدينة هارمونيا.. كانت مظلمة كجبلٍ في وادٍ سحيق.. مخيفة لمن يراها تبعث الرهبة في النفوس..

اقترب منها فأحاط به الحراس وهموا بالفتك به لولا أن قال لهم:

" جئت لنصرة هارمونيا "

*****

قادوه حيث هارمونيا التي جلست فوق عرشها.. لقد تغيرت ملامحها كثيرا فأصبحت كالمرأة العجوز.. نظرت له في سخرية يشوبها البلاهة وقالت:

- أحياتك رخيصة لتلك الدرجة؟!
- إذا كانت لوجه الله فهي أرخص مما تظنين
- أقسم أن أجعلك تتمنى الموت ولكنك لن تحصل عليه

وأشارت للحراس كي يكبلوه ولكنه أوقفهم بإشارة من يده وقال لها:

- لي حاجة عندك
- فليكن
- اقترب منها حتى دنا من عرشها فاقشعر بدنها وشعرت بأنه يضمر لها شرا فقرأ هذا في نظراتها فقال:
- والله لن أضرك فقط أردت النظر إلى وجهك
- ولما
- لأنني لن أراك ثانية

وقبل أن تسأل عن السبب التف كالغزال حول العرش وصاح بأعلى صوته..

" إن الله سيبطله "

وقبل أن يتحرك أحدا من مكانه اشتعل جانب العرش بنيران خافتة فوثب أحمد بداخله وعاد كل شيء في لحظة إلى ما كان عليه وصرخت هارمونيا صرخة أرملة احترق زوجها أمام ناظريها..

*****

أيقظه العجوز من نومه وأخبره أنه آن الأوان للرحيل..
تساءل عن السبب فتحدث الغريب..
" لقد رأيت جيشنا يلتف حول مدينة الخطايا ثم يرحل عنها، ثم رأيت سحابة سوداء تمطر حمما عليهم.. وسمعت من يقول لي" العرش"
هل تفهم شيئًا من هذا.. صمت تمامًا واحترم العجوز صمته وإن طال صمته ثم تحدث أحمد وقال:

- لقد آن الأوان لرحيلي حقا
- أخبرني يا بني
- اذهب لمدينة الخطايا وادعوهم للمرة الأخيرة فالعذاب قد اقترب أما كلمة العرش فهي سبيلي للعودة
- كيف؟!
- قبل أن يموت رماح رحمه الله قال لي" إن الله سيبطله خلف العرش تجد مرادك"

لقد فهمت الآن ويجب أن أعود إلى هارمونيا واحاول أن أهرب عن طريق عرشها فهو بوابة الخروج..

****

وهنا نظر رماح لأحمد بوجه قد تفحم وبرزت عظامه، وعينين قد برزتا كعين الأسماك وقال بصوتٍ واهن:

- إن الله سيبطله.. خلف العرش تجد مرادك

ثم هوت العارية بخنجرها فاخترق عنق الجسد الذي قد خبت نيرانه، ارتجف الجسد وانتفض مرات ومرات، ثم انطفأ نوره وسكن إلى الأبد ليغلق أحمد عينيه ويسقط هو الآخر في متاهة ضبابية..
لم تشعر بكل هذا القدر من القهر والمرارة مثلما شعرت به وهي تقف أمام العرش وقد اختفى أحمد بجانبه.. لقد اشتعلت دمائها بنيران الغضب وصُب عليه من الحميم.. إنها ثورة الغضب والدماء.. احتقن وجهها

وكادت عينيها أن تخرجان من محجريهما وهي تقف معقودة اللسان لا تلوي على شيء.. لقد دمر كل شيء وهرب.. هكذا بكل بساطة.. لقد نجا وهو بين فكي المقصلة.. لقد نجا وهو بين يديها.. شعور الهزيمة والمرارة والفشل امتزجا بالغضب والذهول فتولد عنهما شعورا لا يصاب به سوى الجبابرة أمثال فرعون وهارمونيا والنمرود..
تحسست بيد متصلبة جانب العرش فوجدته متصلبا.. لقد فعلها صاحبه من قبل ولم تقدر على منعه ولكن العفاريت استطاعوا بقوة الهاجس أن يخترقوا هذا الحاجز الزمني ويعيدوه إليها.. ولكن أين هم الآن وقد ماتوا جميعا.. كانت تظن أنها قادرة على السيطرة على الهاجس ولكنه كان أقوى من أي شخص وحينما لم تمتلك القدرة على السيطرة عليه وجهت قوته الزائدة ناحية العرش.. ومع مرور الوقت والقوة الرهيبة التي تكونت على العرش تولدت تلك الثغرة وتخطتها أيضا.. ولكنها لم تكن تدرك أن الهاجس نفسه سيكون سبب هروب الفتى وهزيمتها..
وهل ستجرؤ على طلب المزيد من الهاجس؟!
إنها تحتاج إلى الأطنان منه بعد أن دحروه في المملكة كلها.. ولكن يكفيها القليل وعفريتا واحدا ليخترق الثغرة ويجلب لها الشاب.. هي تعرف أن الثمن سيكون قاسيا جدا.. سوف تقدم حياتها مقابل هذا.. لقد نفذ رصيدها ولن يقبلوا أن يعطوها ثانية.. الأربعة عشر خادما قد خدموها وها هم قد هلكوا ولا ينبغي أن تطلب عفريتا ليخدمها ثانية.. هذا هو نص العقد وينبغي لكي يعطوها المزيد أن تقدم شيئًا نفيسا.. غاليا..
وهي تدرك أنهم لم يقبلوا سوى بروحها.. فليكن سأقدم أي شيء مقابل أن يعود الشاب واقتله بيدي.. سوف أغتصب حرمة جسده ثم أمزقه أشلاء وبعدها ألتهمه كما الأنعام وليحدث بعدها ما يحدث..
هرولت ناحية الغرفة السرية.. الوقت يداهمها.. قد يهرب أحمد للأبد.. تعي أن ما جعلهم يقبضون على رماح أنهم خرجوا خلفه على الفور.. استدعت حارسا فوقف أمامها في قلب الظلام وجلا ولكنه لم يدرك بعدها شيئًا حينما جزت عنقه ورسمت النجمة بدمائه.. تضرعت بكل العهود والملوك أن يحضر لها.. لا وقت لجلب دماء عذراء.. وقد لبى النداء وحضر.. نفس الكيان المخيف بهيئته اللزجة كالحلزون.. تضرعت له وهي تطلب عفريتا واحدا..

وما إن طلبت طلبها حتى تأججت الغرفة من حولها بالنيران وارتفعت درجة الحرارة بسرعة رهيبة.. شعرت بجلدها يذوب من فوق جسدها ولكنها ظلت تبكي وتصرخ كالنواحة في المآتم ليستجيب لها.. ولكن الغرفة كانت تحترق بحق.. وراح اللون الأحمر يغزو جلدها الذي راح ينضج في سرعة.. تمالكت نفسها وقد فصلتها ثوانٍ عن الاشتعال وركضت إلى الخارج ومن ورائها سمعت صراخ مئات الوحوش وكأنها صرخات من قلب جهنم وخاصة من قعرها..

ركضت إلى الأعلى صارخة وجسدها تلفحه الحرارة بعنف فتشعر بألآم لا حد لها.. خرجت من قصرها وقد نزعت كافة ملابسها وراحت تتخبط في الحراس وتسقط أرضا لتحك جسدها بالتراب وهي تتلوى كثعبان يحتضر.. وهنا لفت نظرها مشهد أنساها كل شيء.. حتى الألم الشديد.. لقد تعجبت من كون الحراس لا يساعدوها ولكنها حينما رأتهم كانت أعينهم تنظر إلى السماء وأجسادهم متصلبة كجذوع النخل.. نظرت للأعلى وارتسم على وجهها أعتى ملامح الفزع وهي ترى سحابة سوداء أشد سوادا من قطع الليل المظلمات.. سحابة تغطي مدينتها بأكملها وإن راحت تنبض كحساءٍ ينضج على النار..

لو صنفنا الفزع لمئة درجة لبلغ بهم المائة وواحد وهم يرون السحابة تفور وتنبض من فوقهم وقد حجبت نور الشمس كله..

*****

لكم انتظرت طويلا هذا الحدث.. كم مرة أشرقت وغربت وهي تنتظر لتكون هي مصدر العذاب لمن حاربوا الله بأفعالهم.. وها قد واتتها الفرصة.. هناك سحابة سوداء قد غطت مدينة هارمونيا وأخرى قد غطت مدينة الخطايا.. لم تعي مما تتكون تلك السحابة.. ولكن السحابة راحت تغلي كلما سقطت عليها أشعتها.. اضطربت فرحا وراحت تلقي بأشعتها في سخاء حقيقي والسحابة تكاد تفور كالمهل..

ثم انهارت السحابتين فوق المدينتين..

لكم عجزت عن وصف هذا المشهد وأنا أرى بعيني سحابة ضخمة بحجم مدينة تنهار كما الشلال فوق أناس عراة.. لا أقدر على وصف كم الفزع والرعب.. لا أقدر على وصف دقات القلوب التي بلغت الحناجر...ولكن حينما بلغ السائل الأسود المدينة أذابها كما يذاب الورق داخل محلول الصودا الكاوية.. أذابها كما يذوب السكر في الماء..

المنازل تبخرت كأنها لم تكن وإن بقي بعضها لحكمة.. الأشجار جرت مع النهر الأسود كأنها شوائب.. نهر عظيم أسود كحمم من الحديد المصهور راح يركض في المدينة بأكملها.. الصرخات لم تخرج من الحناجر والأعين تصلبت على نظرتها.. ولكن العجيب أن البشر لم يذوبوا وإنما تصلبوا كألواح من الخشب.. كلٌ تصلب على هيئته فمن كان جالسا بقي على حاله.. ومن كان راقدا تصلب راقدا.. حتى هذا الرجل الذي كان يعاشر امرأة داخل أحد البيوت قد ذاب البيت وغمرهما السائل ليتصلبوا على هيئتهم..

ثم دخل السائل داخل الأفواه فأذاب كل ما بداخل الأجساد ولكنه ترك اللحم كما هو.. معجزة لن يحلها أعظم عباقرة الفيزياء على مر التاريخ.. معجزة لا يقدر عليها سوى رب المعجزة..

أما هي فقد رأت بعينها وتذكرت رؤيتها.. كان الوقت كافيا وكأنه دهرا لتتذكر كل شيء.. كل نفس أريقت وكل فتاة عذراء سقطت عذريتها وكل شخص احترق وكل امرأة نُحرت.. رأت كل شيء وكأنه مشهد بطيء يمر من أمام عينيها.. ثم رأت آخر صورة.. كانت صورة أحمد.. ثم غطاها السواد وتصلب جسدها كله بعد أن ذابت من داخلها وفي عينيها نظرة أخيرة.. نظرة فزع وألم رهيب ممزوجة بنظرة حب..

******

يتكئ على عصاه متقدما في ثبات.. يضع عصاه على الرمل في عزة من يثبت الأرض في مدارها لا من يتكئ عليها.. يقترب من أطلال خربة فيستعيذ بالله.. يتقدم وسط عشرات الجثث فتنتفض جوارحه وإن ثبت قلبه بالذكر.. اقترب من جدار لم يتهدم بعد ووقف قبالته قليلا ثم أخرج ألة حادة وشرع في النقش.. لم يتوقف للحظة واحدة حتى انتهى بعد وقت طويل.. ثم خرج من وسط الحطام مبتسما وعاد أدراجه ليشق رمال الصحراء بعصاه من جديد ويثبت الأرض في مدارها..

*****

النهاية..

لم يصدق الأمر في البداية وكأنه مجرد حلم لم يستيقظ منه بعد.. لقد هرب منها بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من الموت.. خر ساجدا باكيا حامدا لله.. بكى طويلا حتى نضبت دموعه ثم أفاق.. أفاق ليجد هاتفه بجواره.. كان يجلس بجوار نفس الحفرة التي تحوي السائل الشفاف.. ولكنه الآن يعرف ما هو هذا السائل.. يبدو أن هاتفه قد سقط منه أيضا هنا.. التقطه وراح يركض متخبطا حتى يخرج من المكان كله..

من حوله الجثث يراها وقد علم ما حدث لها.. نظر عن يمينه فرأى مدينة الخطايا وقد امتلأت شوارعها بالجثث المتصلبة وكأنها مدينة الموتى.. يعرفها من توازي شوارعها... نظر عن يساره فأصابته دهشة عجيبة.. إنها مدينة هارمونيا كذلك.. نعم يعرف ملامحها حتى بعد أن اضمحلت ملامحها وأصبحت أثرا بعد عين.. لقد كانت الصحراء الشاسعة تفصل المدينتين عن بعضهما فكيف يراهما الآن متجاورتين ولا يفصل بينهما سوى أمتار.. اقترب من المدينة المنكوبة والتي كانت مقر الحكم فرأى جثث الحراس الفزعة.. سار وقلبه يئن من قوة ما يراه فلمحها هناك.. جثة عارية.. ركض نحوها وهو يتوقع ما سيراه.. وبالفعل صدق في توقعه لقد كانت هي..

كانت مستلقية على ظهرها وفي عينيها نظرة الفزع.. تطلع في عينيها كثيرا ثم هطلت دموعه لتسقط على عينيها فيشعر بأن عينيها قد عادت فيهما الحياة.. تحدث بهمس وقال:

- إنه العدل يا هارمونيا

وراح يبتعد عن المكان بأكمله.. كان يسير في تلك اللحظة وسط مدينة الخطايا وقبل أن يبتعد رأى هناك جدارا وقد نُقشت عليه الرموز.. رموز الأفاعي..

ركض نحوه وأخذ يلتهم النقوش ويفسرها في نهم حتى سالت دموعه على محياه..

" هنا كانت مدينة الخطايا.. المدينة التي حاربت الخالق بالفاحشة.. هنا كانت هارمونيا وهاجسها يعيثون في الأرض الفساد.. تلك المرأة ادعت الألوهية وهتكت الأعراض وأزهقت النفوس.. فما كان من الخالق إلا أن أرسل لها شابا يدعى أحمد من زمان غير زماننا ومكان غير مكاننا.. دعاها لترجع عما هي فيه فحاربته فتحداها.. طاف مملكتها كلها في تسع ليال واستطاع العودة لها.. تغلب على شهواته ومر من بين مدينة الخطايا في ثلاث.. ثم تغلب على الهاجس ومر من الغابة في ثلاث.. ثم تغلب على سحر المياه ومر من البحر في ثلاث.. وفقه الله فهزمها شر هزيمة واستطاع النجاة بفضل الله وقد أنزل الله عذابه عليها وعلى الزناة.. أما من كانوا بالبحر والغابة فقد آمنوا كلهم بعد ذلك ولله الحمد.. شكرا لك يا صديقي العزيز.. " أحمد"

ثم رأى نقشا بالأسفل يقول..

" لم أتزوج حتى الآن وقد بلغت من الكِبر عتيا.. سأنتظرك كما عاهدتني.. لقد بلغت المائة عام اليوم يا فارسي المغوار ولم يمسني رجل.. أنتظرك عند مليك مقتدر.. أحبك

" نوران "

جلس أرضا متأثرا باكيا.. لم يكن يعي أن الدموع لا تنضب أبدا.. أمسك حجرا حادا ونَقَشَ بجوار نقش نوران..

" وأنا أيضا أحبك يا أطهر النساء.. سأحفظ العهد وإن طال البقاء "

ثم راح يلتقط عدة صور للنقوش بكاميرا الهاتف المتواضعة.. فكر قليلا وتساءل..

هل سيُخرج تلك الصور يوما ما ليراها العامة؟!

ربما سيرسلها لصديقه الكاتب ليراها العامة على صفحته التي لا يحبها أبدا ولا يحب ما ينشره فيها من قصص ومقالات وغرائب، ولكن يخشى أن يصارح صديقه بهذا حرصا على مشاعره..

ماذا كان عنوان تلك الصفحة؟!

نعم لقد تذكرت..

... https://www.facebook.com/ahmedsharkawy661

وهنا اهتز المكان بعنف شديد فاشتد خوفه وأخذ يركض كالفهد ومن حوله كان المكان كله ينهار.. زاد من سرعته حتى رأى المخرج وقد اتسع عن ذي قبل فوثب بجسده منه ومن خلفه انهار المكان كله وأصبح لا شيء.. نهض من سقطته ونظر للخلف فرأى الحطام وقد سد مدخل الكهف كله فأدرك أن الأمر قد انتهى إلى الأبد..
خرج من الكهف فرأى الشمس ساطعة والرمال من حوله.. علم أنه قد عاد وأن الله قد نجاه.. سجد حامدا ربه معانقا لحبات الرمال..
دارت عدة أفكار في ذهنه أشدها كانت فكرة كيف سيعود للوحدة الخاصة به؟!
كيف سيبرر غيابه الطويل هذا؟!
ولكن كم المدة التي غابها؟!
أخرج هاتفه وصعق من المفاجأة المدهشة.. إنه نفس تاريخ اليوم الذي سقط فيه داخل حفرة الهاجس.. كل هذا حدث وها هو قد عاد لنقطة البداية.. أصابه سهم من سعادة وشعر بأن الأمور كلها قد باتت بخير.. ومن بعيد لمح غبارا يتحرك فتقدم ناحيته فاتضحت ملامحه.. إنها عربة من عربات القوات المسلحة التي تخترق الرمال في يسر وسهولة.. أشار لها فتوقفت فإذ به يرى ضابط الوحدة الخاصة به.. تساءل الضابط عن غيابه هذا.. فقد مر يوم كامل على ذهابه.. فأجابه:

- لقد ضللت الطريق ولم أستطع العودة في الظلام وهكذا انتظرت مكاني
- لا عليك يا بطل لقد حلت المشكلة وجاءتنا سيارة بما نحتاجه وقد خرجت لأبحث عنك وظننت أنه قد أصابك مكروه

ابتسم ابتسامة واسعة ثم أدى التحية العسكرية قائلا:

- شكرا يا فندم

*****

حينما حل الليل متزينا بنجومه وسكونه خجلت الرياح من أن تعكر صفو المتأملين فتركت الجو دافئا قليلا.. جلس هو في خدمته يراقب النجوم في عشق وهيام.. لم يعد يبغضها بل ازداد حبا فيها ورق قلبه لها عشقا.. كيف لا وهي تدل على جمال الخالق.. كيف لا وهي هداية

للضالين في الظلمات.. بحث بعينيه قليلا حتى استقرت عينيه على أحد النجوم الكبيرة البراقة وقال في نفسه..
" من اليوم سأطلق عليك اسم نوران "
ثم حلقت أسئلة جديد في فراغ عقله..
كيف وصل رماح لمكان دخول المدينة؟!
كيف عرف رماح رحمه الله بوسيلة الخروج؟!
وكيف عرف بقوة تلك الكلمات" إن الله سيبطله "؟
هذه أسئلة يظن أنها ستبقى بلا جواب.. ستبقى هكذا حتى يرى رماح في عالم آخر فيعرف منه السر..
رحمك الله يا صديقي الغالي.. رحمك الله يا من كنت سببا في نجاتي..

*****

" بعد مرور ستة أشهر "

ها هو يجلس متأثرا تختلط المشاعر في صدره.. الحزن يداعبه لأنه سيفارق المكان والأصحاب بلا رجعة والفرح يراوده لأنه قد أتم فترة التجنيد على خير..
إنها فترة الحراسة الأخيرة.. لقد انتهى عامه الأصعب في حياته وأصبح في طي الماضي والذكريات..
كانت نوران تشع ضوءً قويا في تلك الليلة وكأنها تشعر به.. وتشعر أنه سيفارقها في الغد.. راح يهمس لها بكل كلمات الحب والعشق حتى جاءت الشمس تستأذن بأن تقطع الخلوة على الحبيبين.. هبط من البرج وذهب لوداع الضابط وقد تأثر كثيرا لهذا الفراق ثم كان عناقا أخيرا..
صافح زملائه والدموع تبلل الوجوه والألسن صامتة وإن نطقت الأعين بكل شيء.. لم يتبقى سوى سمير.. ذهب إليه حيث كان يقف على برج حراسة متطرف ليودعه..
تقدم من بين الرمال حتى وصل إليه، صعد البرج وعانقه بقوة وقال له:
- فليحفظك الله يا صديقي
- سأراك عما قريب
- إن شاء الله

هبط من البرج وقبل أن يهم بالمغادرة حادثه صديقه من فوق البرج قائلا:

- هل ودعت الكل
- نعم
- ألم تنسى أحدا؟!
- لا لم أنس...

ثم ابتلع كلماته وتذكر أمرا ما فقال:

- بلى لقد نسيت زيارة مكان ما

ها هو يسير بين الرمال يحاول جاهدا أن يتذكر الطريق الذي سار فيه منذ ستة أشهر.. الرمال من حوله لا تخبره بشيء وكأنها تعشق أن تضل الضال والمهتدي..

أغمض عينيه وحاول أن يستدعي تلك القدرة التي كانت تحدد اتجاهاته.. وبعد الكثير من التركيز والعناء استطاع تحديد وجهته..

وبعد فترة لم يحسبها أخبره حدثه أن هذا هو المكان.. وأن تلك التبة هناك هي التي دلف منها من قبل.. تقدم نحوها وراح يتأملها وبداخله تتدفق كل الذكريات عن رحلته الأخيرة.. وما إن انتهت الأحداث من المرور أمام ذهنه توقفت صورة النهاية أمام عينيه.. كانت صورة نوران..

تقدم ناحية التبة وتحسسها فإذ بها تنهار أسفل يديه.. ابتسم في قلق وقال:

" لا لن أفعلها مجددا "

ولكن الفضول راح يدفعه دفعا للمضي قدما بداخلها.. دلف من الفتحة الصغيرة ليجد نفسه في كهف صغير.. سار فيه قليلا حتى رأى مفترق طرق.. اتجه يمينا وسار هابطا للأسفل حتى وصل إلى حائط صخري قد رسمت عليه رسومات غريبة تشبه الديناصورات والماموث.. تطلع لها في حيرة وتساؤل وإذ به يرى حفرة صغيرة تملؤها المياه الجارية..

تعجب من كون المياه تجري أسفل الحفرة وكأنها نهر جار..

تطلع لها كثيرا شاردا وهو يتساءل..

إلى أين قد تقود تلك الحفرة؟!

وما شأن هذا المكان؟!

أهو مكان تلتقي فيه الحضارات القديمة فتنتهي واحدة لتظهر أخرى أم هي نقطة تلاقي الأزمنة؟!

هل سأذهب إلى هناك؟!
لا أظن هذا..
سأعود الآن ولن أرجع إلى هنا من جديد مهما كان الثمن..
ولكن هل تصدق كلماتي تلك بأنني لن أعود ثانية أيها القارئ؟!!
سأترك الجواب لك...

تمت بحمد الله

*****

حكاية أخيرة..

إنه يسير بطمأنينة في قلب شارع مزدحم.. هناك عيني أنثى تراقبه.. تتهادى نحوه في دلال.. تناديه فيراها وقد اشتعلت عينيها ببريق مخيف.. تحدثه وتراوده عن نفسه مقابل أجر بسيط.. يتذكر ويبتسم.. يستحضر روحه فتصرخ فيه بأن يرفض الأمر كله.. ينظر إلى السماء فيرى عين من الله ناظرة.. يبتسم لها في رقة ويقول..

" اتق الله فهو يراك "

ثم يرحل عنها لتهبط عليها كلماته كألف ألف صاعقة.. أتراها وقد رحلت.. ألم تلاحظ تلك الملامح القريبة جدا من ملامحها.. ألم تلاحظ هذا الاسم الذي طبعته على حقيبتها والقريب جدا من اسمها..

لقد كان اسمها.. مونيا..

*****

ترقبوا الجزء الثاني من رواية إن الله سيبطله قريبًا

وتقدر تطلب كل أعمال الكاتب الورقية أونلاين من خلال رقم الواتس
01210826415
أو من خلال موقع ببلومانيا للنشر والتوزيع من خلال البحث عنه على محرك البحث جوجل

"أعمال الكاتب"

- إِنِّي رَأَيْتُ " رواية "
- إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ " رواية "
- هل من مزيد "النار تتحدث" "رواية"

"سلسلة مائدة الفزع"

- حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ "عدد أول"
- المية والدم "عدد ثاني"
- لعلهم يرجعون "عدد ثالث"

"كتاب جماعي"

- يحدث في الجحيم "قصة رفات مظلوم"
- نصفي الآخر "قصة غروب الشمس"

"مجموعة قصصية"

- نساء مخيفات
- نساء مخيفات 2

للتواصل مع الكاتب

فيس بوك

https://www.facebook.com/ahmedshar

kawy661

واتس أب
+201150612413

أنستاجرام
Ahmedsharkawy661